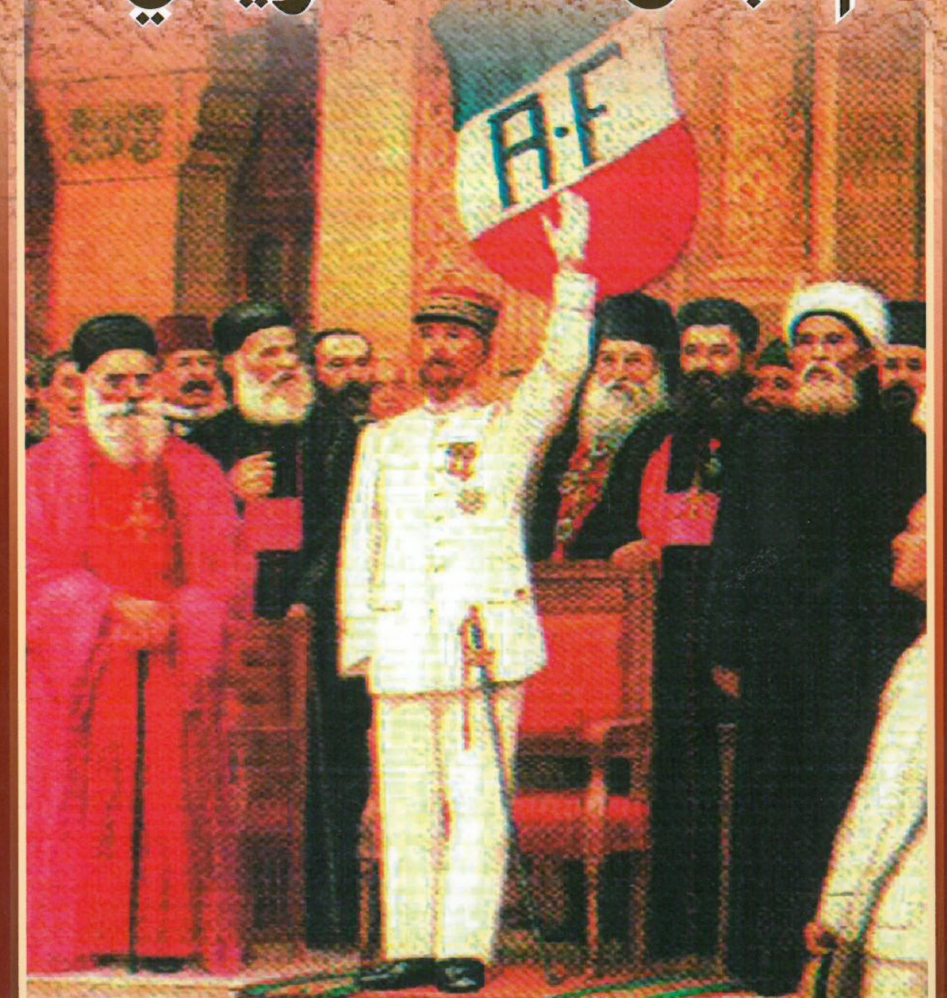
د. لويس صليبا

لبنان الكبير !

أم لبنان خطأ تاريخي ؟



كتب للدكتور لويس صليبا

صدرت عن دار ومكتبة بيبليون

I في الدراسات الإسلامية

1 – **بحث في جذور النظرة الذكورية إلى المرأة في الثقافة الإسلامية**، دراسة وتحقيق لكتاب بستان الراغبين لمحمد مصطفى العدوي. طبعة ثالثة. (ط3)، 250 ص

2 – **النساطرة والإسلام: جدلية علاقة** منذ ما قبل البعثة إلى ما بعد سقوط العباسيين/دراسة وتقديم لكتاب المجدَل للاستبصار والجدل. ط2. 580 ص

3 – **من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام**/جمع، ترجمة، وتقديم لدراسات للمستشرق البروفسور بيير لوري. ط3. 315 ص

4 – **معراج محمد/المخطوطة الأندلسية الضائعة**: ترجمة لنصّها اللاتيني مع دراسة وتعليقات وبحث في جذور النظرة الغربية إلى الإسلام، تقديم سحبان مروة. ط 3. 320 ص

5 – **المعراج في الوجدان الشعبي**: دراسة لأثره في نشأة الفِرَق والفنون والأسفار المنحولة في الإسلام. ط2. 340 ص

6 – **المعراج من منظور الأديان المقارنة**، دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه، تقديم د. جوزف قزي. ط3. 422 ص

7 – **كتاب قتل كاتبه**. دراسة، تعليق وتحقيق لِ تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمّونة الإسرائيلي، (ت683 هـ)، تقديم سحبان مروة. ط3. 590 ص

8 – **دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير**، مدخل نقدي وتنقيح وترجمة كتاب كعب الأحبار لإسرائيل ولفنسون. ط2. 335ص

9 – **توما الأكويني والإسلام: بحوث** في مصادره الإسلامية وردوده على الفلاسفة. 401 ص

10 – **رسالة في الردّ على المسلمين للقدّيس توما الأكويني، دراسة وتحقيق.** 380ص

11 – **جدليّة الجاهليّة والإسلام والمسيحيّة عند النجفي**، دراسة وتحقيق لمذكرات الصافي النجفي. 570 ص

12 – **الديانات الإبراهيمية** بين العنف والجدل والحوار مع بحوث في اليوغا والتصوفين الإسلامي والهندوسي . ط2، 300 ص

13 – **عهود أهل الذمّة**: نصوص ودروس، دراسة وتحقيق لأسفار الأسرار أو كتاب التواريخ لصليبا بن يوحنا الموصلي. 475 ص.

14 – **الإسلام في مرآة الاستشراق المسيحي**، دراسة، نصوص مترجمة وتعقيبات. 500 ص.

15 – **نحو جوار مسيحي-إمامي**: بحوث في نقاط الالتقاء بين المسيحية والشيعة الإمامية.

(يتبع في آخر الكتاب)

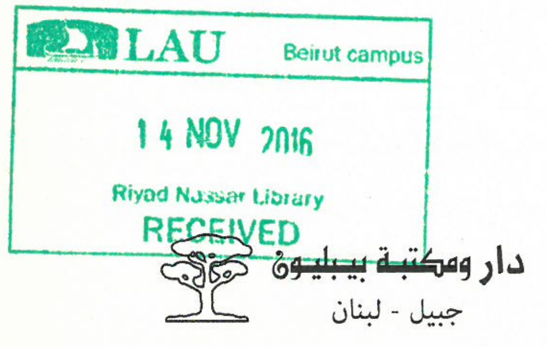
د. لويس صليبا

لبنان الكبير
أم لبنان خطأ تاريخي؟!

نزاعات على الكيان نشأة وهوية

تقديم د. عبدالرؤوف سنّو

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة



دار ومكتبة بيبليون
جبيل - لبنان

المؤلّف/*Auteur* : د. لويس صليبا **Dr Lwiis Saliba**

أستاذ وباحث في الأديان المقارنة/باريس.

عنــوان الكتاب : **لبنان الكبير أم لبنان خطأ تاريخي؟!**

نزاعات على الكيان نشأة وهوية

Titre : *Grand Liban ou Liban faute historique?!*

تــــقــــديـــــم : د. عبدالرؤوف سنو

أستاذ التاريخ وعميد سابق لكلية التربية/الجامعة اللبنانية

عدد الصفحات : 421 ص

سنة النشر : ط2: 2016، ط1: 2015.

الإخراج الداخلي : صونيا سبسبي

التوزيع : **بيسان للنشر والتوزيع**

ص. ب: 5261 – 13 بيروت/تلفاكس 9611351291 +

www.bissan-bookshop.com / info@bissan-bookshop.com

الـــنــاشـــــر : **دار ومكتبة بيبليون**

طريق المريميين – حي مار بطرس- جبيل/ بيبلوس ، لبنان

ت: 09/540256-03/847633 ف: 09/546736

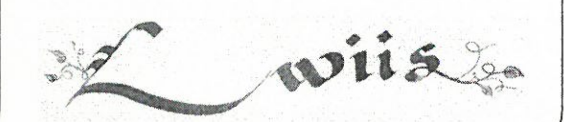
www.DarByblion.com

Byblion1@gmail.com

إهداء

إلى سميرة بشير

حافظة مكتبة جامعة البلمند
أجيال من الطلاب والباحثين
مدينة لك بالنصح والمساعدة
ومنهم كاتب هذه السطور



تنويه

يهمّ كاتب هذا البحث أن يسجّل لبعض الأصدقاء ما أبدوا من عناية ومساعدة في ظهور هذا المصنّف. وأوّلهم الأستاذ أحمد الحوت الذي عمل جاهداً في توفير العديد من المصادر، وناقش المؤلّف آراءه ونهجه وطروحاته.

وشكر ثانٍ لـ صونيا سبسبي التي اهتمّت، كعادتها، بتنضيد الكتاب وإخراجه. ولِـ أماني فياض على مساهمتها في تصميم الغلاف.

وتنويه بما أبدى الصديق جوزف غانم من اهتمام بهذه الدراسة، فقرأ مسودّتها وسجّل عدداً من الملاحظات المفيدة.

وامتنان للدكتور عبدالرؤوف سنّو البحّاثة المؤرّخ، وعميد كلية التربية/الجامعة اللبنانية السابق، لما أظهر من اهتمام بمخطوطة هذا الكتاب، إذ قرأها ودوّن عدداً من الملاحظات... وتكرّم بكتابة مقدّمة لها.

وتبقى مسؤولية الآراء على مَن تأمّل... وكتب.

ل. ص. Q.J.C.S.T.B

تقديم المؤرّخ والباحث
الدكتور عبدالرؤوف سنو

كثيرة هي الكتب والدراسات التي تناولت نشأة "دولة لبنان الكبير" في العام 1920. وقد لا يستطيع أي باحث أن يكتب في تاريخ لبنان الحديث، من دون البحث في الخلافات السياسية والجدال الأيديولوجي الذي صاحب الإعلان عن الدولة اللبنانية الوليدة. ففيما عرفت البلاد مرحلة استقرار سياسي، منذ الإعلان عن قيام "متصرفية جبل لبنان" في العام 1861، كحيّز يسود فيه المسيحيّون بنسبة 80% من سكانها، بقيت المقاطعات اللبنانية خارج الجبل ذات الغالبية الإسلامية على ولائها للسلطنة العثمانية. ومع "لبنان الكبير"، انخرطت الطوائف اللبنانية مع بعضها البعض في نزاعات على أساس انقسام طائفي - سياسي - ثقافي حول مواقفها من "لبنان الكبير" - فأيّده المسيحيون بصفة عامة، لأنه يحقّق أمانيهم في كيان مستقلّ عن محيطه، بينما رفضه المسلمون، لأنه نزعهم من عمقهم العربي-الإسلامي، وشكّل تحدّياً لطموحاتهم.

الأكاديمي والباحث لويس صليبا يغوص بعمق في كتابه الجديد حول نزاعات اللبنانيين في شأن "لبنان الكبير". فيتجاوز المقولة الكلاسيكية المتداولة حول الانقسام العمودي المسيحي الإسلامي، ليشرّح بموضوعية المواقف المؤيدة للبنان الكبير وتلك الرافضة له داخل المعسكر المسيحي، وتحديداً بين الموارنة

الداعمين للمشروع، والروم الأرثوذكس الرافضين له. ولا يكتفي بذلك، بل يدرس تباين المواقف من "لبنان الكبير" داخل الطائفة المارونية نفسها وأسباب ذلك، فضلاً عن التضارب الذي وقعت فيه السياسة الفرنسية إزاء الدولة الوليدة بين الأعوام 1920 و1926، والتي تسبّبت ببلبلة مارونية، ليخلص إلى طرح سؤال مركزي جريء محق:"لبنان الكبير أم لبنان خطأ تاريخي"؟

صحيح أن كتاب الدكتور صليبا ينحصر بمرحلة تأسيس "لبنان الكبير" وتداعياته المباشرة، إلا أن هذا "الخطأ التاريخي" شمل كل الطوائف: الموارنة لأنهم أرادوا كسب الأرض، فخسروا الديموغرافيا؛ والمسلمون لأنهم شعروا أنهم انتُزعوا من عمقهم العربي الإسلامي؛ والأرثوذكس الذين كانوا يخشون التسلّط الماروني عليهم. وقد انسحب هذا "الخطأ"، منذ ذلك الحين، على كل تاريخ لبنان المعاصر، وتحوّل إلى كرة ثلج أطاحت بأية "تفاهمات وطنية" حول تعايش طوائفي بين اللبنانيين أو عيش مشترك. فكان تاريخ لبنان منذ إنشاء "لبنان الكبير" عبارة عن فسيفساء طوائفية ونزاعات طائفية ومذهبية أنتجت اضطرابات وتوترات وحروب، من دون أن تلجمها تسويتان شهيرتان هما "الميثاق الوطني" و"اتفاق الطائف". فـ"الخطأ التاريخي" في الأساس، الذي اتفق فيه مع الباحث صليبا، هو في تجميع سكّان غير متجانسين دينياً وبخصوصيات ثقافية وتجارب ماضوية متنافرة (القومية اللبنانية والعروبة) في حيّز جغرافي أُطلق عليه اسم لبنان. في العالم الغربي، أمكن حلّ هذه المعضلة

بالإبقاء على التعددية، لكن بالتحوّل إلى المجتمع العلماني أو المجتمع المدني، في حين أن بقاء لبنان على حاله الطائفي، أفرز المزيد من التعقيدات والمشكلات، سياسياً ومجتمعياً وعلاقات خارجية.

يخبرنا د. لويس صليبا أن نهاية الحرب العالمية الأولى حملت معها مشاريع كيانية متضاربة للبنان: مشروع الأمير فيصل لإنشاء دولة عربية تضمّ لبنان، رحّب بها المسلمون الذين لم يروا تناقضاً في الانتقال من الرابطة العثمانية إلى العروبة. والمشروع الماروني الذي يريد تكبير "لبنان الصغير" (المتصرفية) إلى دولة لها مقوماتها الاقتصادية من سهول ومنافذ، عبر ضمّ أجزاء من بلاد الشام (بيروت وطرابلس بشكل خاص)، ومشروع الروم الأرثوذكس الذي كان يتلاقى مع الموقف الإسلامي السنّي المؤيد للحكم الفيصلي، على أن يبقى وضع المسيحيين في الدولة العربية كما كان عليه في العهد العثماني (أهل ذمة).

إن رفض الروم الأرثوذكس "لبنان الكبير" له اعتباراته التاريخية، ويكمن في علاقة التنافس والغيرة بينهم وبين الموارنة منذ الحروب الصليبية، ثم بعد ذلك خوفهم في العام 1842 من "الذوبان" في قائمقامية ذات أكثرية مارونية، وفي متصرفية "مارونية" في العام 1861، وبالتأكيد بدعم من روسيا القيصرية. ويعرض صليبا في هذا الصدد موقفين مسيحيين كنسيين إستراتيجيين متعارضين: اعتبار بطريرك الموارنة الياس الحويك أن لبنان هو "الوطن" المستقلّ الذي يجب توسيع حدوده

الجغرافية إلى حد "الاكتفاء الاقتصادي الذاتي"، ووجهة نظر غريمه بطريرك الروم الأرثوذكس غريغوريوس حداد بأن "الوطن" هو سورية الخاضعة للحكم العربي في دمشق، وليس "لبنان الكبير". وموقف الأرثوذكس هذا، برأينا، ليس توجّهاً سياسياً ابن ساعته، بل يعود إلى إجهارهم بعروبتهم وبأن لبنان لا ينفصل عن محيطه العربي. وبرأي صليبا، فإن علاقات الأرثوذكس التجارية الواسعة مع الداخل السوري منذ العهد العثماني، حتّمت عليهم تغليب مصالحهم الاقتصادية مع سورية على حساب "هويتهم المسيحية" اللبنانية. في المقابل، روّج الفكر الماروني مقولة خصوصية لبنان لتبرير فصله عن محيطه العربي. فالدولة الشريفية، بنظر الموارنة، هي دولة إسلامية مهما جرى تغليفها بقناع العروبة، على حد تعبير الدكتور صليبا (ص 165-7). وبإنشاء "لبنان الكبير"، وصل النزاع بين الطائفتين المسيحيتين المارونية والأرثوذكسية حول الكيان الجديد إلى حد "الاستشراس"، على حد وصف الزميل صليبا.

يسلّط الدكتور صليبا الضوء بقوة على التمايز في المواقف من "لبنان الكبير" داخل الطائفة المارونية. وكما هو معروف، كان البطريرك الحويك رأس الكنيسة المارونية و"السياسي" الأول صاحب القرار في شأن الطائفة، يرى وجوب توسيع المتصرفية إلى حدود طبيعية لتوفير "الأمن الغذائي" للسكّان، بعدما عانى سكّانها من ويلات المجاعة خلال الحرب العالمية الأولى، وأن يكون ذلك متلازماً مع قيام لبنان مستقلّ تحت الحماية أو

الانتداب الفرنسي. إلا أن هذا وضع البطريرك أمام معادلة صعبة سوف تنسحب على تاريخ لبنان المعاصر حتى اليوم، جرى التعبير عنها في حينه بقول يوسف السودا:«لبنان الصغير موت اقتصادي، الاتحاد مع سورية موت سياسي، نريد لبنان الكبير ليحيا، ونريده بلا وحدة ليكون مستقلاً» (ص 54).

أمام تلك المعادلة، يطرح صليبا سؤالاً مركزياً: عما إذا كان الموارنة وبطريركهم قد فطنوا إلى التداعيات والنتائج الخطيرة الناجمة عن خيار "لبنان الكبير"، الذي كان سيحوّل المسيحيين من أكثرية إلى أغلبية "على الحفة"، وقد تنقلب هذه إلى أقلية بعد زمن يسير؟ فيرى أن البطريرك ومؤيّدي "لبنان الكبير" لم يستمعوا إلى التحذيرات من مخاطر الديموغرافيا الإسلامية على "لبنان الكبير"، التي "ستأكل" الديموغرافيا المسيحية خلال نصف قرن، ما يحوّل لبنان إلى دولة إسلامية، وربما إلى خلافة إسلامية، وفق ما ينقل صليبا عن مراقبين معاصرين. صحيح أن تحذيرات سليمان البستاني والمطران عبدالله خوري وإميل إده ثبتت صحتها بعد نصف قرن، عندما أخذ المسلمون بُعيد الاستقلال يدّعون أنهم أصبحوا الأكثرية، ويطالبون بناء على ذلك بـ "حقوق" ضنّ الموارنة عليهم بها. من هنا، تصاعدت مخاوف الموارنة ونبراتهم من الذوبان في الأكثرية الإسلامية. فما أنجزوه من لبنان الكبير بمسلميه، أضحى فضفاضاً عليهم من الناحية الديموغرافية، ومن الناحية السياسية بعد ذلك، على حدّ قول المؤرخ الراحل كمال صليبي. إنها من دون شك "الديموغرافيا

المشاغبة" التي تخيف الطوائف بعضها من بعض، من دون استثناء، وتتردّد في كل صفحات كتاب لويس صليبا.

ولإثبات وجهة نظره حول "خطأ" البطريرك في تجاهله للديموغرافيا الإسلامية، أو في عدم فهمه مخاطرها المستقبلية، يقتبس الباحث صليبا قولاً يسخر فيه المفكر جورج سمنة من "لبنان الكبير" حين قال:«أي وطن قومي مسيحي هو هذا الذي نصف سكانه من غير المسيحيين» (ص 119). إن اتكاء الحويك على دعم فرنسا لطائفته وحمايتها لهم، وبأن لبنان "صنع" من أجلهم، جعل رأس الكنيسة المارونية لا يرى أو لا يفسّر المستقبل الذي يتربّص بأبناء ملته، من دون أن يكون ذلك ذنب المسلمين. ففرنسا تلاعبت بالطوائف اللبنانية وفق ما أملته عليها مصالحها.

وبناء على ذلك، يضيء الباحث صليبا على خلافات داخل الإدارة الفرنسية أسهمت في حدوث بلبلة داخل الصف الماروني. ففيما عمل الجنرال غورو على توسيع "المتصرفية" لتوفير الأمن الاقتصادي للكيان الجديد الذي لن يكون مسيحياً أبداً مع نمو الديموغرافيا الإسلامية، وقف معاونه روبرت دو كيه مع كيان لبناني ذي أغلبية مارونية ساحقة كضمان لبقاء لبنان مسيحي الهوية والطابع. وحاول الدبلوماسي الفرنسي فاشلاً عرقلة سياسة غورو، لأنه اعتقد أن تجزئة البلاد السورية إلى دويلات عديدة تصبّ في مصلحة بلاده وتُضعف الحركة القومية "الإسلامية" الناشئة. حتى بعد إنشاء "لبنان الكبير"، سعى دو كيه، من دون

نجاح، إلى تخريب الكلّ (فصل طرابلس عن لبنان) لصالح صفاء الجزء "الماروني".

ويذهب بنا لويس صليبا إلى دهاليز السياسة في باريس، فيكشف لنا عن تخبّط رئاسة الحكومة الفرنسية بين مشروع دو كيه للبنان صغير بأغلبية مسيحية ساحقة، ومشروع غورو للبنان كبير بحدوده الواردة في الدستور اللبناني. لكن الغلبة كانت لغورو، حتى أن الفرنسيين ضمّوا جنوب البلاد إلى "لبنان الكبير" خشية أطماع الصهيونية العالمية بأرضه ومياهه، وقاموا مع البريطانيين بترسيم الحدود بين لبنان وفلسطين (Paulet-Newcombe Agreement) في العام 1922. ولم يعبأ الفرنسيون بالاعتراضات الأرثوذكسية على "لبنان الكبير" ولا بمقاطعته من قبل المسلمين.

ولا يتفق الباحث صليبا كلياً (ص 129) مع قول مؤرخنا الراحل كمال صليبي حول مقاطعة إسلامية وأرثوذكسية للبنان الكبير طوال عهد الانتداب الفرنسي. فيرى أن المقاطعة الإسلامية والأرثوذكسية لم تستمرّ طويلاً، وإلا كيف نفسّر حماسة الشيخ محمد الجسر للبنان الكبير تحت الانتداب، وشغله مناصب رسمية رفيعة، ومنها رئاسة مجلس الشيوخ والمجلس النيابي وترشحه للانتخابات الرئاسية في العام 1932؟ وفي خلال العامين 1937 و1938، ترأس خير الدين الأحدب الحكومة اللبنانية مرتين. واسترضاءً للأرثوذكس (ضربة معلم)، كما يسمّيها صليبا، عيّن الفرنسيون شارل دباس رئيساً للجمهورية اللبنانية بين

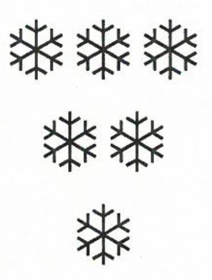
العامين 1926 و1934. كان تنصيب سلطات الانتداب أرثوذكسي على رأس الدولة اللبنانية يتنافى مع ما أفهمه الفرنسيون للموارنة بأن لبنان "صنع من أجلهم". فاحتجّ بطريرك الموارنة الياس الحويك على ذلك، وتم في العام 1934 تعيين الماروني حبيب باشا السعد رئيساً للبلاد مجاراة لرغبة سيد بكركي البطريرك أنطون عريضة.

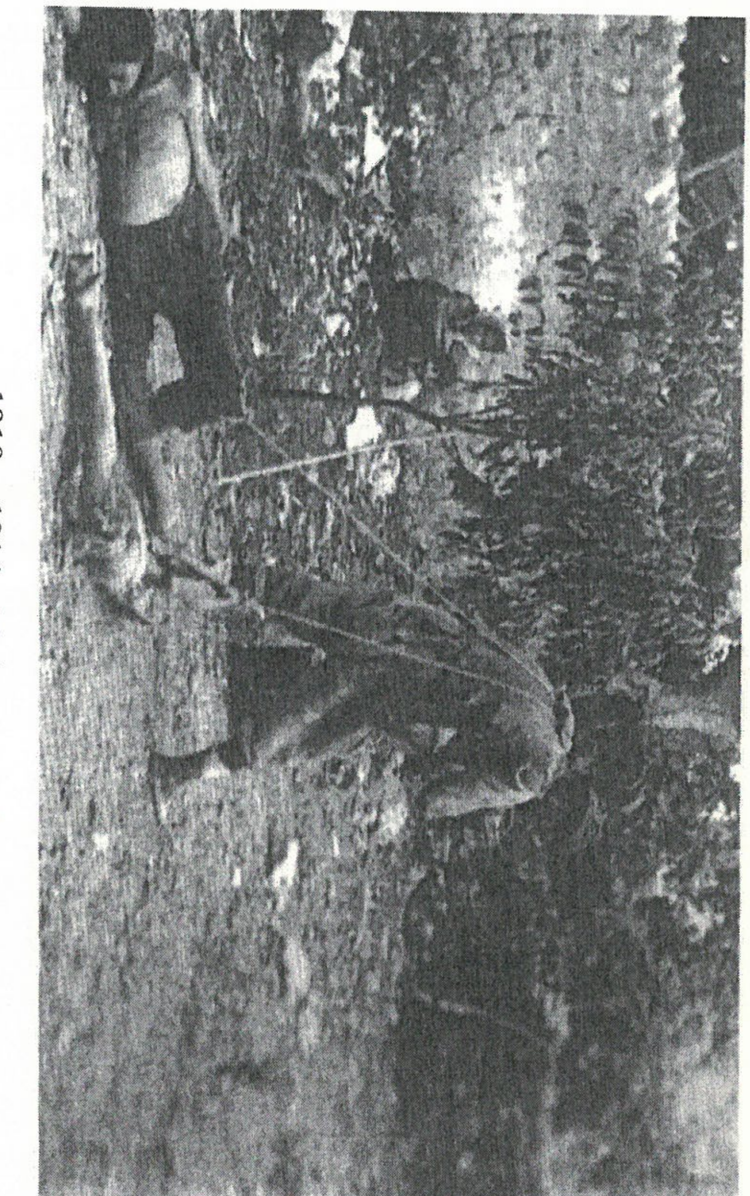
ويخلص الزميل صليبا إلى أن الموارنة أدركوا متأخرين بأن "تكبير لبنان" أدى إلى "تصغير مارون"، وأن كسب "المساحة" كان على حساب خسارتهم للديموغرافيا وللتوازن الداخلي الذي كانوا ينعمون به في عهد المتصرفية. من هنا، بدأت محاولات خلال الانتداب (إميل إده) وبعده (مطران بيروت مبارك) لتصحيح "الخطأ"، عبر فصل مناطق إسلامية عن لبنان لحساب سورية وفلسطين، أو في تبادل السكان بين لبنان وسورية. حتى أن المطران أغناطيوس مبارك طالب في العام 1947 اللجنة الدولية المختصّة بفلسطين بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ليكون جاراً مسالماً لكيان مسيحي في لبنان. لكن الفاتيكان تمسّك بالتعايش المسيحي الإسلامي، وأعلن بطلان مقولة مبارك.

كلمة أخيرة، كتاب "لبنان الكبير أم خطأ تاريخي" جريء في معالجاته وتحليلاته وفي استنتاجاته، وهو يُضاف إلى سلسلة أعمال جليلة للباحث لويس صليبا. ومن يطلع على الكتاب الجديد يدرك بوضوح أن هذا "الخطأ" الذي حدث قبل 100

عام تقريباً، لا يزال يتفاعل حتى اليوم، لأن اللبنانيين، الطائفيين والمذهبيين بكل امتياز والخاضعين للقرار الخارجي، لم يعملوا على تطوير ميثاق تعايشهم ونظامهم السياسي، فبقوا طوائف وقبائل وعائلات متناحرة من دون وطن أو هوية وطنية. من هنا، فبدلاً من الدعوات للعودة إلى لبنان صغير أو تصحيح خطأ تاريخي، سواء عبر التقسيم أو الفدرلة، على اللبنانيين أن يتحاوروا معاً من أجل إيجاد صيغة تعايش جديدة، لا تسوية، تكون مقبولة من الجميع وتتسع للجميع. فالتجارب التي مرت بها شعوب أخرى، يمكن أن تشكل إلهاماً ومنارة لهم للانتقال بلبنان إلى مرحلة عيش مشترك جديدة، تقوم على الثقة بالآخر والرغبة في العيش معه.

د. عبدالرؤوف سنّو





مشهد من المجاعة في جبل لبنان 1914 - 1918

باب الكتاب

مدخل إلى بحوثه وطروحاته



مشهد من المجاعة في جبل لبنان 1914 – 1918

من رحم معاناة وتأمّل طويلين كانت ولادة هذا الكتاب.

معاناة حرب أهلية طاحنة... وتأمل مستمرّ تفكّر في أسبابها ودواعيها. فكاتب هذه السطور ما كاد يفتح عينيه وتتفتح بصيرته على بعض من أمور هذه الحياة حتى صعقته الحرب اللبنانية الطويلة (1975 – 1991) بانفجارها وعنفها وويلاتها. فهو وأترابه من جيل الحرب المقيتة هذه، وكلٌّ دفع على قدّه وقَدَره ضريبتها الفاحشة الغلاء.

ويلات الحرب... ضريبتها وغير ذلك، كلّها دفعته دفعاً إلى التأمل في شؤون البلد الذي ولد فيه وشجونه.

هذا الكيان المسمّى لبنان هل تتوفّر فيه المقوّمات الأساسية والضرورية لقيام وطن واستمراره؟!

هل ثمة غلطة ما ارتكبت في البدء حين ركّب الكيان وأسّس أو افتعل... ولا تزال ذيولها تجرجر حروباً وأزمات؟!.

ففي فترة لا تتجاوز عقوداً ثلاثة من السنين، ومنذ ما سمّي بالاستقلال (1943 – 1975) عرف لبنان سيلاً من الأزمات والحروب، وبدا الاستقرار والسلم الأهلي وكأنهما شواذ عن القاعدة.

وكان لا بدّ من العودة إلى ما قبل ظاهرة الاستقلال 1943، وهو بالحري استقلال واجب أخذه أكثر مما هو استقلال ناجز

قد أخذ. والعودة تحديداً إلى الحدث الأبرز في تاريخ لبنان المعاصر، أي إعلان لبنان الكبير 1920/09/01. يقول المؤرخ كمال الصليبي (1929 - 2011):«إن الشعب الذي جمعته الظروف عام 1920 في الوطن اللبناني بحدوده الحاضرة، لم يلتقِ بعد على أسطورة تاريخية واحدة مقبولة من جميع فئاته»[1].

هل كنا يومها نركّب وطناً... ونفبركه، ثم نبحث له عن تاريخ وفلسفة... وقومية؟!

ولبنان الكبير (1920) نفسه فكل اخترع أسطورة عنه. فللروم أسطورة اسمها "وادي النصارى" وللموارنة أخرى عنوانها "السعي إلى كيان متعدّد الطوائف". وللآخرين أساطيرهم كذلك. فإذا كان عن الماضي القريب لكل أسطورته، فما القول عن التاريخ القديم والوسيط؟!

ولا يرى كاتب هذا البحث مندوحة من تكرار ما يلي: هل تراني ملزماً بأن أعلن "الشهادتين" بلبنان وأتلو قانون إيمان به؟! أسارع إلى التأكيد أنني أردّد مع العالم والمؤرّخ الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان قوله:«عندما يزول أرز لبنان، يزول لبنان»[2].

ولكن أي لبنان؟! وبأي حدود وموزاييك طوائف وسكّان؟! ذاك شأن آخر.

---

1 - الصليبي، كمال، منطلق تاريخ لبنان، بيروت، مؤسسة نوفل، ط3، 2012، ص 11.

2 - رياشي، إسكندر، قبل وبعد دمشق، دار أطلس، ط2، 2006، ص 13.

بحث هو وليد معاناة وتأمل.. أو نوع من المراجعة الذاتية. والباحث يوافق مفكّراً قوله:«لأننا فشلنا في القيام بمراجعة ذاتية وتطهير الضمير في 1841 و 1860 و 1958، اشتعلت الحرب عام 1975، ويجب أن نمنع ذلك من الحدوث مرّة جديدة»[1].

ولكن لا مَن يراجع... ولا مَن يسأل أو يحاسب.

ولا يزال هذا الوطن الصغير مسرحاً للأزمات... والحروب والويلات.

والعودة إلى الحدث المحوري والأبرز (لبنان الكبير 1920) قادت إلى وقفة عند عنصر أساسي من عناصره: الانشقاق المسيحي بشأنه والنزاع بين الموارنة والروم على الخيارات السياسية ونشأة الكيانات.

لم يكن بمقدور الباحث، في حدود دراسة موجزة كهذه، أن يحيط بمجمل أسباب أبرز حدث في تاريخ لبنان المعاصر ونتائجه وتداعياته، فاختار أن يحصر اهتمامه بجانب واحد وبدا نزاع Litige الموارنة والروم يومها فارضاً نفسه. ونستعير هنا من مفكّر ودبلوماسي لبناني هو نصري سلهب (1921 - 2007) توصيفه لهذا الحدث/النزاع:«في تلك المناسبة المصيرية بدا واضحاً أن الكثرة الساحقة من الموارنة تؤيّد إنشاء لبنان الكبير المكوّن من لبنان المتصرّفية تضاف، أو تعاد إليه، الأقضية الأربعة والسناجق الثلاثة التي يعتبر أولئك الموارنة أنها سلخت عنه لدى إنشاء المتصرفية.

1- Frangié, Samir, Article in L'Orient Le Jour, 07/06/1997.

»ومن جهة مقابلة بدا واضحاً أن الكثرة الساحقة من المسلمين والروم الأرثوذكس المقيمين في المناطق السبع المتنازع عليها يؤيّدون الانضمام إلى سوريا تحت راية فيصل بن الحسين»[1].

ويعقّب سلهب مركّزاً على المواجهة الحامية بين بكركي وأتباعها من ناحية ومحميي روسيا القيصرية التي لفظت أنفاسها من ناحية أخرى فيقول:«إن ما يهمّنا هنا هو الإشارة إلى الطلاق الذي تجلّى بين الموارنة من جهة، وبين إخواننا الروم الأرثوذكس من جهة ثانية: لكأن هؤلاء الآخرين لا يريدون عيشاً مشتركاً مع بني مارون، بل يؤثرون على ذلك العيش مع "الشقيق السوري المسلم" بكثرته الكثيرة، والمعادي لفرنسا آنذاك»[2].

ولسنا نعصم الموارنة يومها من جشع بعد جوعهم القديم، وقد جاعوا حتى الموت في الحرب الكونية، جشع جعلهم يلتهمون كل مما رأوه أمامهم من مناطق، لا سيما وأنهم اعتبروا أنفسهم منتصرين بنصر الفرنسيين في الحرب. فصحّ فيهم المثل اللبناني:«اللي بيكبّر لقمتو، بيغصّ فيا»[3].

ولا نزعم أن النية كانت صافية من جانبهم تجاه إخوتهم في

1 - سلهب، نصري، المسألة المارونية، الأسباب التاريخية للإحباط الماروني، بيروت، بيسان للنشر، ط1، 2000، ص 46.

2 - سلهب، م. س، ص 49.

3 - يعقوب، إميل بديع، الأمثال الشعبية اللبنانية، طرابلس، جروس برس، ط1، 1984، ص 159.

الإيمان المسيحي/الخلقدوني: الروم الأثوذكس في حين أن هؤلاء لم يتجاوبوا معهم. فتاريخ العلاقات بينهما، لا بل تاريخ الجماعات المسيحية المشرقية تاريخ حزازات وفُرقة وانشقاقات، والمثل اللبناني يقول:«إن كان الكنافة بيدخلاّ توم، الموارني بيحبّ الروم»[1].

ولكننا بالمقابل لا نستطيع أن ننكر أنه وبين الفئات والمذاهب والملل التي تؤلّف بمجموعها الشعب اللبناني، فالموارنة هم الوحيدون الذين سعوا إلى نشأة الكيان المسمّى لبنان الكبير وتثبيته، وذلك بغضّ النظر عمّا إذا كانوا في سعيهم الحثيث هذا مصيبين أم مخطئين.

يقول المؤرّخ كمال الصليبي في ذلك:«وكان في ظلّ المتصرّفية أن أخذ الموارنة ينضجون سياسياً كفئة حاكمة، ويتدرّبون في المسؤولية، فتحوّلت عصبيتهم الدينية تدريجياً إلى ولاء للبنان كوطن يجمع بينهم وبين الطوائف الأخرى في البلاد (...) وهكذا نشأت الفكرة اللبنانية وترعرعت في كنف عصبية الموارنة، فغدت الكنيسة المارونية القوام الأساسي لهذه الفكرة، والمؤسسة المجسّدة لها في غياب دولة لبنانية تقوم بهذه المهمّة»[2].

ويؤكّد الصليبي أن الموارنة، كنيسة وجماعة، هم الذين أمّنوا استمرارية الهوية اللبنانية ورسالتها وتمايزها في الأزمنة والعصور

1 - يعقوب، م. س، ص 157.

2 - الصليبي، كمال، الموارنة صورة تاريخية، بيروت، دار نلسن، ط1، 2011، ص 92.

الصعبة وأوصلوها إلى شاطئ الأمان:«وقد شاءت الأقدار أن تكون من ضمن مسؤوليات الطائفة المارونية، مهمّة حمل الرسالة اللبنانية عبر قرون طويلة مظلمة من تاريخ الشرق، ونقلها إلى سائر أبناء البلاد عندما سمحت الظروف بذلك»[1].

ويخلص الصليبي إلى أن لبنان بكيانه الحالي ونظامه يستمرّ في حمل الرسالة التي حملها الموارنة: التعدّدية والانفتاح، وقد يأتي يوم تصل الرسالة هذه إلى الشعوب المجاورة فتعيها:«والجمهورية اللبنانية التي تجمع اليوم بين اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم، تستمرّ، عن وعي، في حمل الرسالة التي حملها الموارنة في الماضي تلقائياً، وقد تأتي ظروف بعد تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم»[2].

وكمال الصليبي الذي كتب هذا الكلام عام 1969 ونشره في ملف النهار 1970[3]، كان في تشديده على لبنان/الرسالة المستوحى من دور الموارنة سابقاً للبابا القديس يوحنا بولس الثاني وممهّداً له في قولته الشهيرة:«لبنان أكثر من وطن، إنه رسالة».

وكاتب هذا البحث، وإن كان لا يخالف الصليبي في أكثر ما ذهب إليه في هذا الصدد، فهو لا يرى مناصاً من التأكيد أنه لم يصنّف دراسته تمجيداً لدور الموارنة أو افتئاتاً لدور غيرهم، ولا

---

1 - الصليبي، الموارنة، م. س، ص 96.

2 - م. ن، ص 97.

3 - م. ن، ص 9.

سيما منافسيهم الروم، وهو لم يسعَ ليبيّن مَن كان مصيباً ومَن كان مخطئاً في موقفه ومشروعه يومها. وما يهمّه ويعنيه أن جوّ التنافس والتخاصم والتحاسد الذي ساد بين الجماعتين قروناً قد تراجع تراجعاً ملحوظاً منذ المجمع الفاتيكاني الثاني (1960 - 1965) ولا سيما منذ لقاء البابا بولس السادس بالبطريرك المسكوني أتينا غوراس 1964. وقد توّج هذا التقارب الكاثوليكي-الأرثوذكسي بزيارة البطريرك إغناطيوس هزيم إلى الفاتيكان (أيار 1983) على رأس وفد من الأساقفة ولقائهم البابا يوحنا بولس الثاني.

هذه اللقاءات وغيرها من المؤتمرات المشتركة الكاثوليكية-الأرثوذكسية وآخرها لقاء البابا فرنسيس بالبطريرك المسكوني في القدس، أدخلت العلاقات بين الموارنة والروم في لبنان في طور جديد عنوانه التقارب. ومسيحيو الشرق جميعهم محكومون بالتعاون وطيّ صفحة الماضي وما سادها من نزاعات وتنافس، فهوية المسيحي المشرقي ووجوده واستمراره ليست كلّها في خطر داهم وحسب، بل هي فعلاً لا مجازاً في طور الانقراض. ويبقى أخذ العِبَر من الأمس القريب والبعيد ضرورياً إذا شاء هذا المسيحي أن يعيش على هذه الأرض الطيبة ويستمرّ.

وهذا البحث في تركيزه على نزاع الماضي وخلافاته، لم يشأ أن ينكأ الجراح، بل أن يستخلص منها الدروس.

لبنان 1920 كان تركيباً اصطناعياً: صحيح، ولكنه كان مصطنعاً بنفس القدر الذي كانت عليه الدول الأخرى مثل

سوريا والأردن والعراق، وها هي تركيباتها تهتزّ كما كان شأنه هو مراراً، فإذا كان ثمّة خطأ ما فليس لبنان موضعه الوحيد.

ولا يتيح هذا المدخل المزيد من التأمل في حال هذا الوطن العليل ومعضلته.

ولا بدّ من كلمة هنا في **بنية البحث ومنهجيته وأسلوبه**.

شاء الكاتب أن تكون دراسته موثقة وانسيابية/سلسة في آن. وليس هذا بالرهان السهل. فكتابة التاريخ ليست عملاً روائياً، ولكن ثمة تسلسل ما، أو خيط رفيع غير منظور غالباً **ما يربط الأحداث**، وإذا عرف الدارس المتأمّل أن يميّزه ويتتبعه فرهانه قد رُبح.

والباب الأول يتناول المرحلة الانتقالية الأليمة **من المتصرّفية إلى لبنان الكبير**، وفي هذه المرحلة برز بطريركان ومشروعان. **والفصل1/باب1** يعرض للخلاف الحادّ بين المشروعين ويأتي الفصل المذكور بمثابة توطئة لما سيعرض من أحداث ومواقف في الفصول التالية.

فالفصل2 من باب1 يعود إلى جذور الخلاف في نظرة كل بطريرك وفريقه وموقفه من التركي/العثماني. ومسألة الفرمان ورفض البطاركة الموارنة المتعاقبين طلبه من السلطان العثماني زَرعت بذور استقلالية واضحة عندهم، وساهمت مساهمة فعلية وفعّالة في نشأة الفكرة اللبنانية وتطوّرها. أما البطريرك الملزَم والمجبر بطلب فرمان تثبيت من السلطان/خليفة المسلمين فلا مندوحة من أن يشعر بشيء من التبعية.

ونهاية الحرب الكونية (العالمية الأولى) كشفت عن عودة للتنافس الحادّ بل والنزاع بين الموارنة والروم. خرج الروم منها وقد فقدوا حاميهم الأساسي: روسيا القيصرية، فاختلّ التوازن، وضاعت البوصلة. أما الموارنة فشعروا بالفرج وشيء من النشوة مع انتصار حاميتهم التقليدية فرنسا.

وتناقض خيارات الجماعتين لا يمكن عزله عن تاريخ طويل من الكيد والحزازات بينهما، وسوابق خطيرة وعميقة الدلالة في رفض التعاون والتآخي. فبدا الموقف من لبنان الكبير، بين متحمّس بل ومستشرس ورافض، وكأنه استئناف لنزاع قديم، هذا ما يعرضه **الفصل 3/باب1**.

أما الفصل الرابع والأخير من الباب الأول، فيتوقّف، شارحاً وعارضاً، عند دوافع الموارنة في خيارهم للبنان الكبير، وأبرزها معاناتهم في الحرب الكونية: المجاعة التي فتكت بأكثر من ثلث سكان المتصرّفية وعدم توفر الموانئ البحرية فيها ما ساهم في إحكام الحصار الغذائي والاقتصادي عليها.

فكان لا بدّ من التشبّث بإعادة ضمّ السهول والموانئ التي حرمت منها المتصرفية، وإلا فالوطن محكوم مجدّداً بالاختناق.

لهذه الأسباب، ولغيرها، كان خيار الموارنة واضحاً ومحسوماً: لبنان الكبير. ولعلّها المرّة الوحيدة في تاريخهم المعاصر التي كانوا فيها موحّدين حول خيار سياسي مصيري. وقد أثبتوا أنهم متى كانوا موحّدين نالوا ما يبتغون ويطلبون.

والباب الثاني يعرض لشخصيات عارضوا لبنان الكبير

ومواقفهم، ولكنه يقتصر على معارضي هذا الخيار التاريخي من داخل الطرفين المؤسّسين له: أي الموارنة والفرنسيين.

واللافت هنا أن كِلا الفريقين المعارضين ومن الجانبين انقسما إلى تيارين: واحد يدعو إلى لبنان الصغير أو أصغر من الكبير يمثله سليمان البستاني عند الموارنة وروبير دوكيه عند الفرنسيين. أما التيار الثاني فيدعو إلى أن يكون لبنان جزءاً من فيدرالية سوريّة (فيدراسيون) يمثله جبران خليل جبران واللجنة المركزية السورية... في الجانب الماروني والمسيحي. وكاترو (وميلّران وغيره) في الجانب الفرنسي.

لبنان الكبير أو سوريا الفيدرالية

واللافت هنا أن الجنرال غورو معلن لبنان الكبير عاد وبعد سنة ليعمل للفيدراسيون، ما يبيّن أن التيار الفدرالي في الجانب الفرنسي لم يكن بالهامشي، ولا حتى بأقل ثقلاً وتأثيراً من التيار الداعي إلى تكبير لبنان.

سليمان البستاني حذّر البطريرك من خطأ تاريخي في تكبير لبنان ما يجعل الكيان يضمّ فئات غير متجانسة بل ومتصارعة، ولا نعلم الكثير من التفاصيل عن موقفه، ولكننا نرجّح، ومن خلال رسالة بعث بها إلى البطريرك الحويك غداة نشوب الحرب الكونية، أنه كان مؤمناً بلبنان الصغير/لبنان المتصرفية، وفي **الفصل 1/باب2** نعرّف بسليمان البستاني، ونتناول موقفه وخلفيته ودوافعه.

وبالمقابل ومن الجانب الفرنسي، فقد عارض **روبير دوكي** عندما كان مسؤولاً في وزارة الخارجية الفرنسية ومن ثم بعد أن جاء إلى لبنان معاوناً للجنرال غورو، أن يضمّ لبنان مدينتي بيروت وخصوصاً طرابلس، وبقي يحاول فصل عاصمة الشمال عن لبنان بعد رحيل الجنرال غورو 1923. ويحذّر من مخاطر ضمّها إليه.

كان دوكيه دبلوماسياً محنّكاً، وقد أظهر في موقفه هذا حسّاً بل حدساً سياسياً واستراتيجياً صائباً. وفي **فصل 2/باب2** نعرض لرأيه ونشاطه في سبيل وضعه موضع التنفيذ، والتصدّي للموارنة وعلى رأسهم بطريركهم له وتفشيل مساعيه.

هذا بشأن التيار الاستقلالي والمعارض للبنان الكبير. ماذا عن **التيار الفيدرالي** المعارض؟!

اخترنا منه شخصيتين: لبنانية وفرنسية تمثلانه خير تمثيل.

فجبران خليل جبران النابغة المهجري الذائع الصيت دعا كما شكري غانم والدكتور سمنه إلى أن يكون لبنان جزءاً من سوريا فيدرالية في ظل انتداب فرنسي.

لم يكن صاحب "النبي" سياسياً. لكنه كان رؤيوياً فذّاً شعر بالمخاطر المحدقة بهذا اللبنان الكبير، وعلى رأسها عدم تجانس سكانه، فحذّر من حرب طائفية ستهدّ لبنان وتحرقه:«لبنان البلد الصغير، الهادئ الآن، سيكون مسرحاً لمجزرة هائلة يذبح فيها المسلم المسيحي، والمسيحي الدرزي.

وسوف يذبح المسيحي أخاه المسيحي، ومَن يعش يرَ»[1].

لكأن جبران كان يستبصر بعينه الثالثة شريط الأحداث والمآسي والنكبات التي ستحلّ بلبنان.

وبعد إعلان لبنان الكبير أطلق جبران صرخته المدوية:«لكم لبنانكم ولي لبناني».

وخلفية موقف عبقري لبنان وأسبابه وحيثياته هي موضوع **فصل3/باب2**.

ومن الجانب الفرنسي، كان الكولونيل **جورج كاترو** (الجنرال لاحقاً) حاكم دمشق واليد اليمنى للجنرال غورو يرى، وخلافاً لـ دو كيه، توحيد سوريا في فيدرالية على أن يكوّن لبنان جزءاً منها، ومن هنا معارضته للبنان الكبير. وقد اعتبره خطأ سيكولوجياً جسيماً جعل من فرنسا فريقاً من فرقاء النزاع عوض أن تكون حكماً بينهم. كل ذلك نتناوله في **فصل 4/باب2**.

واللافت أن كاترو المعارض للبنان الكبير 1920، عاد سنة 1943 وعندما كان مفوّضاً سامياً في بيروت ليرفض وبشدّة أي مسّ بوحدة الأراضي اللبنانية وأية محاولة لتجزئتها.

أما جبران فكتب بخطّ يده شعاره الخالد:«لو لم يكن لبنان وطني، لاتخذت لبنان وطني».

أَفِعلُ ندامة كان ذلك تلاه مَن سبق له أن دعا إلى سوريا الفدرالية؟! أم اعتراف بلا واقعية هذا الطرح؟!

---

1 - جبران، جبران خليل، إقلب الصفحة يا فتى مخطوطات لم تنشر، تحقيق كيروز، بيروت، لجنة جبران الوطنية، ط1، 2010، ص 133.

والباب الثالث من الكتاب يبحث في **إعلان لبنان الكبير** وردود الفعل عليه.

مؤسّسو هذا اللبنان جهتان: فرنسا والموارنة وشخصيتان: الجنرال غورو والبطريرك الحويك. كيف عمل الجنرال/المندوب السامي للوصول إلى هذا الإعلان؟ وكيف أقنع رؤساءه المعارضين، ولا سيما رئيس الحكومة ميلّران، بصواب فكرته ومشروعه.

هذا ما نرويه في **فصل 1/باب 3** في قراءة للوثائق والمراسلات والخطب والصور العائدة إلى تلك الفترة.

والباب الثالث يعرض في آن لمواقف مؤسسي لبنان الكبير ونشاطهم ولمواقف معارضيه ورافضيه وردود فعلهم. **فالفصل 2/باب3** يروي كيف اعتُبر إعلان 1920/09/1 نصراً للمسيحيين ولا سيما الموارنة، وكيف ردّ السنّة عليه، مدعومين من الروم.

أما **الفصل 3/باب3** فخصّص لتفحّص ظهور مقولة **لبنان خطأ تاريخي** في الأوساط الأرثوذكسية والخلفية الاقتصادية والديموغرافية لموقفهم الرافض هذا.

في حين يتوقف **الفصل 4/باب3** عند شخصية أرثوذكسية كانت، على الأرجح، أوّل مَن أطلق شعار: لبنان خطأ تاريخي. إنه نجيب سرسق أغنى أغنياء عصره الذي عاد لينتظم في سلك السياسة اللبنانية، ويكيّف طموحاته ويفصّلها على قياس الكيان الناشئ، فكان شعاره السلبي هذا العائق الذي حال بينه وبين رئاسة الجمهورية، فطوى النسيان الرجل، وبقي الشعار.

وأبرز مَن ورثه عنه الإسرائيليون الذين اشتروا منه ضياعه في فلسطين. فالشعار يدغدغ أحلامهم ويروي عطشهم إلى مياه لبنان. ومنذ بن غوربون وإلى موشي أرينز وغيره، وهم لا يتعبون من تكرار مقولة:«لبنان خطأ تاريخي وجغرافي كذلك». وهو ما نتناوله في **فصل 4/باب3**.

والباب الرابع يرسم صورة للبنان الكبير بين المدّ والجزر: كيان يصارع من أجل البقاء، ويبحث عن هوية في آن.

ويقارن **الفصل1/باب4** بين الروم والموارنة في موقفهما من الدولة الشريفية ويبيّن أنها كانت، وفي الأساس، دولة إسلامية تسعى إلى إعادة الخلافة إلى العرب.

هل أمّن بطريرك الروم غطاءً مسيحياً لمشروع الدولة هذه؟

ولِمَ هذا العداء الماروني السافر لها والحب الأرثوذكسي الذي لامس التبعية؟!

عودة إلى بطريركين يتواجهان، علناً حيناً وضمناً غالباً، في موقفين مصيريين.

أتجوز المقايسة؟! وإلى ماذا تفضي؟!

والفصل 2/باب4 يستأنف المقارنة بين البطريركين في خياراتهما السياسية وفي علاقتهما بالفرنسيين وحلفائهما عموماً.

إذا قابلنا بين علاقة البطريرك حدّاد بالأمير فيصل وعلاقة البطريرك الحويك بالجنرال غورو، فماذا نستنتج؟

هل كان الحويك تابعاً لغورو أم حليفاً له؟! وكيف انعكست صداقة غريغوريوس حدّاد لفيصل سوءاً على علاقته بالفرنسيين

التي استمرّت سيئة حتى وفاته؟! وهل كان مصيباً في تطرّفه الحادّ في نصرة فيصل؟

وكيف تؤثر علاقات الرؤساء والزعماء على مصير شعوبهم؟

في **الفصل الثاني/باب4** مسودّات أجوبة عن أسئلة محورية كهذه.

أما **الفصل 3/باب4** فيتوسّع في إيراد مختلف الروايات التي حكت عن مشاريع ضمّ لوادي النصارى إلى لبنان. ويفنّد هذه الروايات، ويبيّن أنها مجرّد إشاعات أطلقت ولا تزال تطلق بين فينة وأخرى لذرّ الرماد في العيون والإيهام أن الموارنة ولا سيما الحويك، فضلّوا السنّة تارة والشيعة طوراً على روم وادي النصارى.

وواقع الحال أن ما من وثيقة واحدة تشير، وإن تلميحاً، إلى مشروع من هذا النوع. فلا الوادي عرضت أصلاً على بطرك الموارنة، ولا هو فكّر بهذا الموضوع سلباً أم إيجاباً. ولا أهل الوادي ولا الفرنسيون كانوا في هذا الوارد.

إشاعة أطلقت لاحقاً وانتشرت لغاية في نفس يعقوب غدت اليوم معروفة.

وبالمقابل **فالفصل4/باب4** يميط اللثام عن أسطورة أخرى مقابلة تردّ على أسطورة وادي النصارى، ولا يزال العديد من زعماء الموارنة الروحيين والدنيويين يروّجونها إلى اليوم. ومفادها أن البطريرك الحويّك اختار، عن سابق تصوّر وتصميم، أن يضمّ اللبنان الذي يسعى إليه خليطاً من الطوائف والمجموعات

الدينية، ولا يكون وطناً مسيحي الطابع كي لا يُنبذ في محيطه. أو بتعبير آخر لم يشأ كياناً مسيحياً على شاكلة إسرائيل اليهودية، رغم أن دولة إسرائيل لم تكن قد قامت بعد، وواقع الحال ووثائق ذاك الزمن كلاهما يظهران أنه وببساطة سعى إلى كسب في الجغرافيا على حساب الديموغرافيا. فالوطن في وجدانه ومفهومه كان جبلاً وسهلاً ومرافئ: إنها بمجموعها الحدّ الأدنى لقيام كيان قابل للعيش والاستمرار، ولكنه لم يُعِر في البداية عدم التجانس الديني لسكان الكيان المزمع إقامته كبير اهتمام. وتكشف وثائق الحويك ورسائله إلى المسؤولين الفرنسيين وغيرهم يومها أنه وحتى 1926 عام قيام الجمهورية اللبنانية ووضع الدستور كان يتحدّث عن لبنان المسيحي مقابل سوريا المسلمة، وعن لبنان الملجأ لكل مسيحيي الشرق. ويدعو إلى تبادل سكّاني إسلامي-مسيحي بين لبنان وسوريا.

والوثيقة هذه التي تُكشف للمرّة الأولى تكذّب كل الادعاءات والمزاعم من مارونية وغيرها والقائلة بأنه سعى إلى وطن متعدّد الانتماءات الدينية. وهنا بدا الحويك ومطارنته وإكليروسه عاملين على إدارة لبنان الكبير بذهنية لبنان الصغير، وهو مبدأ لم يكن قابلاً للتطبيق. والخلاصة كانت أن بطرك لبنان نجح في التكتيك، وفشل في الاستراتيجيا!!

وفي الحكم الأخير هذا بدا للباحث/الكاتب أنه أنصف "بطرك العرب" غريغوريوس حدّاد من دون أن يغبن منافسه "بطرك لبنان" الحويك حقه، وأثبت صدق زعمه حياداً ووقوفاً

على مسافة واحدة من زعيمين... وفريقي نزاع.

فالبحث لم يكتب مدحاً لشخص ولا قدحاً لآخر. فلا التمجيد كان الهدف، ولا التحقير كذلك. ومصيبتنا في هذا الشرق تقديس الأشخاص والغلو في تعظيمهم.

هل يعني الفصلان 3 و 4 أن الروم والموارنة تساويا في إطلاق الأساطير المفخّخة لدور والمفخّمة لآخر؟

الجواب متروك للقارئ.

مصيبة هذا البلد أن أهله فالحون في اختراع الأساطير وإطلاقها، وفاشلون في البحث عن الحقائق وإقرارها. يقول المؤرخ كمال الصليبي:«أصرّ كل فريق من اللبنانيين منذ قيام دولة لبنان الكبير 1920 على اختلاق أساطير خاصة به، وعلى رسم صورة تاريخية للوطن الجديد تتلاءم مع أغراضه وأهوائه»[1].

وها هنا نموذجان بسيطان ولكن جد معبّرين عن هذه الأساطير: واحدة للروم وأخرى للموارنة. ورغم أن الزمن قريب ولبنان الكبير حدث معاصر، فذلك لم يمنع من نشر الأساطير بشأنه. إنها من فئة الأساطير الصغرى وتعكس أغراضاً معينة لمطلقيها، والصليبي لم يجانب الصواب عندما قال:«والواقع هو أن أصحاب الأساطير في لبنان ، على اختلاف نزعاتهم يخادعون الناس ولا يخدعون إلا أنفسهم، وبعض المتّفقين معهم في هذا الغرض أو ذاك، إذ ما من لبناني عادي إلاّ ولديه من حسن

1 - الصليبي، منطلق، م. س، ص 11.

الفطرة والإدراك ما يمكنه أن يفرّق تلقائياً بين الحقيقة والزغل، وبين الرأي الصادق المعقول والرأي المغرض المشوّش»[1].

أولى الخطوات نحو سلم أهلي ثابت أن نتصالح مع تاريخنا وأن نقلع عن إطلاق الأساطير وتصديقها واعتمادها كحقائق، وفي ذلك يقول الصليبي:«إن حبل الأسطورة، وهي ضرب من الكذب، قصير. ووعي الحقيقة التاريخية المجرّدة من قبل الخاصة والعامة هو، في نهاية المطاف، أساس يبنى عليه المجتمع السليم، ولعلّ الإمعان في تزوير التاريخ اللبناني من قِبَل المتمسّكين بالأساطير على أنواعها، وجميعها تفرّق اللبنانيين ولا تجمعهم، هو أهم الأسباب التي ما زالت تعمل على تمزيق المجتمع اللبناني وتفتيته»[2].

دور المؤرخ الرصين الأساسي، يكمن، على الأرجح، في كشف الأساطير وإماطة اللثام عن الروايات الضعيفة والمفبركة والأخبار الآجيوغرافية التقوية والتقديسية، فهي تعمّي البصر وتشوّش البصيرة الفردية والجماعية.

والفصل الأخير (**فصل5/باب4**) من الدراسة ينقل، وللمرّة الأولى، إلى العربية وثيقة مهمّة كتبها وقدّمها أواخر أيلول 1932 رئيس حكومة سابق ورئيس جمهورية لاحق للبنان هو إميل إدّه. والعنوان الأساسي لهذه الوثيقة هو النقيض لمسعى الحويك: التضحية بالجغرافيا من أجل كسب الديموغرافيا. يقترح

---

1 - الصليبي، منطلق، م. س، ص 13.

2 - الصليبي، منطلق، م. س، ص 13.

إدّه التخلّي عن طرابلس شمالاً وجبل عامل جنوباً للتخلّص من أكثريتين خطيرتين: سنّية وشيعية في سبيل عودة إلى لبنان بأكثرية مسيحية طاغية.

ويقارن البحث بين طرحين: تبادل سكّاني اقترحه الحويك وتخلٍّ جغرافي ارتآه إدّه.

أي اقتراح كان الأقرب إلى الواقع والصواب؟! ولكن ما جدوى مقارنة افتراضية كهذه وكلا الطرحين لم يجدا طريقاً إلى التنفيذ... ولم يجديا نفعاً بالتالي؟!

هل جاء اقتراح إدّه، صحوة متأخرة، بعد أن سبق السيف العزل؟!

وهل كان طرح الحويك إقراراً ضمنياً بخلل ما في استراتيجيته وسعيه الدؤوب إلى لبنان الكبير؟!

لا يجب أن يغرب عن البال هنا أن الحويك وقد شرب كأس طرابلس المرّ حتى الثمالة، أو أبدى منذ البداية استعداداً لشربه، فقد شاء وسعى بالمقابل أن يبعد الفرنسيون عنه الكأس الآخر أي الطرف الجنوبي بأكثريته الشيعية الساحقة، ولكن المنتدب الفرنسي لم يشأ ولم يتجاوب، وكانت له أسبابه. وكل ذلك معروض في البحث. فلبنان الكبير، كما أعلن، خليط وتركيبة ليست مارونية بحتة ولا فرنسية محضة، بل أدخل الشريكان فيها كلٌّ ما يناسبه، لكأن الحويك قبل بمصيبة واحدة... فنكب باثنتين..

ووثيقة إدّه عودة إلى طروحات دوكيه، فهل هي حكم لهذا

الأخير وعلى بطرك لبنان؟!

وفي خاتمة الدراسة بدت قراءة الحاضر باستخلاص العِبَر من الماضي أمراً يفرض نفسه. فإذا كان البحث قد تحاشى باستمرار القراءة الاستذكارية لوثائق الأمس وأحداثه ومواقفه وتلافى بالتالي الوقوع في خطأ منهجي واضح، فأهمية التاريخ كعلم تبقى في ما يقدّمه لإنسان اليوم من فوائد ودروس. فتطوّر المجتمعات لا يقوم إلاّ بتراكم التجارب والخبرات.

ماذا يستفيد لبنانيو اليوم، ولا سيّما المسيحيون منهم من تجارب الأمس وأصدائه؟

ها هي طروحات المثالثة تصعقهم رغم أنها تعكس بوجه من وجوهها واقعاً ما أو جانباً منه.

هل تخيّل الموارنة أنهم سينقلبون أقلّية عددية في كيان طالما سعوا إليه ثم تشبّثوا به؟!

وها هم اليوم وسائر مسيحيي لبنان مجرّد وقود لصراع سنّي-شيعي شرس لا ناقة لهم فيه ولا جمل سوى أنهم مرشحون ليكونوا أولى ضحاياه!!

رؤياهم الواضحة، ووحدة كلمتهم جعلتهم يكسبون لبنان الكبير.

والرؤيا هذه وزميلتها الوحدة، هما اليوم مجرّد حلم ليلة صيف من عام 1920.

والنزاع بينهم وبين أخوتهم الروم وإن كان قد خبا، فقد حلّ محلّه خلاف حادّ بين زعمائهم وداخل الطائفة نفسها "من

الدلف لتحت المزراب" يقول المثل اللبناني... ومن السيء إلى الأسوأ ولا يلوح في الأفق باب فرج.

هل يقيّض لهم "حويك" ثانٍ يعيد توحيدهم حول مشروع جدّي وهم مذ رحيله يعيشون في انقسام حادّ؟!

زوال المسيحيين مصيبة للمسلمين تقول خاتمة هذا البحث. وحبذا لو يفكّر الفريقان بهذه المعادلة.

ولا رغبة للكاتب في التمادي في النعي... وهل يطيب لأي امرئ أن يكون نذير شؤم؟!

وأبناء هذا الوطن الصغير... محكومون بالحوار وقبول الآخر وتقبّل الاختلاف... والتخفيف من وطأة الأزمات... والخلاف، إذا شاءوا لوطنهم... وأنفسهم الحياة والاستمرار.

لبنان المسيحي تبخّر منذ مطلع الثلاثينات من القرن الماضي. بل غدا وهماً ومجرّد سراب مع إعلان لبنان الكبير.

ويبقى الأمل معقود أن لا يلقى لبنان التنوّع والعيش المشترك.... مصيراً مشابهاً.

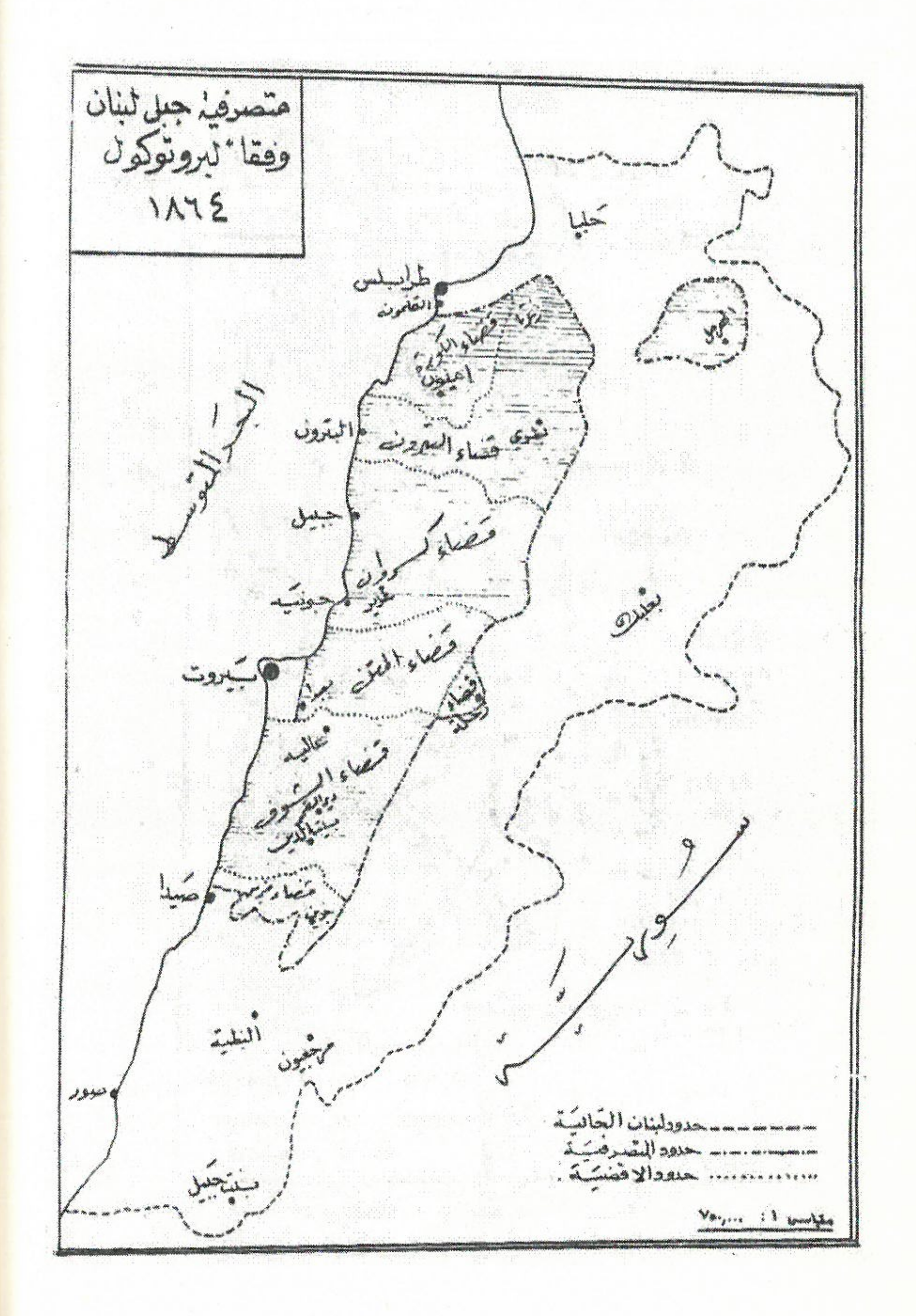
ل. ص. Q.J.C.S.T.B

باريس في 2014/10/05



باب 1

من المتصرفية والحرب إلى لبنان الكبير



فصول باب 1:

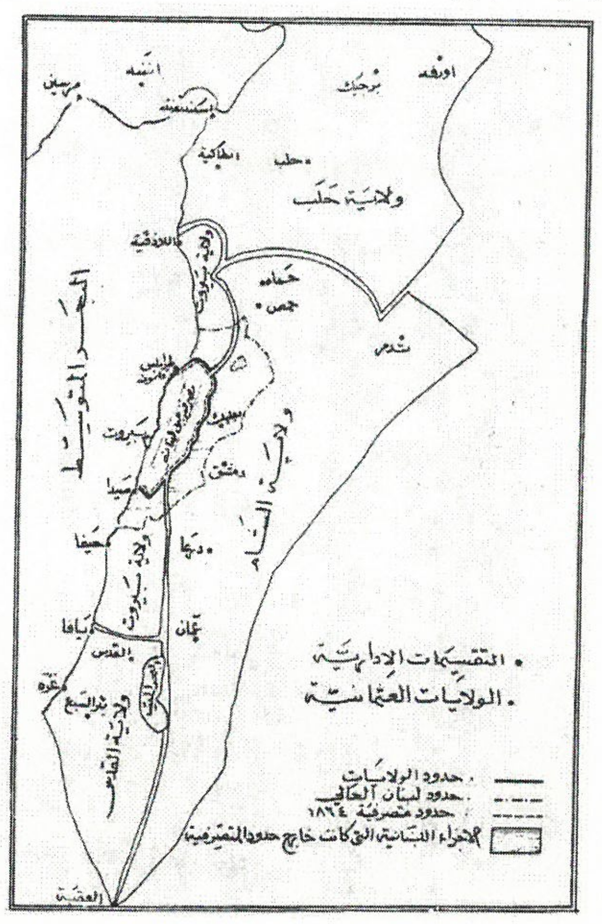
- فصل1: بطريركان ومشروعان.
- فصل2: حدّاد والحويك وموقفهما من الأتراك.
- فصل3: الموارنة والروم: مشروعان متصارعان بعد الحرب.
- فصل4: لبنان الكبير: الخيار الماروني.

فصل 1

بطريركان ومشروعان

مواضيع فصل1 باب 1:

- نهاية الحرب وبداية الصراع على الكيانات.
- البطريرك غريغوريوس والحكم التيوقراطي.
- الموارنة أبرز أعداء المشروع الفيصلي.



نهاية الحرب وبداية الصراع على الكيانات

نبدأ بحثنا وكتابنا هذا من حيث انتهى بحث ومصنّف سابق لنا. إنه كتاب "الدولة الإسلامية من منظور مسيحي"[1]. وفيه درسنا طروحات نسيب لنا هو المفكّر أمين خيرالله صليبا في كتابه "الأزاهير المضمومة"، وعرضنا خلفيتها، وحلّلنا دوافعها وظروفها السياسية والتاريخية. وأرفقنا كل ذلك بإعادة طبع ونشر كتاب الأمين هذا المطبوع للمرّة الأولى عام 1919.

والإطار التاريخي والسياسي المذكور هو عينه إطار بحثنا في هذه الدراسة. أما طروحات نسيبنا الأمين فعنصر من عناصره، لاسيما وأننا نضعها بمواجهة طرح آخر مناقض لها.

نحن في العام 1918. في 1918/09/27 غادر الأتراك، جيشاً وسلطات، دمشق إثر هزائمهم أمام جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وفي 1918/10/04 دخل الأمير فيصل[2] ابن

---

1 - صليبا، د. لويس، الدولة الإسلامية من منظور مسيحي، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014.

2 - فيصل بن الحسين(1883- 1933) أو الملك فيصل الأول. هو الإبن الثالث للحسين بن علي شريف مكة. قاد الجيش العربي برفقة الضابط الإنكليزي لورنس ضد الأتراك. دخل دمشق سنة 1918. ومثل العرب في مؤتمر السلام في باريس 1919. أعلن ملكاً على سوريا 1920. لكن فرنسا رفضت الاعتراف به. وجرّد الجنرال غورو حملة ضدّه انتصرت في معركة ميسلون، ←

الشريف حسين[1] عاصمة الأمويين دخول الفاتحين، انسحب الأتراك مهزومين من لبنان وسوريا. انتهت الحرب ليبدأ الصراع. صراع طاحن وشرس على الكيانات المزمع ولادتها بعد الحرب الكونية.

وطروحات الأمين في "الأزاهير" جزء لا يتجزأ من هذا الصراع، ولا يمكن فهمها بمعزل عنه.

مفكّر ومؤرخ وكاتب معروف في زمنه.

مسيحي ولبنانيّ يصرّ على مسيحيته ولبنانيته. يوقّع بعض كتبه بـ أصغر أبناء الكنيسة الأرثوذكسية أمين ظاهر خيرالله[2] والبعض الآخر،كالأزاهير بـ العبد الفقير أمين ظاهر خيرالله صليبا الشويري اللبناني[3] فما الذي جعله يطالب علناً بأن يكون الإسلام ديناً للدولة وللحكومة الفيصلية المزمع تأليفها؟!

وأخطر ما في طرح الأمين هذا ليس فحواه وعمّن صدر، بل من يقف وراءه. وقد بيّنا في كتابنا السابق الذكر أن الأمين لا

← فغادر فيصل سورية. وقدّم له البريطانيون عرش العراق 1921 حيث بقي ملكاً حتى وفاته 1933.

1 - الحسين بن علي (1856- 1931) شريف مكة والحجاز 1908 نشأ في اسطنبول. أعلن الثورة على الأتراك 1916 وطردهم من شبه الجزيرة، وصار ملكاً على الحجاز. هزمه ابن سعود 1924 فترك البلاد وأقام في نيقوسيا. توفي في عمّان ودفن في القدس. خلفه ابنه علي ثم تنازل 1925. ملك إبناه عبدالله في الأردن وفيصل في العراق.

2 - هو كتابه "تنوير الأفكار لمن يريد السير على نور بدون عثار أنظر باب 1/فصل 2 (فقرة 5- الكتب المسيحية).

3 - الأزاهير المضمومة، ص 397.

يعبّر عن رأيه وحسب، بل وعن رأي شريحة من اللبنانيين والسوريين يمثلها بطريرك الروم الأرثوذكس غريغوريوس حدّاد، وكان أمين صليبا سكرتيراً له ومن أقرب المقرّبين (باب 3/فصل 6 - فقرة البطريرك وأمين صليبا).

البطريرك غريغوريوس والحكم التيوقراطي

لا بل رجّحنا أن يكون كاتبنا قد وضع مصنّفه "الأزاهير" بإيعاز من بطريركه غريغوريوس (باب 3/ فصل 6 _ فقرة خلاصة في العلاقة بين مواقف البطريرك وطروحات الأمين).

كان البطريرك حدّاد رأس المطالبين بحكم تيوقراطي في مواجهة الداعين إلى حكومة علمانية (باب 3/فصل 1، فقرة الصراع بين رجال الدين ودعاة فصل الدين). وعندما انتصر تيار رجال الدين في البرلمان ذهب فريق من علماء المسلمين ومشايخهم يهنّئون غريغوريوس بهذا الإنتصار (م. ن).

كان غريغوريوس إذاً يفضّل حكماً تيوقراطياً إسلامياً، على حكومة علمانية. وهو، وإن لم يستطع القول بالإسلام ديناً للدولة الشريفية الفيصلية ولم يجرؤ على التعبير عن هذا الطرح، فقد أوعز لسكرتيره المقرّب أمين صليبا بقوله والمطالبة به والدفاع عنه. وهذا ما فعله في "الأزاهير المضمومة".

لقد ذهب الأمين، والبطريرك حدّاد من خلفه ومن معهما، في تأييد الحكم الفيصلي في سوريا إلى أقصى الحدود الممكنة. وشاؤوه مُلكاً عربياً وحكومة إسلامية.

الموارنة أبرز أعداء المشروع الفيصلي

وبوجه هذا الطرح وقفت طروحات أخرى علمانية ووطنية .. وغيرها. ولكن التحدّي الأكبر الذي واجهته الحكومة الفيصلية والدولة الشريفية في سوريا جاء من جانب اللبنانيين ولاسيما الموارنة وعلى رأسهم البطريرك الياس الحويك. الموارنة وبطريركهم كانوا أعداء المشروع الفيصلي-الشريفي الأوّلين، وكانت لهم اليد الطولى في إجهاض هذا المشروع. في حين كان البطريرك حدّاد من أبرز أنصاره.

نحن إذاً أمام مشروعين متصارعين: الدولة الفيصلية، ودولة لبنان الكبير

وبطريركين لبنانيين متنافسين غريغوريوس الرابع حدّاد[1]

1- ولد البطريرك حدّاد في بلدة عبيه-قضاء عاليه/لبنان في تموز 1859. سيم شمّاساً العام 1877. ورسم كاهناً ثم مطراناً على طرابلس في العام نفسه 1890. لعب دوراً بارزاً في عودة الكرسي البطريركي الأرثوذكسي من اليونانيين إلى أبناء البلاد وانتخاب البطريرك ملاتيوس العام 1899. وهو أول بطريرك وطني على انطاكية منذ 1724. انتخب بطريركاً العام 1906. ونصّب في 1926/08/26. توفي في 1928/12/11. كان البطريرك حدّاد أديباً وشاعراً. أنشأ مجلة النعمة وجعلها لسان حال الملّة الأرثوذكسية، كتب فيها كبار المؤرّخين والكتاب الأرثوذكس ومنهم أمين خيرالله صليبا. وأصدر هو فيها عدّة مناشير (السنوات 1 و2 و3). اشتهر بأعماله الإنسانية وإطعام المحتاجين في الحرب الكونية. وقد عرضنا لسيرته ومؤلفاته ومواقفه في كتابنا "الدولة الإسلامية" باب 3/فصل 6، ممّا يغنينا عن تكرار ذلك هنا.

والياس الحويك[1].

وصراع خفي حيناً ... وظاهر أحياناً بل غالباً بين بطريركين مسيحيين، كل ذهب بفكرته وأيديولوجيته إلى الحد الأقصى.

والمقارنة بين الإثنين، لا سيما في علاقتهما مع الأتراك أولاً والشريفيين والفرنسيين تالياً، تفرض نفسها على البحث، لما يمكن أن نستخلص منها عن شخصية كل بطريرك وأثر ذلك في الصراع ومجريات الأمور.

---

1 - البطريرك الياس الحويك. ولد في قرية حلتا (قضاء البترون- لبنان) أوائل كانون الأول 1842. دخل العام 1859 مدرسة اليسوعيين في غزير حيث أمضى سبع سنوات، سافر بعدها إلى روما لإكمال دروسه اللاهوتية ونال شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت. رسم كاهناً في 1870/06/05. ولما عاد إلى لبنان مارس التعليم وكان كاتماً لأسرار البطريركية ومحامياً في دعاوى الزواج. ثم رسم مطراناً في 1889/12/14. وأسّس رهبانية "راهبات العائلة المقدسة المارونيات". في العام 1899 انتخب بطريركاً بالإجماع على الكنيسة المارونية، فقام بأعمال عمرانية عديدة. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى بذل جهوداً جبّارة لإطعام الجائعين. توفي في العام 1931. من مؤلفاته: تكريس الطائفة المارونية لقلب يسوع الأقدس 1900. العبادة لمريم العذراء 1903، تحريم الماسونية 1906، تعلّق الطائفة المارونية الدائم بالكرسي الرسولي 1908. الشكر لله على نهاية الحرب الكونية 1918. حياة الشعوب 1923. آفة العصر الحاضر 1924، شهداء دمشق الموارنة 1926، محبة الكنيسة 1929، محبة الوطن 1931. جمعت رسائله الرعوية في كتاب ضخم عنوانه الذخائر السنية نشره الأب فيليب السمراني 1931.



البطريرك غريغوريوس حداد مع الشيخ أبو الخير عابدين

باب 1

فصل 2

حدّاد والحويك وموقفهما من الأَتراك

مواضيع فصل 2 باب 1:

غريغوريوس المواطن العثماني

الحويك والوطن اللبناني

حدّاد وجمال باشا

السفّاح يرغم الحويك على طلب الفرمان

السفّاح يطلب صك تبرئة من الحويك

السفّاح يقارن بين الحويك وحدّاد

السفّاح يعتزم نفي الحويك

غريغوريوس والوساطة المزعومة للحويك

أسباب إحجام السفّاح عن نفي الحويك

لا دخل لحدّاد في إنقاذ الحويك

غريغوريوس المواطن العثماني

عرضنا في كتابنا "الدولة الإسلامية" لعلاقة البطريرك حدّاد المميزة بالأتراك (باب 2/فصل 6، فقرة البطريرك وموقفه من السلطة)، وذكرنا ما ناله هو وبعض أفراد أسرته وأساقفته من أوسمة من السلطان العثماني وغير ذلك.

وقد شهد أحد مطارنة غريغوريوس لعلاقته الوطيدة بالعثمانيين ومكانته عندهم، فقال المطران ألكسندروس جحا عن معلّمه البطريرك حدّاد:«إن كلمته كانت مسموعة عند الحكومة العثمانية لدرجة أنه لم يكن يحتاج للذهاب إلى المسؤولين، وإنما كان يكتفي بإرسال قواصه (مرافقه) ليستجاب له»[1].

وعبّر غريغوريوس في الكثير من خطبه وعظاته عن الولاء الكامل والتبعية الكلّية للأتراك العثمانيين. ومن ذلك قوله إثر صدور قانون التجنيد المعدّل: في 1909/08/7[2]. إذ خطب

1- سرّوج، الأب إبراهيم، البطريرك غريغوريوس حدّاد نموذج فريد في العيش المسيحي-الإسلامي، محاضرة في مؤتمر طرابلس عيش واحد، 27 و2009/03/28.

2- ألغى هذا القانون في مادته الأولى البدلات العسكرية التي كانت تؤخذ من العناصر غير المسلمة، وقضى بتمثيل الهيئات الروحية المحلّية في ← مجالس سحب القرعة، كما أعفى كل منصوب ومعزول من بطاركة

«الحمد لله الذي جمعنا في الإنسانية والوطنية، ووحّدنا في الجامعة العثمانية ...

لقد قبلنا بفرمان مولانا على الرأس والعين، وإن خلا من مخاطبتنا نحن الرؤساء الروحيين، فإنه يدعو أبناءنا إلى أحضانه، وهذا يرضي الطرفين، وبات الكلّ يتاجرون ولا يتناظرون في خدمة الوطن، وينهضون بشأنه»[1].

نلاحظ أن الوطن بمفهوم البطريرك حدّاد هو الدولة العثمانية عينها. وهذا ما سنرى نقيضه عند البطريرك الحويك. وغريغوريوس يقول في خطبة أخرى نقلناها في كتابنا عن أمين خيرالله:«أفتخر بالعثمانية التي نعيش تحت لوائها».

الحويك والوطن اللبناني

وبالمقابل لنقارن أقوال حدّاد بما قاله الحويك أمام السلطان العثماني عبد الحميد في دار السعادة في 1905/10/20:«فكم وكم من الأيادي البيضاء، وكم وكم من الامتيازات والنعم الخاصة قد توالت بفضل عنايتكم الأبوية على عبيدكم اللبنانيين عموماً، وعلى الملّة المارونية خصوصاً. فنحن الداعون، وكامل الشعب اللبناني الذي يشاركنا في الوطنية والجامعة

→ وإكليروس وحاخامين ورهبان من الخدمة. وساوى في مادته الثانية بين كل الملل في خدمة الجندية العثمانية.

1- رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، بيروت، المكتبة البولسية، ط2، 1989، ج3، ص343-344.

العثمانية.[1]».

لنقايس هنا بين الموقفين: حدّاد يتحدّث إلى رعيته في الشام عن مرسوم السلطان محمد رشاد. أما الحويك فهو في حضرة أخيه وسلفه السلطان عبد الحميد المشهور ببطشه وصرامته، وفي قصره[2]. ومع ذلك فهو يذكّره، وبلباقة، بامتيازات اللبنانيين عموماً والموارنة خصوصاً. الوطن بمفهوم الحويك هو لبنان لا الدولة العثمانية، لنلحظ دقة تعابيره:«الشعب اللبناني الذي يشاركنا في الوطنية». وهو لا يخاف أن يعلن ذلك في حضرة السلطان المخيف عبد الحميد نفسه[3].

1- فهد، الأباتي بطرس، بطاركة الموارنة وأساقفتهم القرن 20، بيروت، دار لحد خاطر، ط1، 1987، ص 124.

2 - يقول الصحافي المؤرخ اسكندر رياشي مقارناً بين السلطانين محمد رشاد وعبد الحميد:«كان السلطان محمد رشاد معروفاً أنه رجل طيّب، لا يهشّ ولا ينشّ، وليس عنده شيء من دهاء ونباهة وشوكة سلفه السلطان عبد الحميد». (الرياشي، اسكندر، الأيام اللبنانية، بيروت، شركة الطبع والنشر اللبنانية، ط1، 1957، ص 37) عرف السلطان عبد الحميد (1842-1918) باستبداده وسفك الدماء ارتقى العرش 1876. وخلع 1909. والسلطان محمد رشاد (1844-1918) حكم من 1909 إلى 1918. استخدمته جمعية الاتحاد والترقي لتنفيذ أهدافها. اشترك في الحرب العالمية الأولى.

3 - يقول المؤرخ وحافظ المكتبة البطريركية الأب بولس صفير في ذلك: أقام السلطان عبد الحميد الثاني وهو في ذروة مجده في ت1 سنة 1905 استقبالاً ملوكياً للبطريرك الياس الحويك (صفير، بولس، دور البطريرك عريضة في استقلال لبنان، ضمن اليوبيل الذهبي لإستقلال لبنان، بيروت، الجامعة اللبنانية، ص1، 1996، ص 400). ويشير المفكّر ناصيف نصّار إلى الظروف الصعبة التي واكبت بداية بطريركية الحويك فيقول:«عندما ←

أما حدّاد فيتحدّث عن الوطن أي الدولة العثمانية رغم أنه بعيد ألوف الكيلومترات عن سلطان آخر سموح هو محمد رشاد.

وإصرار الحويك هذا على المواطنية اللبنانية والامتيازات المارونية والعلاقات مع فرنسا والفاتيكان وهو يذكر كل ذلك في خطبته أمام السلطان هو الذي أوقعه في إشكالية كبرى مع السلطنة، وجمال باشا السفاح[1] خصوصاً أثناء الحرب الكونية.

→ تسلّم الحويك مقاليد السدّة البطريركية كان استبداد عبد الحميد يزداد بطشاً» (نصار، ناصيف، من المتصرفية إلى لبنان الكبير، مجلة المشرق، السنة 65، ج1 و2، 1991، ص 155).

1- أحمد جمال باشا (1873-1922). من زعماء جمعية الاتحاد والترقي. اشترك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد. قاتل البلغار في مقدونيا. كما كان أحد قادة مجزرة الأرمن. تولّى منصب وزير الأشغال العامة 1913 وقائد البحرية 1914. وعيّن قائداً للجيش العثماني في بلاد الشام 1914 فصار الحاكم المطلق فيها أثناء الحرب العالمية الأولى. حاول جمال باشا بداية كسب ودّ العرب في سوريا لمناصرته في الحرب. قاد الفيلق التركي الرابع في حملة على قناة السويس في 1915/02/02. لكن الحملة منيت بفشل ذريع وسقط 1500 جندي تركي فيها. فصبّ جمال باشا جام غضبه على القيادات العربية واتّهمها بالتسبّب بالهزيمة. وقام بعدها بإعدام نخبة من المثقفين العرب من مختلف مدن سوريا ولبنان بتهمة التعامل مع الاستخبارات البريطانية والفرنسية والعمل على الانفصال عن الدولة العثمانية. فأنشأ محكمة عرفية في عاليه/جبل لبنان أصدرت أحكام الإعدام ضدّهم، ونفذت على دفعتين الأولى 1915/08/21 والثانية في 1916/05/06 في كل من ساحة البرج في بيروت وساحة المرجة في دمشق. ولم تنفع وساطات الشريف حسين وابنه فيصل في ثنيه عن هذه ←

حدّاد وجمال باشا

فلننظر هنا إلى علاقة كل من البطريركين بالسفّاح وما يمكن أن نستخلص منها من عناصر تساعد في فهم شخصية كل منهما وحقيقة موقف كل بطريرك من الأتراك والدولة العثمانية.

عن علاقة البطريرك حدّاد بجمال باشا السفّاح يحدّثنا أسد رستم[1] مؤرّخ الكرسي الإنطاكي فيقول:«أعجب جمال باشا بنزاهة غريغوريوس وتفانيه. واحترمه وسهّل أموره، وبادله

→ الإعدامات. وبسببها وغيرها من المظالم عُرف بـ"السفاح". وبقي ممعناً في غيّه حتى نقلته الدولة العثمانية من سوريا وعيّنت مكانه جمال باشا المرسيني الشهير بالصغير. قتل جمال باشا سنة 1922 على يد أرمني انتقاماً لمجازر الأرمن التي شارك فيها. يروى أن زميله طلعت بك قال له:«لو أنفقنا كل القروض التي أخذناها لستر شرورك وآثامك لما كفتنا».

1- الدكتور أسد رستم (1897-1965). من أكبر المؤرّخين اللبنانيين. ولد في الشوير/المتن الشمالي. تخصّص في التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت فنال الماجستير 1919. وأكمل دراسته في جامعة شيكاغو حيث نال الدكتوراه سنة 1923. وعاد ليدرّس التاريخ في الجامعة الأميركية طوال عشرين عاماً. تفرّغ للبحث في آخر أيامه. منحه البطريرك تيودوسيوس أبو رجيلي لقب مؤرخ الكرسي الإنطاكي. له عشرات الدراسات والتحقيقات منها: الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي 5 أجزاء. مصطلح التاريخ 1940، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم جزءان 1955. بشير بين السلطان والعزيز، 1956، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى 3 أجزاء، لبنان في عهد المتصرفية 1973. حرب في الكنائس 1958. نحن وروما والفاتيكان 1959.

البطريرك الاحترام»[1].

السفّاح يرغم الحويك على طلب الفرمان

وهذه الكلمات البسيطة الواضحة تغني عن أي شرح. وبالمقابل يبدو أن نزاهة بطريرك الموارنة لم تحظَ بإعجاب السفّاح، فلم تكن علاقتهما سمناً على عسل كما هذه. وعمل الباشا كل ما بوسعه لتعقيد أمور الحويّك لدرجة أنه عزم على نفيه ثم عدل بسبب الضغوطات. وسنعرض في ما يلي أبرز المراحل التي مرّت بها جدلية هذه العلاقة:

أرغم جمال باشا البطريرك وأساقفة الموارنة على طلب فرمان التثبيت من السلطان العثماني. وكان هدفه من ذلك إذلاله هو وأساقفته. وقد رفض الحويك بداية هذا الطلب محتجّاً بأن البطريرك الماروني وسائر أساقفته معفيّون من طلب الفرمان وقال:«نحن لا نغيّر شيئاً ممّا ورثناه عن أسلافنا الصالحين»[2]. ولكنه، وتفادياً لمواجهة سافرة مع السفّاح وفي زمن حرب ومجاعة، عاد وانصاع لرغبته، وطلب الفرمان له وللأساقفة. وأرغم الباشا جمال البطريرك الماروني على الحضور أمامه في صوفر في ما يشبه الاستدعاء، فقام الحويك بزيارته في 1915/07/21، وقطع مسافة 150 كلم للوصول إليه. واستدعى

---

1 - رستم، م.س، 371/3.

2- حرفوش، الأب إبراهيم، دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي بناء الطائفة المارونية البطريرك الياس الحويك، جونيه، مطبعة المرسلين، ط1، 1934، ص 530.

السفّاح البطريرك مرّة أخرى، من الديمان إلى بيروت لمساءلته بشأن وثائق عثر عليها في القنصلية الفرنسية في بيروت، فما كان على الحويك إلا تلبية رغبة الباشا. فذهب إليه في بيروت في نيسان 1916، وفنّد التهم والتأويلات والوشايات.

السفّاح يطلب صك تبرئة من الحويك

وثمّة حادثة أخرى جدّ معبّرة تبيّن جدلية علاقة بطرك الموارنة بالسفّاح مقارنة بعلاقة بطرك الروم به.

في 1916/10/01 أرسل السفّاح إلى البطريرك يطلب منه إرسال أحد أساقفته لغرض مهمّ. فأوفد الحويك نائبه المطران عبدالله خوري[1] للاستفسار عن سبب الاستدعاء. فتبيّن له أن

1- المطران عبدالله خوري (1872-1949). شخصية بارزة، وسيتكرّر اسمه مراراً في دراستنا. ولد في بكاسين في 1872/12/13. تلقّى علومه الأولى في مدرسة عينطوره/كسروان. ثم أرسله رؤساؤه إلى باريس حيث درس الفلسفة واللاهوت في معهد سان سولبيس Saint Sulpice من سنة 1892 إلى 1898. رسم كاهناً في 1898/06/04. عيّنه البطريرك الياس الحويك سكرتيراً له فور انتخابه بطريركاً في 1899/01/06. ورسمه برديوطاً في 1904/02/7. وكان في عداد الحاشية التي رافقته عندما زار الأعتاب الرسولية سنة 1905. فأنعم عليه البابا بيوس العاشر بلقب حاجب سرّي بابوي في 1905/07/31. رقّاه الحويك إلى درجة الأسقفية في بكركي في 1911/02/11. تولّى شؤون الطائفة المارونية مراراً أثناء سفر الحويك وخلفه أنطون عريضة إلى خارج لبنان. كما كلّفه هذان البطريركان بمهمّات وطنية وكنسية عديدة، ومثل الطائفة المارونية في ← العديد من المؤتمرات الكنسية العالمية. سنة 1948 عيّنه الكرسي الرسولي عضواً في اللجنة الرسولية التي كلّفت بمؤازرة البطريرك عريضة في إدارة

السفّاح يريد أن يستحصل من بطرك الموارنة على كتاب احتجاج يبرّئه ممّا اتهمته به الصحف الفرنسية من العمل على إبادة اللبنانيين والاستقلاليين شنقاً ونفياً ولجوئه إلى كافة وسائل الإرهاب لتحقيق أهدافه.

ويروي لنا الأب حرفوش مؤرّخ سيرة الحويك تفاصيل هذه الواقعة مرفقة بوثائق ورسائل نلخّصها هنا بإيجاز نقلاً عنه: «أوفد البطريرك الحويك نائبه المطران عبدالله خوري إلى جمال باشا للاستفسار عن سبب الاستدعاء. فتلا عليه هذا الأخير ما كتبته الصحف الفرنسية وما اتهمته به بإبادة المسيحيين جوعاً وشنقاً في سوريا ولبنان، وأن المسيحيين ينتظرون قدوم الفرنسيين لينضمّوا إليهم وطرد الاتراك .. .وأراد جمال باشا أن يعرف حقيقة أفكار البطريرك بهذه الأمور، فإن نكرها فعليه أن يرفع كتاباً إلى نظارة الأديان والمذاهب شديد اللهجة، ويحتجّ على الصحافة الفرنسية وينفي ما نُسب إلى الموارنة من أنهم

← شؤون الطائفة. وضمّت اللجنة مطرانين آخرين هما بولس المعوشي وبطرس ديب. توفي في 1949/02/5 إثر نوبة قلبية. ونقل جثمانه إلى بلدته بكاسين حيث دفن في كنيسة بناها هو وأخوه المطران شكرالله.

ترأس المطران عبدالله الوفد الثالث إلى مؤتمر الصلح ورافقه فيه إميل إدّه والشيخ يوسف الجميل والأمير توفيق إرسلان والمطران كيرلّس مغبغب. وأمضى زهاء ثمانية أشهر خارج لبنان. إنطلق في 1920/02/01 من بكركي ليعود إليها في 1920/09/29. ولم يوفّر جهداً إلاّ بذله لتوسيع حدود لبنان واستقلاله. وكتب في مدّة سفره مئات الرسائل والعديد من التقارير ويومياته في مفكرة سننشر أجزاء منها في القسم الثاني من كتابنا هذا.

يتحفّزون لمقاتلة الأتراك ومناصرة فرنسا. وقد الحّ جمال باشا وهدّد حتى وضع البطريرك كتاب الاحتجاج بلهجة معتدلة متنصّلاً من تبعة ما تنشره الصحف الفرنسية، ومظهراً إخلاص طائفته للحكومة العثمانية. وحاول جمال باشا تعديل لهجة الكتاب لتكون أكثر قسوة فرفض المطران عبدالله بلباقة. فأجابه جمال باشا: ليس من بيدي لي مثل هذه الملاحظات إلا أنتم الموارنة. فها إن سائر بطاركة القدس والشام لم يبديا لي أقلّ ملاحظة، بل وضعا لي الاحتجاج كما شئت، دون أن أضطر لعمله بذاتي .. . فلو كان عندكم وطنية لكنتم تظهرونها تجاه تحامل الأجانب، دون أن تحرّضكم الحكومة على الأمر»[1].

السفّاح يقارن بين الحويك وحدّاد

وتستوقفنا ملاحظة السفّاح الأخيرة، فها هو بنفسه يقارن بين البطريركين حدّاد والحويّك في تعاملهما معه. الأول (بطريرك دمشق) يكتب له ما شاء ويوقّع له على بياض، ولا يحتاج جمال حتى أن يكتب له النصّ الذي يريد. فبطرك الروم يقوم بالمهمّة على أتمّ ما يرام ويزوّد السفّاح بنصّ التبرئة والتبجيل دون أن يحتاج هذا الأخير إلى أي تعديل فيه. أما بطرك الموارنة فليس طيّعاً بيد جمال، ولا يلبّي له مطالبه ورغباته. إنها شهادة من قلب الحدث من صاحب الشأن الأول تميّز بين الاستقلالية والتبعية.

1- حرفوش، م. س، ملخص عن النص من ص 553-557.

السفّاح يعتزم نفي الحويك

وأخيراً عزم السفّاح على نفي البطريرك الماروني، فاستدعاه إلى صوفر. فغادر الحويك كرسيّه في 1917/07/23 وأناب عنه المطران أنطون عريضة (البطريرك في ما بعد). وبقي في صوفر من 07/25 إلى 1917/08/14. وكان بنيّة جمال باشا نقل البطريرك إلى زحلة ومن بعدها إلى مكان مجهول، ولكنه عدل عن خطّته هذه. وفي ذلك أسرّ الحويك إلى الخوري حرفوش: «أثني على جميع الذين توسّطوا في أمر نجاتي (...) ولا أعلم أي وسيلة من وسائل نجاتي كانت أسبق وأفعل، وإذا العناية لاحظتك عيونها، فنم فالمخاوف كلّهن أمان»[1].

ويلخّص المؤرّخ البحّاثة مائير زامير Meir Zamir فترة الاضطهاد والتجويع التي عاشها الموارنة وبطريركهم في ظل حكم السفّاح كما يلي:«انتقلت السلطات التركية إلى العمل ضدّ الكنيسة المارونية والبطريرك الحويك. فاستولى الأتراك على الأديرة والمؤسّسات التي يديرها الأجانب. واعتقل الكثير من أفراد الإكليروس، وعلى رأسهم أسقف بيروت [المطران بطرس شبلي] وجرى نفيهم، كما أعدم أحد الكهنة. وفي آذار 1915 أرغم البطريرك على طلب فرمان خاصّ من السلطان تثبيتاً له في منصبه. وكانت هي المرّة الأولى في تاريخ الموارنة التي يطلب فيها فرمان للبطريرك، وأريد من ذلك إخضاعهم تماماً للسلطة التركية. وفي السنوات اللاحقة حاول الأتراك مراراً عزل البطريرك

1 - حرفوش، م. س، ص 750.

الحويك من منصبه ومحاكمته. ولكنهم تراجعوا بعد تدخّلات ممثلي النمسا والحبر الأعظم. ورغم هذه الضغوط استمرّت الكنيسة خلال فترة الحرب في دعم أبنائها، وأثبتت في ذلك الوقت العصيب أنها التنظيم الثابت الوحيد في الجبل»[1].

وهكذا فحينما كان الحويك يقاسي جحيم الاضطهاد، كان حدّاد ينعم برضى السفّاح وإعجابه.

غريغوريوس والوساطة المزعومة للحويك

تلك باختصار أبرز سمات علاقة كل من البطريركين بالسلطات التركية. ولا بدّ لنا، وبشأن العلاقة بجمال باشا، من وقفة عند رواية تناقلها بعض الكتّاب الأرثوذكس ومفادها أن البطريرك حدّاد توسّط للحويك عند جمال باشا لتجنيبه كأس المنفى ومرارته. وأول من روى هذه الخبرية فريدا حدّاد عبس[2]. ونقلتها عنها ماري مالك دبس كما يلي:«سعى البطريرك غريغوريوس حدّاد لدى جمال باشا لكي لا ينفي البطريرك الماروني الياس بطرس الحويك المعروف بتعلّقه بفرنسا. فلمّا صدر قرار جمال باشا بإخلاء سبيل البطريرك بكى غريغوريوس فرحاً»[3].

1- Zamir, Meir, the formation of modern Lebanon, London, Croom Helm, 1985,p.36.

2 - في كتابها:"مؤتمر عبيه في التاريخ"، غريغوريوس الرابع بطريرك إنطاكية وسائر المشرق، تشرين الثاني 1999، ص 50.

3 - دبس، ماري مالك، البطريرك غريغوريوس الرابع حداد، رسالة ماجستير، جامعة البلمند، 2003، ص 126.

ويطرب صديقنا الأب إبراهيم سرّوج لهذا الخبر فينقله عن سابقتيه ويعقّب:«سوف يكافئ البطريرك الحويك الروم في وادي النصارى بأن رفض انضمامهم إلى لبنان الكبير يوم هندسه مع فرنسا المنتدبة»[1].

وقبل التعليق على تعقيب سرّوج لنبحث في مدى صحّة هذه الخبرية المتناقلة نفسها.

ممّا لا شكّ فيه أن علاقة البطريرك حدّاد بالسفّاح كانت جيّدة. وسبق وذكرنا شهادة المؤرّخ أسد رستم في ذلك، ونضيف إليها هنا شهادة سياسي ومؤرّخ مقرّب من غريغوريوس هو يوسف الحكيم[2]:

---

1 - سرّوج، الأب إبراهيم، البطريرك غريغوريوس حدّاد نموذج فريد في العيش المسيحي-الإسلامي، محاضرة في مؤتمر طرابلس عيش واحد 27-28 أذار 2009.

2 - يوسف الحكيم (1879-1979) يوسف بن الطبيب يعقوب الحكيم سوري من أصل لبناني. ولد في اللاذقية وتلقى فيها تعليمه الإبتدائي والإعدادي. درس القانون وصار قاضياً متدرّجاً في المراتب بين اللاذقية ويافا والقدس وطرابلس ودمشق حتى أصبح الرئيس الأول لمحكمة التمييز السورية. وكان قبل ذلك عيّن مديراً لديوان حاكم جبل لبنان 1912 ورئيساً للجنة ترجمة القوانين من التركية إلى العربية، فقائمقاماً لقضاء الكورة والبترون في لبنان حتى 1918. تقلّد بعد ذلك نيابة رئاسة المؤتمر السوري حتى آذار 1920، ثم تسلّم في عهد الملك فيصل وزارات الزراعة والتجارة والأشغال وعيّن مرّات ثلاث وزيراً للعدل في عهد الإنتداب الفرنسي. توفي في 1979/07/28. وهو والد القانوني جاك الحكيم. من مؤلفاته ذكريات يوسف الحكيم في أربعة أجزاء.

«ولمّا بلغ مسامع جمال باشا ما يقوم به هذا الحبر الجليل [غريغوريوس] من أعمال البرّ والإحسان إلى المعوزين دون تفريق في الجنس والدين والمذهب، زاره شاكراً له عطفه على أولئك البؤساء، ومدّه بكميّات من القمح مكّنته من المثابرة على عمله المبرور حتى نهاية الحرب»[1].

ولكن هل كان البطريرك حدّاد "يمون" على السفّاح لدرجة ثنيه عن بعض القرارات وتغييرها؟!

يروي لنا الحكيم أخباراً وأحداثاً تاريخية تنفي هذا الزعم. فمطران بيروت الأرثوذكسي جراسيموس مسرّة، وكان من الأساقفة المقرّبين للبطريرك[2]:«أصدر جمال باشا أمره بنفي المطران [مسرّة] إلى داخل سورية، ثم اكتفى بناء على توسّط البطريرك الأرثوذكسي غريغوريوس حدّاد، بأن يقيم في دير سيدة البلمند الواقع في قضاء الكورة بلبنان»[3].

كلّ ما استطاعه غريغوريوس في توسّطه لمطرانه هو تغيير وجهة نفيه، «فاستبدل الداخل السوري بإقامة جبرية في البلمند»[4].

---

1 - الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، دار النهار، ط 4، 1991، ص 254.

2 - يقول المؤرخ مائير زامير: «إن المطران مسرّة كان يقود المعسكر الداعم للبطريرك حدّاد داخل الطائفة الأرثوذكسية».
وكان يوسف الحكيم من هذا المعسكر (Zamir, op.cit, p 67).

3 - الحكيم، م. س، ص 223.

4 - م.ن، ص 226.

ويروي لنا الحكيم كيف عاد جمال باشا وأمر بنفي المطران مسرّة إلى تلكلخ:«فوجئنا بنبأ صدور أمر القيادة العسكرية العليا [جمال باشا] بنقل السيد جراسيموس مطران بيروت من دير البلمند إلى دير القديس جاورجيوس (تلكلخ) البعيدة عن الساحل. وكانت القيادة المشار إليها قد أبلغت ذلك من قبيل المجاملة إلى غبطة البطريرك في دمشق، فكتب بدوره إلى سيادة المطران بأن ينتقل من تلقاء نفسه حفظاً لكرامته إلى منفاه الجديد»[1].

فإذا كان البطريرك حدّاد لم يفلح في أن يزيح كأس المنفى عن مطرانه وأقرب المقرّبين إليه جراسيموس، فهل يستطيع أن يفعل ذلك للبطريرك الحويك؟ لاسيما وأن مسألة نفي هذا الأخير أكثر خطراً، والوساطة فيها أكثر جسامة وأشدّ عواقب؟!

أسباب إحجام السفّاح عن نفي الحويك

ويروي لنا الحكيم نفسه معاصر هذه الأحداث كيف عدل جمال باشا عن قراره بنفي البطريرك الماروني وإرساله للإقامة الجبرية في زحله، فيقول:«لقد قيل آنئذٍ إن البطريرك بوقاره وهيبته وحديثه وشيخوخته قد أثر في نفس جمال باشا أكبر تأثير، فعدل عمّا كان مصمّماً عليه من فكرة إقامة غبطته في زحلة. غير أن جريدة السفير اللبنانية قد أزاحت الستار عن هذا السرّ إذ نشرت بعددها الصادر أخيراً:«إن قداسة البابا بندكتوس الخامس عشر، حين عرف أن رجال الدولة العثمانية يبيّتون الشرّ

1 - م.ن، ص269.

لغبطة البطريرك لأنه موال لفرنسا، أرسل مندوباً خاصّاً إلى فينّا لاستنهاض همّة جلالة عاهل النمسا، فيتوسّط لدى حليفه السلطان العثماني لدفع الخطر المهدّد حياة البطريرك. فلم يتوان الأمبراطور عن التوسّط. وأجابه السلطان إلى طلبه، مصدراً إرادته السنية بالكفّ عن إزعاج صاحب الغبطة. وقد أرسل القاصد الرسولي من الإستانة آنئذ قسّاً إلى بكركي لتطمين غبطة البطريرك على مصيره»[1].

وفي محفوظات بكركي وأوراق البطريرك الحويك وثائق تؤكّد أن نجاته من المنفى تعود إلى وساطة أمبراطور النمسا.

يروي الأب حرفوش[2] سكرتير الحويك:«وفي 1917/10/18

1 - الحكيم، بيروت ولبنان، م.س، ص 281-282.

2 - الأب إبراهيم حرفوش (1872-1949). لا بدّ لنا من تعريف موجز بهذا الكاهن المؤرخ، لاسيما وأنه أبرز مصدر في سيرة البطريرك الحويك وتاريخه. ولد في بلدة بكاسين/قضاء جزين. درس في الجامعة اليسوعية في بيروت. ودخل جمعية المرسلين اللبنانيين 1893. رسم كاهنا 1897. كان واعظاً بليغاً واشتهر برياضاته الروحية وخطبه. اتخذه البطرك الحويك سكرتيراً له منذ سنة 1927. فاتاحت له مسؤولياته هذه وأسفاره أن يطّلع على أمور كثيرة ويجمع مواد وافرة لأبحاثه التاريخية. وكان يقضي ما تتركه له مهامه الكثيرة من أوقات حرّة ليطالع المخطوطات وينسخها ويدرسها وينتج أبحاثاً موثقة أحلّته في مرتبة كبار المؤرخين اللبنانيين. تولّى مسؤولية إدارة المكتبة البطريركية في بكركي، فنظّمها ورتّبها ووضع لها الفهارس والمسارد. من آثاره: دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي منار الطائفة المارونية البطريرك الحويك، 1935. وهو المصدر الذي نعود إليه مراراً في دراستنا هذه. نبذة تاريخية في نسب الأسرة الشهابية 1930. منائر ←

غادر البطريرك قرنة شهوان إلى بكركي (..)

ولكن بعد عشرين يوماً من وصوله إلى بكركي أسرّ جمال باشا لسليم بك تابت أنه مستاء جدّاً من البطريرك لاستغاثته بالقاصد الرسولي في الأستانة مع أنه عافٍ عنه. ولذلك عدل عن رأيه وعزم على نفي البطريرك»[1].

ويورد حرفوش نقلاً عن أرشيف البطريرك صورة للبرقية التي أرسلها القاصد الرسولي السيد جيانيتي في 1917/05/04 إلى السيد دولشي/وزارة الخارجية النمساوية بواسطة قنصل النمسا في الأستانة يخبره فيها أن جمال باشا قد طلب البطريرك الحويك إلى زحلة لينفيه. كما يورد نصّ برقيتين أرسلهما الحويك إلى نظارة الخارجية التركية في 1917/11/7 وتؤكدان خبر سعي القاصد الرسولي في الأستانة وتوسّطه لمنع نفيه. يقول في البرقية الثانية:«وقد بلغ هذا العاجز [أي البطريرك نفسه] خبر سعي حضرة المعتمد البابوي في دار السعادة بصورة حبّية لدى المراجع العالية في سبيل رجوعي إلى مقرّي البطريركي في بكركي. وذلك ترويجاً لمراجعة القاصد الرسولي في بيروت المنبعثة عن

→ الطقسيات 1909 (الرتب والطقوس المارونية وكان حرفوش عضواً في اللجنة الطقسية لفحص الكتب الليتورجية وإصلاحها). ومن مخطوطاته: قرونيقون البطريرك مسعد وهو تكملة لتاريخ الأزمنة للدويهي، بكركي مجموعة وثائق في تاريخها قبل أن تصبح مقرّاً بطريركياً. "فهرست مخطوطات بكركي، تسريح النظر في نصف قرن عبر، ابن القلاعي زجلياته وتاريخه.

1 - حرفوش، م.س، ص573.

إخلاصه الشخصي نحوي تأميناً لراحتي»[1].

هذه الوثائق التاريخية الواضحة تؤكّد أن وساطة النمسا بطلب من السفير البابوي في الأستانة هي ما أنقذ بطرك الموارنة من النفي.

لا دخل لحدّاد في إنقاذ الحويك

وواضح ممّا روينا بشأن نفي مطران بيروت الأرثوذكسي، والوساطة الكبرى التي نجّت البطريرك الماروني من النفي، أن البطريرك حدّاد كان أعجز من أن يثني السفّاح عن قرار خطير كهذا. ولا نستبعد أن يكون قد تأثر لنجاة الحويك من شرّ هذا المصير، وهو الذي يعرف عن كثب ما يمكن أن يعنيه قرار الباشا بالنفي.

أما تعقيب صديقنا الأب سرّوج على خبر وساطة غريغوريوس للحويك ونكران هذا الأخير جميل الروم ورفضه ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير، فهو مجرّد «حكي نسوان على الفرن» طبقاً للتعبير الشعبي اللبناني، ولا يمتّ إلى الحقيقة ولا التاريخ بأيّة صلة، ولا سيما وأنه استند إلى رواية واهية ضعيفة. وجلّ ما في هذا التعقيب أنه يظهر حقداً دفيناً على الموارنة يحمله الكثيرون من أمثاله من أرثوذكس سوريا الناقمين بسبب عدم ضمّهم إلى لبنان. فقد عرف لبنان منذ الاستقلال وحتى أواسط السبعينات من القرن الماضي إزدهاراً ورخاءً أسف هؤلاء وتحسّروا لعدم استفادتهم منه، وعضّوا أصابعهم ندامة

1 - حرفوش، م.س، ص 574-575.

على تفويت الفرصة التاريخية المذكورة. وسنعود إلى الحديث عن ذلك.



البطريرك الحويك في شيخوخته

باب 1

فصل 3

الموارنة والروم: مشروعان متصارعان بعد الحرب

مواضيع فصل 3 باب 1:

عودة إلى التنافس بين الموارنة والروم

تاريخ طويل من الحزازات والكيد

الروم يسعون للقبض على بطرك الموارنة

الروم يشاركون في مذابح 1841

روم مرجعيون يرفضون الانضمام إلى المتصرفية

النزاع يُستأنف في لبنان الكبير

عودة إلى التنافس بين الموارنة والروم

تلك كانت حال البطريركين مع الأتراك أثناء الحرب الكونية وما قبلها .. . فما الذي حصل مباشرة بعدها؟ ولِمَ وكيف انقلب تأييد البطريرك حدّاد للأتراك إلى تأييد لأعدائهم الشريفيين، في حين جاهر الحويك والموارنة بالتأييد القديم والمزمن لفرنسا؟!

لن ندخل هنا في تفاصيل المواقف وخلفياتها، فقد أفردنا لها باباً في كتابنا "الدولة الإسلامية" الآنف الذكر. ونكتفي بالإشارة إلى أن التنافس عاد إلى الظهور، وعلى أشدّه، بين الموارنة والأرثوذكس مع انتهاء الحرب العالمية الأولى.

ولا بدّ من أن نذكر هنا أن الروم خسروا أثناء الحرب المذكورة حاميهم التاريخي والتقليدي أي الحكم القيصري في روسيا. وفي ذلك يقول الصحافي والمؤرخ إسكندر رياشي[1] الذي

1 - إسكندر الرياشي (1890-1962) صحافي لبناني لامع وناقد إجتماعي لبق. ولد في الخنشاره/المتن. انتقل إلى نيويورك العام 1910 وأسس فيها جريدة الوطن الجديد. ثم عاد إلى لبنان قبيل الحرب العالمية الأولى وكان يراسل جريدة Le temps الفرنسية من بيروت. وقضى أيام الحرب متنقّلاً بين زحلة وبيروت. تسلّم بعد الحرب وظيفة مستشار في مندوبية حاكم زحلة الفرنسي. ساعد الكثير من المجاهدين العرب قبل معركة ميسلون ← وبعدها. واستقال من وظيفته لدى حاكم زحلة ليؤسّس جريدة الصحافي التائه الأسبوعية. انتخب نقيباً للصحافة العام 1947 والعام 1950. وهو

عاصر تلك الفترة وشارك في أحداثها:«وكان الأرثوذكس مع سقوط القيصرية الروسية التي كانوا ينتمون إليها قبل الاحتلال [الحرب] عندما كانت لا تزال أمبراطورية آل رومانوف، قد أضاعوا توازنهم، وحاروا بأمرهم بعد زوال العرش ببطرسبرغ وقيام الشيوعية. وزاد في حيرتهم ما قام دوماً بين الكاثوليك والأرثوذكس من تنافر قديم منذ انفصل هؤلاء عن روما»[1].

ضاع الأرثوذكس وتاهوا إذاً بحثاً عن حامٍ جديد. وهم لن يرتموا بالطبع في أحضان فرنسا حامية الموارنة التقليدية، فكان لا بدّ لهم من تأييد منافسيها. وفي ذلك يروي رياشي ويشرح:«وجرى لهم [الأرثوذكس] ما يجري عادة بين الأقارب عندما يتعادون، إذ تشتدّ أحقادهم إلى درجة يفتش من ورائها كل جانب عن عدو أقاربه، فيحالفه ويرتمي بين أحضانه. «لهذا كان الأرثوذكس دوماً حتى في زمن الأتراك، يأخذون جانب المسلمين، ويتعاونون معهم، أكثر ممّا يتعاونون مع إخوانهم في الدين، خصوصاً الموارنة»[2].

نخال الرياشي هنا قد وضع الإصبع على الجرح في جدلية علاقة الأرثوذكس بالموارنة وسائر المسيحيين. لذا لا نستغرب أن يؤْثر أمين صليبا، ومن ورائه البطريرك حدّاد حكماً إسلامياً

→ والد الصحافي مارك رياشي. من كتبه تذكارات إسكندر الرياشي 1953 الأيام اللبنانية 1957، نسوان من لبنان 1960.

1 - رياشي، إسكندر، قبل وبعد، دمشق، أطلس للنشر، ط 2، 2006، (ط 1، 1953)، ص 22.

2 - م.ن، ص 22.

ودولة شريفية على أي خيار آخر، ولاسيما خيار الموارنة بالاستقلال والتعاون مع الفرنسيين.

ويتابع الرياشي روايته:«ولما نادى الموارنة بفرنسا سنة 1919 للحكم في هذه البلاد، نادى الأرثوذكس بالعرب»[1].

وكان الياس بن إبراهيم سرسق أحد كبار وجهاء الأرثوذكس في بيروت قد استقبل الأمير فيصل بن الحسين واستضافه أياماً في منزله في الأشرفية بيروت العام 1918.

ويروي رياشي حادثة جد معبّرة تعود إلى تلك الفترة 1918 أي زوال الحكم التركي، ففي حين كان الأرثوذكس يهتفون للأمير فيصل ويستقبلوه في بيوتهم، كان الموارنة يتحلّقون حول الفرنسيين. وقبل أن يصل المفوّض السامي الفرنسي الأصيل جورج بيكو، كان المسيو كولندر الوكيل عنه، وأول ممثل فرنساوي دخل هذه البلاد باسم الحماية الفرنسية»[2].

»وذهب كولندر في عيد الميلاد أي في 1918/12/25 لحضور قدّاس احتفالي في كاتدرائية مار جرجس المارونية /بيروت يقيمه مطران الموارنة على شرف فرنسا. فوقف في الجماهير المارونية المحتشدة لاستقباله وخطب قائلاً:«إن فرنسا تأتي لهذه البلاد خصّيصاً إستجابة لدعوة أصدقائها الموارنة، وللمحافظة عليهم ولإعلاء شأنهم»[3].

---

1 - م.ن.

2 - رياشي، م.س، ص 25.

3 - م.ن، ص 26.

ويردف الرياشي:«وقامت قيامة الأوساط الإسلامية بعد هذا التصريح (...) وقامت قيامة الأرثوذكس أيضاً من هذا التصريح، وهم الذين يعادون الموارنة التابعين لروما، أكثر مما يعادون المسلمين التابعين لمكة»[1].

مواقف الأرثوذكس والبطريرك حدّاد من الحكم الفيصلي لا يمكن فهمها إذاً من دون التنبّه إلى أجواء العداوة المارونية-الأرثوذكسية السائدة. ويخلص الرياشي في روايته إلى:«وكان بطريرك الأرثوذكس بالشام، أكثر عداءً للنفوذ الفرنسي، من المفتي المسلم فيها»[2].

ولوحة المنافسة، بل والعداوة بين الموارنة والأرثوذكس هذه، والتي يرسمها رياشي لنا، تبدو أساسية وضرورية لفهم موضوع بحثنا وجوهره والذي يتركّز على الصراع على الخيارات والانتماء بين لبنان الكبير أو الدولة الشريفية الكبرى التي كانت تشكّل تهديداً حقيقياً للبنان بالابتلاع.

تاريخ طويل من الحزازات والكيد

إنه تاريخ تنافس وحزازات قديم. ولعلّه من ثوابت تاريخ المسيحيين التعيس في هذا المشرق. وقد عرضنا لذلك في دراستنا "عهود أهل الذمة"[3] إذ كان الصراع بين المسيحيين سبباً أساسياً

1 - م.ن.
2 - م.ن.
3 - صليبا، د. لويس، عهود أهل الذمة نصوص ودروس، دراسة وتحقيق لكتاب أسفار الأسرار لصليبا بن يوحنا الموصلي (ت 1332 م)، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبلون، ط 1، 2012، ص 123-124.

في سقوط الولايات البيزنطية والمدن بأيدي الغزاة العرب أواخر النصف الأول من القرن السابع م. وكان المسيحيون من مخالفي العقيدة البيزنطية يرفعون شعار "الكل ما عدا بيزنطية" Tout mais pas Byzance. ففتحوا أسوار المدن بوجه الغزاة نكاية بالبيزنطيين متوهّمين أن القادمين الجدد سيخلّصوهم منهم[1].

ونقلنا في مصنّفنا المذكور قول المؤرّخين المسلمين:«متى اجتمع عشرة نصارى، فإنهم يخرجون بأحد عشر رأياً مختلفاً»[2].

ومأساة النزاعات والنكايات هذه تتكرّر في كل حقبات تاريخ المسيحيين في المشرق، وهذا ما يهمّنا في دراستنا هنا. فوضعها في رقعة الضوء يساعد في فهم خلفيات النزاع الماروني - الأرثوذكسي على نشأة الكيان وهويته (1918-1920). فلهذا النزاع سوابق تاريخية عديدة تجعل منه مجرّد حلقة في سلسلة طويلة معقّدة.

وتاريخ الموارنة والروم تحت حكم العثمانيين حافل بالصراعات. وكثيراً ما كان الروم يحالفون الأتراك ضدّ الموارنة. وسنذكر على ذلك بعض الأمثلة.

الروم يسعون للقبض على بطرك الموارنة

عام 1726 جعل مشائخ آل عازار زعماء الكورة الأرثوذكس من أنفسهم أدلّة للجنود الأتراك، في الاقتحامات التي كان أولئك

1 - م.ن، ص 123.
2 - م. ن.

المشايخ قد أثاروها بأنفسهم بغية القبض على البطريرك يعقوب عوّاد وإرغامه على التماس فرمان التثبيت [من الباب العالي]فاختبأ الهارب [البطريرك] في مغائر قاديشا، ونجا من قبضتهم. [..] وكان المشايخ [آل عازار] ينقسمون مجموعات، يرأس كلاً منها واحداً منهم، في سعيها إلى العثور على البطريرك..»[1].

ويروي العلامة المطران جرمانوس فرحات المعاصر لهذه الأحداث في تاريخه عن هذا الحدث ما يلي:«وفي سنة 1726 [...] أرسلت الحكومة تطلب البطريرك يعقوب عوّاد. وأول من شدّد بهذه الأمور جماعة الملكيين [روم أرثوذكس] من الكورة ومن عائلة بيت العازار. وهم صعدوا إلى الجبّة برفقة الدولة. وافترقوا ثلاث فرق»[2].

ويروي مؤرخ آخر معاصر للحدث هو الأب أغوسطين زندا (كان حياً عام 1757):«سنة 1726 (...) فصار للباشا سبب وتحرّك (...) إلى مسك البطرك يعقوب (...) وكانوا المشدّين معه بهذه الأحوال شدّاً زايداً جماعة الملكية (الروم الأرثوذكس) من الكورة، ومنهم عيلة تسمّى بيت العازار»[3].

---

1 - سلهب، نصري، م.س، ص 44-45 نقلاً توما اللبودي، (1735)، II، 552.

2 - فهد، بطرس، بطاركة الموارنة وأساقفتهم، القرن 18، بيروت، دار لحد خاطر، ط1، 1985، ص 137.

3 - زنده، الأب أغوسطين، التاريخ اللبناني (1714-1728)، تحقيق الأب جوزف قزي، الكسليك، جامعة الروح القدس، ط1، 1988، ص 39-40.

الروم يشاركون في مذابح 1841

وإثر مجازر 1841 قرّر الباب العالي في 1842/12/27 تقسيم جبل لبنان إلى قائمقاميتين واحدة للدروز وأخرى للنصارى. وعيّنت على رأس قائمقامية النصارى الأمير حيدر أبي اللمع الماروني. وعندما علم الروم الأرثوذكس بالأمر أعلنوا رفضهم لذلك وطالبوا، مدعومين من قنصل روسيا، بإنشاء قائمقامية ثالثة خاصة بهم في الكورة.

وقد أدّى رفضهم إلى تعديل مرسوم القائمقام، فأصبح يدعى قائمقام الموارنة بدلاً من قائمقام النصارى، وإلى سلخ الكورة وجبيل (مع الفتوح والبترون وجبة بشرّي) عن القائمقامية المارونية[1].

وبعد مراجعات طويلة للبطريرك الماروني المدعوم من قنصل فرنسا، أعيدت المناطق الأربع (جبيل والفتوح والبترون وجبّة بشرّي) إلى القائمقامية المارونية وذلك بقرار صدر في 1843/07/14. ولكن بقيت الكورة ذات الأكثرية الأرثوذكسية تابعة لولاية طرابلس[2].

وكانت حجّة قنصل روسيا قسطنطين بازيلي في طلب فصل الروم عن قائمقامية النصارى:«أن أتباعه الروم بينهم وبين الموارنة عداء استحكمت حلقاته يوم وقفوا إلى جانب الدروز

---

1 - ترحيني، أحمد، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، دراسة مقارنة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1981، ص55-56.

2 - ترحيني، م. س، ص 56-57.

في أحداث 1841»[1][2].

أهي حجّة يؤخذ بها؟!

يكفي أنها تضع الإصبع على الجرح.

فتاريخ المسيحيين في لبنان والمشرق عموماً في غالبيته تاريخ حزازات ونزاعات وانشقاقات... وصراعات ممّا أدّى إلى تراجع مستمرّ لدورهم وحضورهم. وما حصل سنة 1841 ليس سوى حلقة من سلسلة أحداث طويلة... سابقة ولاحقة.

روم مرجعيون يرفضون الانضمام إلى المتصرفية

ومثل ثالث في السياق عينه يعود إلى العام 1861.

فبعد مذابح 1860 المريعة، والتي ذهب ضحيّتها المسيحيون بمختلف طوائفهم في جبل لبنان والبقاع ودمشق. تدخّلت فرنسا ودول أوروبية أخرى وأرسلت حملة عسكرية إلى لبنان وطالبت بجعل لبنان ولاية مسيحية مستقلّة تضمّ المناطق المسيحيّة، وهو ما عرف بعدها بـ متصرفية جبل لبنان

ويروي لنا سلام الراسي[3] حافظ التراث الشعبي والروايات

---

1 - إسماعيل، عادل، عهد الفوضى والإضطرابات، ضمن لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت، منشورات مركز الحريري الثقافي، ط1، 1993، ج2، فصل 10، ص 356.

2 - ترحيني، م. س، ص 56.

3 - سلام الراسي (ت 2003) لقب شيخ الأدب الشعبي. ولد في قرية إبل السقي في مرجعيون عمل في الوظيفة العامة عشرين عاماً. انصرف في الستين من عمره إلى جمع التراث الشعبي، فراح يكتب فيه ويحاضر وأصدر نحو عشرين مؤلفاً لاقت رواجاً كبيراً لغنى مضمونها وظرافة

الشعبية اللبنانية الحدث التاريخي المعبّر التالي:«ونشطت في ذلك الوقت (1861) حركات التكتّل بين المسيحيين، ودعي حينذاك أهالي القرى المسيحية في منطقة مرجعيون للمطالبة بالانضمام إلى الوطن المسيحي المنشود. وعقد لهذه الغاية مؤتمر ضمّ وجهاء النصارى في منطقة مرجعيون، وبعد تبادل وجهات النظر اتفقوا على أن تكون الكلمة النهائية بالموضوع للحاجّ شحادة غلمية أحد أذكياء الرجال في ذلك الزمان. فوقف وقال:"التركي ولا بكركي". فصارت عبارته هذه من الأقوال المأثورة»[1].

ويختم الراسي مستخلصاً ومستعبراً من هذه الواقعة: «وهكذا فضّل نصارى مرجعيون، وجلّهم من الروم الأرثوذكس، أن يبقوا من رعايا ولاية بيروت التركية، على أن يصيروا من رعايا لبنان المسيحي في عهد المتصرّفية»[2].

"التركي ولا بكركي" ألا يذكّر شعار الروم هذا بشعار أسلافهم "الكلّ ما عدا بيزنطية"؟!

تاريخ حزازات ونكايات وأحقاد لأتباع ديانة عرفت بأنها

أسلوبها. من مؤلفاته: لئلا تضيع 1971، حكي قرايا وحكي سرايا 1976، في الزوايا خبايا 1974، شيح بريح 1978، جود من الموجود 1991، القيل والقال والنظر في عقول الرجال 1993،اقعد أعوج وحكي جالس 1996، أحسن أيامك سماع كلامك 2001.

1 - الراسي، سلام، لئلا تضيع، أحاديث وأحداث جمعتها عن ألسنة الناس، بيروت، مؤسسة نوفل، ط2، 1977، ص 146.

2 - م. ن.

"ديانة المحبة". ويا لها من مفارقة كبرى.

والصراع على لبنان الكبير أو المملكة السورية ليس سوى حلقة من هذا التاريخ، والخيار عينه يتكرّر عند الأفرقاء. فقد آثر غريغوريوس وأبناؤه المملكة الفيصلية حتى لو كانت مملكة وخلافة إسلامية على لبنان الكبير.

النزاع يُستأنف في لبنان الكبير

ويورد الراسي حلقة أخرى من تاريخ النزاع هذا «الموارنة خلال الحروب الصليبية تعاونوا مع الصليبيين، أمّا الأرثوذكس والأرمن والسريان واليعاقبة فقد ناهضوا الصليبيين نكاية بالموارنة»[1].

وحلقة ثالثة تلت لبنان الكبير يرويها الراسي. «وفي سنة 1947، صار إبراهيم عازار، وهو من جزين، نائباً عن الجنوب وكان واسع الطموح بعيد المقاصد. وتربطه رابطة نسب بالشيخ بشارة الخوري، رئيس الجمهورية في ذلك الزمان، فأراد أن يجمع كلمة المسيحيين في الجنوب، وأخذ يمهّد لفصل منطقة مرجعيون الشمالية، والتي تضمّ أكثرية مسيحية وضمّها إلى منطقة جزين.

وشاء إبراهيم عازار أن يستمزج رأي زميله نصّار غلمية بالموضوع، وهو حينئذ من نواب الجنوب، ففطن نصّار لمقاصد زميله نائب جزين وأجاب بكلّ بساطة: أجدادي قالوا لأجدادك سنة الستين "التركي ولا بكركي". وأنا أقول لك الآن باسم مسيحيي قرى منطقة مرجعيون "ربّ ثلاثين، ولا جزين".

1 - م. ن، ص 147.

ورب ثلاثين هذه هي قرية صغيرة من قرى الشيعة في جبل عامل[1].

وهكذا من الغزو الإسلامي - العربي الأول وشعار "الكل ما عدا بيزنطية". إلى الحروب الصليبية ومناهضة الصليبيين نكاية بالموارنة. إلى "التركي ولا بكركي". ورفض الانضمام إلى متصرفية جبل لبنان للسبب عينه. فإلى رفض لبنان الكبير وخيار المملكة الفيصلية للسبب عينه أيضاً وأيضاً فإلى ربّ ثلاثين ولا جزين. مراحل خمس من تاريخ غير مشرّف لمسيحيي المشرق عنوانه الحزازات والنكايات. وقد أودى بهم من وضعية السيد الحاكم إلى الذّمية والتبعية، ولا يزال "الحبل على الجرّار" وفق التعبير الشعبي. ولسنا في بحثنا هذا بصدد الوعظ ولا حتى استخلاص العبر. حسبنا العرض الموضوعي المحايد. ولكن كان لا بدّ لنا من هذا الاستطراد لوضع موضوعنا أي النزاع الماروني - الأرثوذكسي عند نشأة الكيان اللبناني في إطاره التاريخي، لا بل ضمن جذوره القديمة كحلقة في سلسلة طويلة.

نحن هنا أمام فئتين وجماعتين مسيحيتين. واحدة تدعو وتستشرس في الدعوة إلى لبنان الكبير والعمل له. وأخرى تقاوم هذه الدعوة وتعمل على الانضمام إلى سوريا الفيصلية. وعندما ينجح مشروع الفئة الأولى تردّ الثانية بمقولة "لبنان خطأ تاريخي".

وليس هذا الجانب هو الوجه الوحيد من الصراع الذي برز

1 - الراسي، م. س، ص 146-147.

في حقبة 1918-1920 ولا طابعه الأوحد. فثمة فئات أخرى وجماعات ضمّت إلى لبنان الكبير وكانت لها مواقف متمايزة أو رافضة له كالدروز والشيعة والسنة. ولكن هذه المواقف على أهميتها وتأثيرها في الحدث وما تلاه، لا يتعلّق أمر عرضها ودراستها مباشرة بموضوعنا الذي شئنا أن نحصره في جانب واحد هو نزاع الموارنة والروم بل وصراعهم على الكيان اللبناني نشأة وهوية وانتماء.

الجنرال الفرنسي غوييي Goybet جالساً في أرض معركة ميسلون 1920/07/24

باب 1

فصل 4

لبنان الكبير: الخيار الماروني

مواضيع فصل 4 باب 1:

المتصرّفية تُحرم من السهول والمرافئ

- البحث عن الأمن الغذائي بعد الهجرة والمجاعة
- لا معنى لتوسيع الحدود من دون الاستقلال
- المهاجرون أوّل المطالبين بالاستقلال وتوسيع الحدود

المتصرّفية تُحرم من السهول والمرافئ

كانت مطالب الموارنة وغالبية سكان متصرّفية جبل لبنان ومجلس المتصرفية تتلخّص بل وتكاد تنحصر باثنين: الاستقلال وتوسيع الحدود. أما الحماية أو الانتداب الفرنسي فكانت لضمان الحصول على المطلبين.

لمَ هذا التشبّث بتوسيع حدود المتصرّفية؟! كانت قناعة الموارنة وسائر أهل المتصرفية أن حدود هذه الأخيرة ليست حدود لبنان الطبيعية ولا التاريخية، وأنها قد حرمت ظلماً من امتدادات طبيعية لها. يروي المؤرّخ أسد رستم المتخصّص في تاريخ متصرفية جبل لبنان عن المفاوضات التي أسفرت إلى إنشاء هذه الأخيرة وتحديد حدودها:«وقاوم دفرون [المندوب الإنكليزي] وزميله العثماني كل محاولة للاحتفاظ بحدود لبنان التاريخية، فسلخا عنه البقاع ووادي التيم ومرجعيون وبيروت، وقالا بأن هذه الأخيرة ثغر سورية والعراق وبالتالي فلا بدّ من إبقائها على صلة طبيعية بهذه الأقاليم. وتبنّت اللجنة معظم ما أعدّه المندوب البريطاني»[1].

وهذا الحيف اللاحق بالمتصرفية انعكس سلباً على ظروفها

1- رستم، د. أسد، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت، دار النهار، ط1، 1973، ص 34.

الاجتماعية والاقتصادية، فحرمها من مقوّمات الاستمرار والبقاء، فساءت أوضاعها وعمد أهلها إلى الهجرة إلى الأميركيتين، أو إلى النزوح إلى المدن. وعن هذا النزوح الكثيف يقول الباحث المؤرخ مائير زامير:«بدون مركز اقتصادي مديني خاص به اعتمد الجبل اعتماداً كاملاً على بيروت التي كان اقتصادها مرتبطاً كلّياً به. فترك الآلاف من سكّان الجبل قراهم، للاستفادة من الفرص التي أتاحها اقتصاد بيروت المزدهر. وقد أدّى فقدان الغرف التجارية في الجبل، إلى ازدياد اعتماده المطلق على المدينة»[1].

وعن الهجرة من المتصرفية يقول زامير:«وازدادت الهجرة من الجبل، بعد سنة 1860، بسبب قلة الأراضي وفقدان الفرص الاقتصادية، والزيادة المطّردة في عدد السكّان. وحتى نهاية القرن كان الآلاف من المسيحيين قد تركوا الجبل وهاجروا إلى مصر وسوريا والولايات المتحدة وأميركا الجنوبية وإفريقيا الغربية. وبين سنة 1900 و1914 قدّر عدد المهاجرين بنحو مئة ألف، وقد مثل هذا العدد ربع السكّان في ذلك الوقت»[2].

أن تفقد المتصرفية ربع سكّانها في 15 عاماً فهذا نزف بشري يعني الموت بالنهاية. وهو لوحده كافٍ لفهم دوافع الإلحاح في الطلب بتوسيع أراضيها. لقد بدت هذه المتصرفية في أواخر عهدها وما قبل الحرب الكونية غير قابلة للبقاء والحياة.

1- Zamir, op. cit, p 15.

2- I bid.

البحث عن الأمن الغذائي بعد الهجرة والمجاعة

وإلى ذلك لا يغربنّ عن بالنا أن شبح المجاعة كان لما يزال جاثماً في مخيّلة اللبنانيين. فقد فَقَدَ جبل لبنان في الحرب الكونية أكثر من مئتي ألف نسمة ذهبوا ضحية الجوع، كما أكّد تقرير للدكتور جوزف زيادة يعود إلى تلك الحقبة[1].

وممّا جاء في تقرير د. زيادة عن المجاعة الحادثة المعبّرة التالية:«مدينة البترون الساحلية كان تعدادها خمسة آلاف مواطن، أصبحت تعدّ ألفين فقط مع نهاية عام 1916. هنا توقّفت يوماً شاحنة محمّلة بالجثث من بينها طفل عمره 12 عاماً يتحرّك، والسبب أن سائق الشاحنة لا يستطيع المرور في اليوم التالي كما فسّر ذلك بنفسه»[2].

وشبح المجاعة هذه جعل لبنانيو المتصرفية في شهوة دائمة إلى القمح، وبحث دؤوب عن مصادره في السهول. وكان البطريرك الحويك بحسّه الجيوبوليتيكي يتفهّم هذه الحاجة الملحّة فيقول ويكرّر:«إن الجبال الجرداء عاجزة عن تأمين رزق السكّان»[3]. ولأنه يشدّد على مبدأ الاكتفاء الذاتي للسكّان، ولاسيما في مجال الأمن الغذائي وبالأخصّ مادة القمح، فقد أكّد

1 - ضاهر، مسعود، تاريخ لبنان الإجتماعي 1914-1926، بيروت، دار المطبوعات الشرقية، ط2، 1984، ص 20.

2 - مراد، سعيد، الحركة الوحدوية في لبنان بين الحربين العالميتين 1914-1946، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986، ص 103.

3 - خليفة، د. عصام، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، 1997، ص 7.

على أهمية السهول للدولة اللبنانية المزمع إعلانها (عكار، بعلبك، البقاع). كما شدّد على أهمية المنافذ البحرية لصمود الدولة، لاسيما بعد أن حوصرت متصرّفية الجبل في الحرب ولم تجد منفذاً ولا متنفّساً في البحر. فطالب بضمّ صور وصيدا وبيروت وطرابلس إليها.

لا معنى لتوسيع الحدود من دون الاستقلال

ولا يقلّ أهمية وخطراً عن مطلب توسيع الأراضي وإعادة ما سلب مطلب آخر هو الاستقلال، فكلاهما كانا يسيران جنباً إلى جنب. وقد حاول المفوّض الفرنسي الأول جان فرانسوا بيكو أن يقنع البطريرك الحويك والموارنة بالموافقة على إلحاق لبنان بحكومة دمشق العربية لما في ذلك من حلّ لمشكلة متصرفية الجبل المميتة. ويروي مؤرّخ سيرة البطريرك الحويك ومرافقه الأب إبراهيم حرفوش عن عرض بيكو وجواب البطرك الماروني ما يلي:«ثم بدأ بيكو يزيّن للبطريرك سهول سوريا وخصب تربتها إلخ .. ولمّا أحرج بيكو موقف البطريرك، أجابه رافضاً وعبّر المطران يوسف دريان[1] عن فكر البطريرك بهذه العبارة:

1 - المطران يوسف دريان (1861-1920) النائب البطريركي في مصر. عالم ومؤرخ. ولد في عشقوت/كسروان. دخل الرهبانية المارونية الحلبية. رسم كاهنا 1888. عمل سكرتيراً للبطرك بولس مسعد. عيّن نائباً بطريركياً على مصر 1904. من مؤلفاته: البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة 1904. أعادت طباعته دار بيبليون. لباب البراهين الجلية في حقيقة أمر الطائفة المارونية 1912. أعادت طباعته دار بيبليون، نبذة

«لموتنا في ظلّ صخورنا خير لنا من الانضمام إلى دمشق»[1].

ويختم حرفوش روايته بما أسرّه إليه البطريرك الحويك شخصياً عن هذا الإجتماع:«وروى لنا مترجمنا أنه قال بالإفرنسية Un petit coin:«إن قرنة صغيرة في لبنان أحبّ إلينا من سهول سوريا»[2].

كان الموارنة أمام معادلة مرّة عبّر عنها المؤرخ والسياسي يوسف السودا[3] بالصيغة الموجزة والبليغة التالية:

تاريخية في أصل الطائفة المارونية 1916 أعادت طباعته دار بيبليون. مستقبل لبنان المقرّر 1919. أجوبة عن 19 سؤالاً لأحد مشايخ الإسلام عن الدين المسيحي (مخطوط).

1 - حرفوش، م. س، ص 591-592.

2 - م. ن، ص 592.

3 - يوسف السودا: (1891-1969). ولد في بكفيا وفيها تلقّى علومه الإبتدائية. وتخرّج في الكلية اليسوعية. وذهب إلى مصر وأحرز شهادة مدرسة الحقوق ورافع في المحاكم المختلطة. ووجّه نحو السياسة همّه، فخدم القضية اللبنانية وسعى إلى استقلال لبنان وتوسيع أراضيه. وعاد إلى لبنان 1921. فأسّس فرقة الكشافة في بكفيا بالاشتراك مع عبدالله فارس سنة 1925. ثم أنشأ حزب المحافظين وترأسه (1926-1927). انتخب نائباً في مجلس النواب خلفاً لنعوم لبكي. لكن السلطة الانتدابية حلّت المجلس، فعيّن ثانية في عهد حكومة الشيخ بشارة الخوري 1930. وكان إلى جانب السياسة يمارس المحاماة والصحافة في جريدته الراية التي أنشأها سنة 1926 واستمرّت إلى 1928. وفي سنة 1946 عيّن سفيراً للبنان في البرازيل حيث بقي حتى سنة 1952 حين نقل سفيراً لدى الفاتيكان (1953-1955). وبعد أحداث 1958 عيّن وزيراً في حكومة رشيد كرامي الأولى إلى جانب فيليب تقلا وحسين العويني. من كتبه: الامتيازات

«لبنان الصغير موت اقتصادي، الاتحاد مع سورية موت سياسي، نريد لبنان الكبير ليحيا، ونريده بلا وحدة ليكون مستقلا»[1].

ويشرح يوسف السودا في كتاب له صدر إبّان مفاوضات مؤتمر الصلح في فرساي 1918 مرارة هذين الخيارين:«أما تخيير لبنان بين أن يظلّ مبتوراً ويستقلّ، وبين أن تعاد إليه حدوده ويحرم استقلاله فتخيير الحدث بن ظالم رسول المنذر لصاحب الأبلق بين الغدر والثكل»[2].

وكان بولس نجيم، وقبل السودا بعقد من الزمن، قد رأى علاقة جدلية بين الاستقلال وتوسيع الحدود، فطرح في كتابه الفرنسي الصادر في باريس 1908 المعادلة التالية:«فقط لبنان بحدود أوسع، يستطيع البقاء كدولة مستقلّة»[3]. وطالب بوجوب «انتزاعه [لبنان] من البؤس ومنحه إمكانية الحياة والازدهار، فالحق في الحياة والبقاء لا يعود فقط إلى الأفراد، بل

→ الأجنبية، بيروت 1923. في سبيل لبنان الإسكندرية 1919. المسألة اللبنانية، القاهرة 1910. في سبيل الاستقلال بيروت 1967. مذكّرات يوسف السودا.

1 - السودا، يوسف، في سبيل الإستقلال، في وادي النيل 1906-1922، بيروت، دار الريحاني، ط1، 1967، ص 347.

2 - السودا، يوسف، في سبيل لبنان، بيروت، منشورات لحد خاطر، ط3 1988، (ط1، 1918)، ص 328.

3- Zamir, op. cit, p 15.

وإلى الأوطان كذلك»[1] وكانت معادلة نجيم هذه:«قد تحوّلت قاعدة للحجج المسيحية في إقامة لبنان الكبير»[2].

المهاجرون أوّل المطالبين بالاستقلال وتوسيع الحدود

كان الموارنة إذاً، ومعهم سائر مسيحيي المتصرفية يصرّون على هذين المطلبين المترابطين: الاستقلال وتوسيع الحدود. واللافت أن المهاجرين كانوا أكثر من المقيمين إصراراً وتشبّثاً بهما. وهم الذين عانوا من الضيقة الاقتصادية في المتصرفية، واضطروا إلى ترك وطنهم مرغمين.

ولا يتيح المجال لنا للتوسّع في عرض مواقف المهاجرين اللبنانيين المنتشرين في أكثر أقطار الأرض، ونكتفي بذكر موقف الجالية اللبنانية في الأرجنتين، على سبيل المثال. يقول صديقنا د. عبدالله الملاّح الذي درس هذا الموضوع وخصّه ببحث معمّق[3]:«اعتقد السواد الأعظم من أبناء الجالية اللبنانية في الأرجنتين أن حياة لبنان تتوقّف على مطلبين أساسيين:«توسيع الحدود والمحافظة على حقوق أبنائه وامتيازاتهم، وبدونهما سيهبط السكان إلى أدنى درجات الإحباط والتعاسة والبؤس»[4].

1- Ibid.

2- Ibid.

3 - الملاح، عبدالله، موقف الجالية اللبنانية في الأرجنتين من لبنان الكبير 1918-1920، ضمن دولة لبنان الكبير 1920-1996، بيروت، الجامعة اللبنانية، ط1، 1999، ص 311-323.

4 - الملاح، م. س، ص 323، نقلاً عن جريدة المرسل الصادرة في الأرجنتين، عدد 389، تاريخ 1918/10/19.

ويؤكّد الملاح أن المهاجرين:«كانوا أكثر حماسةً للبنان الكبير من اللبنانيين المقيمين، فردّدوا عالياً: مات لبنان الصغير، عاش لبنان الكبير»[1].

وينقل هذا المؤرخ عن جريدة المرسل[2] ردّة فعل الجالية اللبنانية في الأرجنتين وقول أبنائها:«مات لبنان الضيّق بأراضيه، الضيّق بموارده، الصغير بعدد سكانه، الصغير بمساحته. وقام لبنان الكبير بموارده، الوفير بعدد سكّانه، الواسع بمساحته. فخرج بذلك من سترة الريب إلى صحن اليقين. وهكذا اطمأنت النفوس واستكانت القلوب، وبزغت أنوار جديدة، منحت الأهلين غبطة وقوّة وآمالاً بلبنان الغد، أميركا الجديدة»[3].

وهذا غيض من فيض المواقف المهجرية المرحّبة بإعلان لبنان الكبير والمصفّقة لهذا الحدث المنتظر والمنشود منذ أيام المتصرفية.

---

1 - م. ن.

2 - أسّس هذه الجريدة الأب يوحنا غصن رئيس المرسلين اللبنانيين في الأرجنتين. صدر العدد الأول منها في العاصمة الأرجنتينية بوانس أيرس في 1913/05/15.

3 - الملاح، م. س، ص 323، نقلاً عن جريدة المرسل عدد 472، في 1919/09/24.

باب 2

معارضو خيار لبنان الكبير

فصول باب2:

- فصل1: سليمان البستاني يحذّر الحويك من الخطأ التاريخي.
- فصل2: روبير دوكيه رأس المعارضين لضمّ المدن الساحلية.
- فصل3: جبران: ماذا يبقى من لبنانكم.
- فصل4: كاترو: لبنان الكبير خطأ سيكولوجي.

مدخل

هل فطن الموارنة وبطريركهم إلى التداعيات والنتائج الخطيرة الناجمة عن خيار لبنان الكبير؟!

وهل كانوا مدركين، في وعيهم ولاوعيهم في آن، أنهم مع توسيع حدود المتصرفية سيتحوّلون من أكثرية ساحقة إلى أغلبية ضئيلة[1] قد تنقلب أقلية بعد زمن يسير؟! هل دخلت هذه الاحتمالات جديّاً في حساباتهم؟

عرضنا لسعيهم الحثيث واستشراسهم في سبيل استقلال لبنان وتوسيع حدوده. ولكن مسألة الحدود كانت دونها محاذير وذيول عديدة ليس أقلّها أن الكيان المزمع إنشائه سيضمّ مجموعات دينية وثقافية غير متجانسة. وهذا ما أدّى إلى تفجير الأوضاع مراراً في لبنان: 1958، 1969، والحرب الأهلية الطويلة 1975-1990. ولا يزال هذا الكيان المولود عام 1920 يعاني إلى اليوم من هذه الذيول.

---

1 - كان الموارنة لوحدهم يشكلون 58% من مجموع سكّان المتصرفية العام 1913. ويقول أنطوان خير في ذلك:«هذه الأكثرية المسيحية والرجحان الماروني أوحيا لبعض اللبنانيين مع نهاية الحرب العالمية الأولى فكرة الطابع المميّز الذي يجب أن يرتديه لبنان بنظرهم».

Khair Antoine, le Moutaçarrifiat du Mont Liban, Beyrouth, 1973,p. 18.

هل خطر ببال الحويّك وغيره أن ما يسعون إليه كيان متفجّر يحمل بداخله وتركيبته أسباب صراع مستمرّ أو حتى تفجّر دائم؟

سؤال تصعب الإجابة عنه، وسنعود لاحقاً إلى طرحه. ولكن بعض المراقبين والمحنّكين حذّروا البطريرك والموارنة من عواقب خيارهم هذا. ونبّهوهم إلى ما سيجرّ من ذيول. ونحن في هذه الباب سنتوقّف عند آراء ومواقف من يمكن تسميتهم المعارضين من الداخل، أي الذين عارضوا إنشاء لبنان الكبير من طرفي منفّذي هذا المشروع: أي الموارنة والفرنسيين. ولا يختلف اثنان على أن إعلان لبنان الكبير 1920 كان وراءه حصراً وتحديداً هذان الطرفان.

ولا يتّسع بنا المقام لعرض آراء كل الموارنة ولا كل الفرنسيين ممّن عارض خيار لبنان الكبير. لذا سنكتفي بنماذج عن كل منهما.



المجاعة في جبل لبنان 1914 – 1918

باب 2

فصل 1

سليمان البستاني يحذر الحويك من الخطأ التاريخي

مواضيع فصل 1 باب 2:

ستندم على لبنان الكبير بعد 50 سنة

الحويك والبستاني: علاقة وطيدة

البستاني يحذّر الحويك قبل الحرب

لبنان الكبير خطأ تاريخي



الجنرال غورو معلن لبنان الكبير

ستندم على لبنان الكبير بعد 50 سنة

في كتابه الفرنسي: مسألة لبنان، يروي المؤرخ فؤاد إفرام البستاني[1] الحدث المعبّر التالي:«في باريس (1919) التقى البطريرك الماروني [الحويك] رجل دولة ماروني مخضرم كان قد اعتزل السياسة في السلطنة العثمانية، وهو عارف وخبير في التطلّعات الدائمة للعرب المسلمين في الشرق الأوسط، فحذّر البطريرك من خطر توسيع الحدود اللبنانية إلى ما وراء المناطق المسيحية، وضمّ جماعات إلى لبنان تخلّ بتوازنه. فالمسلمون في هذا اللبنان الجديد عندما سيعتبرون أنفسهم يوماً أكثرية، فسيعمدون، وبمساعدة إخوانهم من الدول المجاورة، إلى تحويل لبنان إلى دولة إسلامية تيوقراطية، ويضعونه تحت وصاية دولة إسلامية كبرى. ولكن غبطته لم يلتفت إلى نصائحه، وكان واثقاً من ديمومة صداقة فرنسا وحمايتها.

---

1 - فؤاد إفرام البستاني (1906-1994) مؤرخ وأديب. رئيس الجامعة اللبنانية من 1953 إلى 1970. له دائرة المعارف في 15 جزء. سلسلة الروائع في 60 جزء في تاريخ الأدب العربي. وفي تاريخ لبنان: على عهد الأمير 1926، لبنان مباحث علمية واجتماعية (تحقيق) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين (تحقيق)، تاريخ لبنان التمهيدي المصوّر 1939. مذكّرات رستم باز (تحقيق)، معاني الأيام في 5 أجزاء. أحاديث الشهور 1973، في بلد الأمير 1982.

ستندم يا صاحب الغبطة على هذه المبادرة في أقلّ من خمسين سنة "(قال رجل الدولة)"»[1].

ويختم فؤاد إفرام روايته بالتعقيب التالي:«ولكن لا البطريرك، ولا السياسي المشهور، عاش وللأسف ليشهد تحقّق النبوءة. وذلك من حسن حظهما، ومن سوء حظنا»[2].

من هو هذا السياسي المخضرم الذي لم يفصح البستاني عن اسمه؟ ولِمَ أبقى الإسم مخفياً ؟!

الحويك والبستاني: علاقة وطيدة

من الأوصاف التي ذكرها الكاتب المؤرّخ نكاد نحزر هوية السياسي المقصود:«رجل دولة ماروني مخضرم كان قد اعتزل السياسة في السلطنة العثمانية».

إنه دون شكّ قريبه ونسيبه سليمان البستاني[3]. ويتأكّد لنا

1- Boustani, Fouad E., Le Problème du Liban, Beyrouth, Editions Ad-D à'irah, 1978, p. 36.

2- Ibid.

3 - سليمان البستاني (1856-1925) هو سليمان بن خطّار بن سلوم البستاني، رجل سياسة وعلم وأديب وشاعر. ولد في قرية بكشتين قرب الدبّية في قضاء الشوف بلبنان. دخل المدرسة الوطنية التي أسّسها نسيبه المعلّم بطرس، وبقي فيها ثماني سنوات متضلّعاً من العربية والفرنسية والإنكليزية إلى جانب سائر العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية. احترف التعليم مدّة بتشجيع من نسيبه، وكتب مقالات في صحفه: الجنان والجنة والجنينة. ثم سافر إلى البصرة حيث أنشأ مدرسة، فانتقل إلى بغداد التي بقي فيها سنوات ثمانٍ منصرفاً إلى أعمال التجارة. وبعد ذلك ←

ذلك ممّا نذكره عنه في الهامش:

فسليمان البستاني كان يومها مقيماً في سويسرا، وقد أبدى اهتماماً ملحوظاً بمؤتمر الصلح الذي جاء الحويك للمشاركة فيه، فأرسل إليه مذكّرة. وفضلاً عن كل ذلك فقد كان على علاقة

→ رجع إلى بيروت، وزار عدداً من البلدان متنقّلاً بين الشرق حتى الهند والغرب من أوروبا حتى أميركا حيث تولّى إدارة القسم العثماني في معرض شيكاغو سنة 1893. وأنشأ آنذاك مجلّة تركية مدة المعرض باسم شيكاغو كانت أول وآخر صحيفة تركية أميركية. وعاد بعدئذٍ إلى مصر سنة 1896، فدعي للإسهام في كتابة دائرة المعارف للبستاني، فشارك في تأليف الجزئين العاشر والحادي عشر. وفي أحد أسفاره إلى الآستانة درس اليونانية، ما ساعده على ترجمة إلياذة هوميروس. ثم انتخب عضواً عن ولاية بيروت في مجلس المبعوثان سنة 1908. فقام بمهمّات جلّى رسمية مثّل فيها الدولة العثمانية في أوروبا. ثم عهد إليه السلطان محمد رشاد بوزارة التجارة والزراعة العام 1913. إلا أنه استقال، مع بداية الحرب العالمية الأولى، احتجاجاً على السياسة العثمانية التي كان قد نبّه السلطان والصدر الأعظم على مخاطرها، ونصحهما بعدم دخول الحرب. وسافر إلى سويسرا حيث أقام مدة خمس سنوات. ذهب بعدها إلى مصر، فأصيب بمرض اقتضاه أن يذهب إلى الولايات المتحدة الأميركية للمعالجة. واشتهر له على إثر مرضه قصيدتان رائعتان هما الداء والشفاء. توفي في الولايات المتحدة، ونقل جثمانه إلى بيروت، ودفن في مسقط رأسه. له: إلياذة هوميروس (ترجمها عن اليونانية شعراً، القاهرة 1904)، 1260 ص، عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده 1908، مذكّرة إلى مؤتمر الصلح (الهلال 30/17-20). رسائل العلامة سليمان أفندي البستاني والدكتور شبلي الشميل إلى جمعية الاتحاد السوري في نيويورك، نيويورك 1909.

وطيدة بالبطريرك الحويك منذ كان مقيماً في الإستانة.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى العلاقة المتينة التي كانت تربط الحويك مذ كان مطراناً بسليمان البستاني. فقد زار المطران الياس الحويك الآستانة موفداً من البطريرك الماروني يوحنا الحاج، وقابل الصدر الأعظم جواد باشا في 1891/12/27 وصحبه في هذه المقابلة سليمان البستاني[1]. وحدثه الصدر الأعظم في أمر طلب الفرمان للبطريرك «فاعتذر إليه المطران بلطف بأنه لم يحضر إلى الآستانة بخصوص الفرمان، وأنه لا تفويض معه بذلك، وهذا لم يثنه عن إبداء كل آرائه في ما يتعلّق باستقلال الطائفة المارونية وانعتاقها من الفرمان، وتمسّك بطاركتها بهذا الاستقلال»[2].

وإثر رفض البطريرك الحاج والمطران الحويك طلب الفرمان، يضيف مؤرّخ سيرة الحويك:«عقد يوسف الياس حوا وسليمان البستاني وسمعان الياس الدحداح اجتماعاً وعمدوا إلى رفع تقرير للسلطان»[3].

ولسنا نورد كل هذه التفاصيل إلا لنؤكّد على أن علاقة البستاني بالحويك قديمة ومتينة وتعود إلى ما قبل تبطرك هذا الأخير.

---

1 - حرفوش، م. س، ص 193.

2 - م. ن، ص 195.

3 - م. ن، ص 204.

البستاني يحذّر الحويك قبل الحرب

وعند نشوب الحرب العالمية الأولى، وقبل أن تدخلها الدولة العثمانية عمدت إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية، فكتب سليمان البستاني، وكان يومها وزيراً للتجارة والزراعة، رسالة إلى صديقه البطريرك الحويك يعلمه بذلك ويحذّره وينبّهه من مغبّة لجوء الفارّين من الجندية إلى جبل لبنان. وجاء في الرسالة الصادرة عن وزارة الزراعة في الأستانة في 1914/09/13:

أيها السيد المبجّل:

بعد استمداد البركة والدعا الميمون، أعرض أن الباعث لتحريره أمر جلل أستميل إليه نظر غبطتكم: علمتم بلا ريب ما كان من إلغاء الامتيازات الأجنبية وأن الدولة مصمّمة على إنفاذ قرار الحكومة بهذا الشأن مهما بدا من الاعتراض. على أن هذا القرار لا يشمل، بوجه من الوجوه، الأمور المقرّرة بمعاهدات دولية خاصة كإدارة الديون العمومية، ونظام جبل لبنان. فليس في نيّة الحكومة أن تمسّها بإلغاء أو تعديل. ومع هذا فإني لا أخفي على غبطتكم أني أخشى كثيراً أن يبدو من اللبنانيين ما يضطّر الحكومة إلى العبث بنظام الجبل. وليس في الوقت الحاضر ما يوجب هذه المظنّة، إلا تكاثر الفرّة من الجندية إلى لبنان وعجز حكومة الولايات عن تأثرهم. فإذا لم يقفل اللبنانيون هذا الباب فالعاقبة وبيلة عليهم وعلى الفارّين، إذ تضطّر الحكومة إلى سوق فرق من جنديّتها لاحتلال لبنان. ولا يبعد أن يؤدّي ذلك إلى إلغاء نظامه بتاتاً، أو على الأقلّ إلى

حصول ما يكرهه اللبنانيون وأصدقاؤهم الملتجئون إليهم. هذا ما قصدت إبلاغه إلى غبطتكم بالإيجاز، وأنتم أدرى بالوسائل اللازمة لدفع هذه الغائلة. والأمل بالله وبحكمة غبطتكم أن يستتبّ الأمر على ما ترغبون.

مستمدّ الدعا

ولدكم

سليمان البستاني[1]

تظهر هذه الرسالة مدى تعلّق الوزير العثماني سليمان البستاني بلبنان وحرصه عليه، وخوفه من بعض تداعيات الأحداث على استقلاله، ولنلحظ بعض تعابيره، فهو يسمّي متصرفية الجبل وببساطة "لبنان" فيتحدّث عن "احتلال لبنان"[2] ويسمّي السكان "اللبنانيون".

ومن هذه الرسالة الموجزة والمعبّرة نستطيع أن نستخلص

---

1 - حرفوش، م. س، ص 521-522.

2- كانت مخاوف سليمان البستاني وتوقّعاته في محلّها. فما أن أعلنت الحرب العالمية الأولى، حتى أقدم الجيش التركي على دخول جبل لبنان ليتّخذ من عاليه مركزاً لقيادته (ت2، 1914). وأقدم جمال باشا قائد الفيلق الرابع وذو الصلاحية المطلقة في سوريا، وأحد الثلاثة الكبار في جمعية الاتحاد والترقي (إلى جانب أنور وطلعت) على إلغاء نظام الامتيازات للجبل، وحلّ مجلس إدارة المتصرفية في 1915/03/23. وكانت حجّته في حلّه اعتقاده بوثيق صلات أعضائه منذ انتخابهم بل قبله بقنصليات دول الاتفاق التي أصبحت في الحالة الراهنة دولاً معادية محاربة (نقلاً عن الحكيم يوسف، بيروت ولبنان، م. س، ص 172).

مفهومه للبنان، فمتصرفية الجبل هي لبنان لا أكثر ولا أقل، وهو يعمل كل ما بوسعه للحفاظ على نظامها ودرئها من خطر "الاحتلال" العثماني وعواقبه. فهل نعجب بعد ذلك أن يكون قد أسدى للبطريرك الحويك الآتي للمشاركة في مؤتمر الصلح/فرساي 1919 النصيحة بالعزوف عن المطالبة بتوسيع حدود المتصرّفية؟!

أياً يكن فقد أجاب الحويك على رسالة البستاني بمكتوب مؤرخ في 1914/10/3 «يشكره ويثني على تفانيه في سبيل مصلحة **الوطن العزيز**»[1].

لبنان الكبير خطأ تاريخي

هذه المعطيات وغيرها تؤكّد أن السياسي الماروني المعتزل العمل السياسي في الدولة العثمانية والذي قابل البطريرك الحويك في باريس هو سليمان البستاني حصراً وتحديداً[2] وهو الذي حذّره ونصحه بتجنّب هذا "الخطأ" التاريخي. وقد عنون فؤاد إفرام البستاني الفصل الذي روى فيه هذه الحادثة:«في خطأ لبنان الكبير»[3].

فهل كان سليمان البستاني أول القائلين بأن لبنان الكبير

---

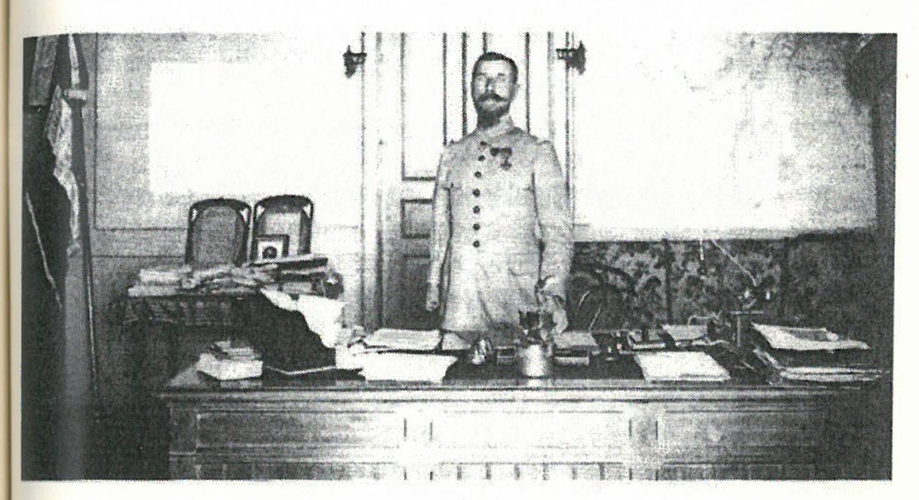
1 - م. ن، ص 522.

2- أكّد لنا ذلك أيضاً د. حارث ابن فؤاد إفرام البستاني في اتصال لنا معه يوم الثلاثاء 2013/09/10.

3- De l'Erreur du Grand-Liban.
Boustani, op. cit, p. 35.

"خطأ تاريخي"؟!.

لعلّه أول من حدس بهذا الخطأ وحذّر من الوقوع فيه. ولكنه لم يعلن موقفه هذا جهراً، وهو الابن المحبّ المطيع لبطريركه كما وقّع رسالته إليه وهو لما يزل وزيراً عثمانياً. وممّا لا شك فيه أن مترجم الإلياذة كان ذا رؤية سياسية فطنة وعميقة. وهو في نصيحته للحويك كان وكأنه يقرأ في كتاب الغيب.



الجنرال غورو في مكتبه في السرايا الكبير/بيروت

باب 2

فصل 2

روبير دو كيه رأس المعارضين لضمّ المدن الساحلية

مواضيع فصل 2 باب 2:

دوكيه يعارض ضمّ بيروت وطرابلس

دويلات صغيرة متجانسة دينياً

طرابلس عقدة العقد

فصل طرابلس وفدرالية بين الجبل وبيروت والجنوب

دو كيه يواصل العمل على فصل طرابلس

الموارنة يتصدّون لمشاريع دو كيه

تناقض حادّ في لبنان الكبير يمنع استمراريته

مصلحة فرنسا والمسيحيين في لبنان مسيحيّ الطابع

دوكيه يعارض ضمّ بيروت وطرابلس

تناولنا نموذجاً للمعارضة المارونية للبنان الكبير؛ وفي ما يلي سنعرض لرأي دبلوماسي فرنسي كان أبرز المعارضين للبنان الكبير كما أعلنه غورو في 1920/09/01. إنه روبير دو كيه (1869-1970 Robert de Caix)[1].

---

1 - روبير دو كيه واسمه الكامل Robert de Caix de Saint-Aymour ولد في 1869/02/5. وتوفي في 1970/03/12.

سنة 1900 اتصل دو كيه بـ فيليب برتولو Philippe Berthelot الأمين العام لوزارة الخارجية الفرنسية الذي فتح له أبواب هذه الوزارة (الكي دورسيه). ويعتبر دو كيه من أبرز السياسيين والدبلوماسيين الذين ساهموا بإحلال الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا. وكان رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو قد كلّفه بقضايا الشرق الأوسط والتفاوض مع الأمير فيصل أثناء مؤتمر الصلح في فرساي. وعيّن دو كيه معاوناً أولاً للجنرال غورو المفوّض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا سنة 1919 أي الأمين العام للمفوضية العليا Secretaire général du haut commissariat à Beyrouth.

وكان قد تعرّف إلى غورو سنة 1904. والتقيا مراراً في المغرب في عامي 1911 و1912. وكانت علاقاتهما في البداية ممتازة. وعندما عمل مع غورو معاوناً لم يتوان دو كيه عن الإمساك بملفات مصير لبنان وسوريا، ممّا أجبر رئيسه (غورو) على تذكيره مراراً أنه هو المسؤول عن هذه الأمور. ←

....

وكانت سياسات دو كيه الاستعمارية مناقضة لسياسات فيليب برتولو والمستشرق لويس ماسينيون، وتقوم على إضعاف الحكومة المركزية في دمشق عن طريق تقسيم سوريا إلى عدّة مناطق تتمتّع بالحكم الذاتي، على أن يعتمد نفوذ فرنسا على الأقليات: الموارنة في جبل لبنان والعلويين والدروز. ولم يحفل بما كان يدعو إليه ماسينيون من سياسة ترتكز على التعامل مع الأكثرية العددية. وكان دو كيه قد رفض طروحات فيصل في الوحدة العربية، وكذلك سائر التوجّهات الاتحادية العربية، ثم دعا إلى نظام فدرالي بين لبنان والدول التي أنشأها الانتداب الفرنسي في سوريا. وكان غورو قد قام بتقسيم سوريا خطوطاً إقليمية ومذهبية بناء على نصيحة من دو كيه. توصّل دو كيه العام 1920 (حزيران) إلى هدنة مع مصطفى كمال. ومن الإصلاحات الإدارية والمالية التي يعود الفضل فيها إلى دو كيه إيجاد نقد خاص بسوريا ولبنان بقرار من غورو آذار 1920 وخصّ بإصداره فرع من البنك العثماني سمّي بنك سوريا ولبنان. واستمرّت هذه المؤسسة تصدر النقد اللبناني إلى أن تأسّس مصرف لبنان المركزي العام 1964. ومن الأنظمة الكثيرة التي أدخلها دو كيه على الإدارة اللبنانية قانون الانتخاب والذي عمل به حتى مطلع عهد الإستقلال. والقوانين العقارية التي نظّمت حق الملكية في البلاد. واختار دو كيه من بين خريجي المعاهد الفرنسية في لبنان عدداً من المعاونين، فكوّن منهم أول جهاز إداري للدولة اللبنانية. وقد بقي عدد كبير منهم في المناصب الإدارية طيلة عهد الانتداب، كما بقي بعضهم إلى ما بعد الاستقلال.
عندما استقال الجنرال غورو كمندوبٍ سامٍ، ظنّ دو كيه أنه سيكون خليفته في هذا المنصب. ولكن الحكومة الفرنسية عيّنت الجنرال ويغان مندوباً سامياً. وكان دو كيه قد تولّى منصب المفوض السامي بالوكالة منذ سفر غورو إلى باريس ومن ثم استقالته إلى تعيين ويغان في 1923/04/19. ويروي الأب حرفوش مترجم سيرة البطريرك الحويك أن ويغان تولّى الأمر

ولنسارع بداية ونقل أن دو كيه لم يكن ضدّ توسيع حدود متصرّفية جبل لبنان بالمطلق، وإنما كان يؤثر أن تعطى هذه المتصرّفية الحدّ الأدنى من الأراضي ممّا هو ضروري وملحّ لاستمرارها على أن يبقى نسيجها السكّاني متجانساً وذا طابع مسيحي طاغٍ كما هي حالها قبل الحرب، ومن هذا المنطلق كانت معارضته الشديدة لضمّ مدينتي بيروت وطرابلس، فمن شأن هاتين المدينتين، إذا ضمّتا أن تقلبا المعادلة السكّانية عاجلاً أم آجلاً لصالح المسلمين السنّة. ومذ كان في الخارجية الفرنسية في باريس كان دو كيه أبرز المعارضين لضمّ هاتين المدينتين، وبقي مصرّاً على رأيه عندما نُقل إلى بيروت أميناً عاماً للمفوضية السامية، وكان لآرائه هذه، كما سنرى، تأثير بارز على مواقف رئيس الوزراء الفرنسي ميلّران[1]، ولولا قناعة الجنرال غورو وموقفه الحاسم والمؤيّد لضمّ المدينتين لما كان لبنان الكبير على ما هو عليه. وبقي دو كيه على رأيه هذا حتى بعد قيام لبنان

← بذاته وقصر يد روبير دو كيه وحصر مهمّته الرسمية في وظيفة كاتب السرّ العام. فشق عليه الأمر واعتزل (أيار 1923)" (حرفوش، م. س، ص 656). ونقل من لبنان ليعيّن عام 1924 سفيراً لفرنسا في عصبة الأمم. واستمرّ في عمله هذا حتى العام 1939.

1 - ميلّران Millerand, Etienne Alexandre (1859-1943) ولد في باريس. محامٍ وسياسي فرنسي. ترأس الحزب الإشتراكي. عيّن وزيراً للتجارة 1899. طرد من حزبه 1905. عيّن مرّات عديدة وزيراً للحربية لاسيما خلال الحرب الكونية. أصبح رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية 1920. انتخب رئيساً للجمهورية في 1920/09/23. أجبر على الاستقالة 1924. له مؤلفات عديدة.

الكبير. وعندما استقال الجنرال غورو وحلّ الجنرال ويغان محلّه حاول دو كيه دون جدوى إقناع هذا الأخير بفصل طرابلس عن لبنان. وسنعرض في ما يلي لتفاصيل هذه الأحداث ولخلفية سياسة دو كيه هذه وأسبابها وأثرها، لنخلص إلى التساؤل: هل كانت تخوّفات دو كيه في محلّها؟!

دويلات صغيرة متجانسة دينياً

وفي البداية لا بدّ من أن نشير إلى أن الهدف الأساسي من سياسة دو كيه كان الحفاظ على المصالح الفرنسية والدفاع عنها. وهذا أمر طبيعي.

ويروي الشيخ بشارة الخوري في هذا الصدد أنه التقى هذا الدبلوماسي الفرنسي يوم كان طالباً في باريس (1909-1912) «وتحدّثت إليه عن أحوالنا. ولحظت لأول وهلة اهتمامه بمصالح فرنسا في بلادنا قبل النظر إلى مصالحنا»[1].

ومن هذا المنظور كان دو كيه يرى وجوب تقسيم منطقة الانتداب الفرنسي (لبنان وسوريا) إلى دويلات عديدة إلى حدّ العشر من أجل ضمان إضعاف التيار السنّي الاستقلالي والحركة القومية العربية[2]. وكان يرى أن التجانس الديني في كل من هذه الدويلات أمر ضروري لبقائها واستمرارها.

ويروي المطران عبدالله خوري رئيس الوفد اللبناني الثالث إلى

1 - الخوري، الشيخ بشارة، حقائق لبنانية، بيروت، ط1، 1960، ج1، ص 65.

2 - طرابلسي، فواز، تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، بيروت، رياض الريس للكتب، ط1، 2008، ص 144.

مؤتمر الصلح في رسائل إلى البطريرك الحويك أن روبير دو كيه كان العقدة الأساسية في الكي دورسيه (الخارجية الفرنسية) بوجه المطالب اللبنانية بتوسيع الحدود وضمّ مدينتي بيروت وطرابلس. ففي رسالة في 1920/06/25 يقول:«ثم صرّح لنا روبار دي (كاه) أن الحكومة تنوي إبقاء بيروت وطرابلس منفصلتين عن لبنان بصفة مدينتين حرّتين Villes libres حتى يتسنّى لكل اللبنانيين والسوريين معاً التمتّع بمنافعهما التجارية. فقلنا إن لبنان يعدّ نفسه مالكاً بكل حق لهاتين المدينتين من كل وجه (جغرافي واقتصادي وقومي وعدلي ...) وأن إلحاقهما به لا يمنع السوريين من التمتّع بالمنافع التجارية بموجب اتفاقية تبرم بيننا وبين السوريين. فقال إن شعب طرابلس لا يرغب بالانضمام وأكثره إسلامي»[1].

يظهر من رسالة المطران الخوري أن دو كيه يعارض ضمّ المدينتين الكبيرتين وبالأخصّ طرابلس. وسنرى أنه بقي مصرّاً على رأيه هذا ومطالباً بفصل طرابلس حتى بعد رحيله عن لبنان.

ويروي المطران عبدالله خوري في يوميّاته بتاريخ 1920/07/01 مجريات لقاء آخر وحاسم بين الوفد اللبناني والمسيو دو كيه بيّن فيه المطران يرافقه المسيو "إميل [إده] إيجابيات ضمّ بيروت وجعل حلب مقرّ المندوبين الفرنساويين (...)"[2] "(..)وأضاف المطران قائلاً:«نفضّل بعده (المندوب

1 - الحداد، حكمت ألبير، لبنان الكبير، بيروت، دار مارون عبّود، ط1، 1987، ص 146.

2 - الحداد، م. س، ص 162.

الفرنسي) على حرماننا من بيروت، لأن بذلك يكون الضرر أقلّ، فاقتنع دو كيه، أما بخصوص طرابلس فقال إن إسلام طرابلس وسواحل عكار نحو 40 ألفاً ولا يرغبون بالإنضمام إلى سوريا ... وأخيراً لما وجدناه مصرّاً على عناده طلبنا إليه أن يتقرّر تكوين لبنان الكبير بموجب الخارطة المعروفة (1861) وذلك مبدئياً، فإن لم يرضَ به إسلام لبنان فإذ ذاك تمنحهم حكومة لبنان إستقلالاً إدارياً وتكون القوميسارية الرابطة بينهم وبين لبنان. وبهذه الطريقة لا يكون لبنان خسر حقّ السيادة على طرابلس»[1].

طرابلس عقدة العقد

تبقى طرابلس إذاً بنظر دو كيه عقدة العقد. وهو إن أبدى بعض التساهل بشأن بيروت، فقد بقي متشدّداً بشأن طرابلس. ويعود رفضه ضمّ هذه المدينة إلى عاملين: تشدّد أهلها في انتمائهم الإسلامي وكثافة سكّانها مما سيُغرق لبنان الكبير في أكثرية إسلامية سنّية.

وسيبقى دو كيه على رأيه هذا مع انتقاله إلى لبنان وتسلّمه منصب الأمين العام للمفوضية، وكان يرى، كما صرّح في ما بعد «أن البطريرك الماروني يفتقد الحسّ السياسي .. ويضغط بكل قواه على الجنرال غورو لإعطاء لبنان كل شيء»[2].

1 - م. ن، ص 162.

2- Zamir, op. cit, p. 76.

فصل طرابلس وفدرالية بين الجبل وبيروت والجنوب

وقبل أسابيع ستة من إعلان دولة لبنان الكبير فصّل دو كيه كل مخاوفه وآرائه واقتراحاته في مذكّرة رفعها إلى رئيس الوزراء الفرنسي ميلّران واقترح فيها:«أن يضمّ وادي البقاع وسهل عكار فقط إلى الدولة المسيحية أما مسألة بيروت وسنجق صيدا فطلب أن ينتظر حتى تتوضّح كيفية اندماج هاتين المنطقتين مع جبل لبنان. في حين يجب أن تبقى طرابلس مفصولة عن لبنان»[1].

وكانت مبرّرات دو كيه في مقترحاته هذه تتركّز على المشاكل الديموغرافية التي لا بدّ أن تظهر في دولة لبنانية موسّعة. في حين أنه لم يرَ سبباً مانعاً لإلحاق البقاع بالجبل، لأن أكثرية سكّانه من غير المسلمين التوّاقين للاندماج مع جبل لبنان. وكان يعتقد أن هذا الإلحاق سيكون لمنفعة فرنسا، حيث سيسهّل عملية تجزئة الدولة العربية السابقة، ويجعل منطقة البقاع الستراتيجية بشبكة طرقها وسكّة الحديد فيها تحت مراقبة فرنسية مباشرة. وبشأن عكّار فقد رأى دو كيه ما رآه بخصوص البقاع، فهو برأيه منطقة ذات أكثرية سكّانية مسيحية من الروم الأرثوذكس، وبضمّ هذه المنطقة سيتّصل جبل لبنان مباشرة "بدولة العلويين" المقترحة، ويفصل طرابلس عن نقاط تجمّع السنّة الرئيسة. وعارض دو كيه بقوة ضمّ طرابلس لأنها مركز ثقل سنّي متطرّف، ولا رغبة لأهله في الانضمام إلى دولة

1- Zamir, op. cit, p. 92.

مسيحية والاندماج فيها. وردّ على الرأي القائل بضرورة الحصول على مرفأ طرابلس بأنه من الممكن استغلال المرفأ بسهولة، بعد رفع الحواجز الجمركية بين الطرفين. ورفض ادّعاءات المسيحيين أنهم بمقدورهم السيطرة على المدينة بمدّة قصيرة. واقترح إعطاء منطقة طرابلس بسكّانها الخمسين ألف سنّي حق الحكم الذاتي[1].

أما بشأن بيروت فقد تحفّظ دو كيه من جعل مدينة كبيرة كهذه عاصمة لجبل لبنان. مبرّراً تحفّظه بأن مدينة بيروت ستصبح، بعد مدّة قصيرة، جامعة لعدد من السكّان سيتفوّق على عدد سكان الجبل، ممّا سيؤثر على بنية الدولة اللبنانية. واقترح جعل بيروت مدينة حرّة مستقلّة عن لبنان. أما بشأن سنجق صيدا في الجنوب بسكّانه البالغ عددهم نحو 80 أو تسعين ألف متوالي (شيعي)، فقد رأى دو كيه إمكانية إنشاء دولة متوالية هناك مع ضمانات للأقلية المسيحية فيها. ولكنه، وبسبب الخلاف مع بريطانيا والحركة الصهيونية بشأن مستقبل المنطقة الواقعة جنوب الليطاني، فقد اقترح دمج المنطقة بلبنان.

وفي المحصّلة أراد دو كيه حلّ المشكلة الناتجة عن التعدّدية الطائفية اللبنانية بإنشاء فدرالية لبنانية بين جبل لبنان ذي الأكثرية المسيحية وسنجق صيدا بسكّانه المتاولة، وبيروت بطائفتيها السنية والأرثوذكسية[2].

1- Zamir, op. cit, p. 92.

2- Zamir, op. cit, p. 93.

تلك كانت خلاصة آراء دو كيه ومقترحاته قبل إعلان دولة لبنان الكبير بشهر ونصف. وكان لهذه الآراء أثر بالغ على موقف رئيس الوزراء ميلّران. ولكن الجنرال غورو[1] بحنكته وحزمه وتأثيره استطاع أن يتجاوز مقترحات دو كيه وتحفّظات ميلّران للوصول إلى دولة لبنان الكبير بشكلها الحالي، وهذا ما سنعود إلى الحديث عنه.

دو كيه يواصل العمل على فصل طرابلس

وبقي دو كيه على رأيه. وسعى، بعد إنشاء لبنان الكبير، لفصل بعض المدن عنه ولاسيما طرابلس. فوضع خططاً لتنفيذ ذلك، وبرّر خططه بأنها ستكون لمصلحة المسيحيين اللبنانيين ومصلحة المدينة وسكّان سوريا في آن. فلبنان سيتخلّص من مركز ثقل إسلامي شديد المعارضة لدمجه فيه، كذلك سيقلّ عدد السنة في لبنان بنتيجة هذا الفصل. وقد حاز لبنان على

1 - الجنرال غورو Henri Gouraud (1867-1947). ولد في باريس. وتخرّج من مدرسة سان سير الحربية سنة 1890. سافر سنة 1894 إلى السودان برتبة كابيتان فأسر ساموري رئيس العصاة المشهور. وقضى 18 سنة في أفريقيا في المعارك وأشدّها هولاً معركة ضد الطوارق من قبائل البربر. شارك في حملة نيجيريا وتشاد وموريتانيا ثم المغرب. نال بعد عودته من أفريقيا رتبة جنرال. شارك في الحرب الكونية فقاد حملة الدردنيل، فقطعت ذراعه اليمنى، وكسر حوضه فيها. قاد الجيش الرابع الفرنسي، وربح معركة Champagne في تموز وآب 1918. وصدّ الهجوم الألماني على المارن. عيّن مندوباً سامياً لفرنسا في سوريا ولبنان 1919. ثم عيّن حاكماً عسكرياً لباريس من 1923 إلى 1937. توفي سنة 1947.

ميناء بيروت. وضمّ طرابلس إلى سوريا سيقضي على أحد العوامل الرئيسة في رفض المسلمين السوريين للانتداب الفرنسي ومعارضتهم لإنشاء لبنان[1].

وفي بداية العام 1921 عندما كان دو كيه يقوم بمهامّ المندوب السامي بغياب غورو، نظّم عملية مراقبة سريّة لسكان طرابلس، ثم اقترح جعل المدينة حرّة ومنفصلة عن سوريا ولبنان وأن تكون مقرّ المندوب السامي[2]. ووافق رئيس الوزراء الفرنسي أرستيد بريان[3] على خطّة دو كيه هذه وشدّد على ضرورة سلخ طرابلس عن لبنان لتدعيم الأكثرية المسيحية فيه وإبقاء أرجحية كبرى ومستمرّة لها[4]. واقترح بريان أن تشكّل طرابلس وحمص وحماه كياناً ذاتي الإدارة يكون جزءاً من الفدرالية السورية. ولكن خطّة دو كيه لم تكتب لها الحياة بسبب معارضة المسيحيين اللبنانيين لها بشدّة، إذ رفضوا المسّ بأي جزء من أجزاء دولتهم.

كما أراد دو كيه فصل بعض مدن البقاع مثل بعلبك التي قاوم سكّانها المتاولة والسنة الانضمام إلى لبنان بضراوة. واقترح أن ترسم الحدود بين لبنان وسوريا في البقاع بحسب ملكية المسلمين أو المسيحيين للأرض. وحدوده يمكن أن تتبع نهر

1- Zamir, op. cit, p.115.

2- Ibid.

3 - أرستيد بريان Aristide Briand (1862-1932) ولد في نانت. انتخب نائباً 1902 ثم 1919. عيّن 11 مرّة رئيساً للحكومة الفرنسية و25 مرّة وزيراً. نال جائزة نوبل 1926.

4 - طرابلسي، م. س، ص 144-145.

العاصي، بحيث تبقى الهرمل فيها رغم سكّانها المتاولة، الذين كانوا جزءاً من متصرفيّة جبل لبنان»[1].

الموارنة يتصدّون لمشاريع دو كيه

وبعد رحيل الجنرال غورو واستقالته بداية العام 1923 مارس دو كيه مؤقّتاً صلاحيات المندوب السامي، وبدأ يراجع خططه بشأن فصل طرابلس عن لبنان. وزار طرابلس برفقة حاكم لبنان الفرنسي ليقف عن قرب على مطالب أهلها، وأدّت زيارته إلى خروج مظاهرات صاخبة تطالب بالانضمام إلى سوريا. وبدأ المسيحيون، بالمقابل، حملة عنيفة بقيادة الكنيسة المارونية للوقوف بوجه المطالب الإسلامية ومقترحات دو كيه. ممّا اضطرّ هذا الأخير إلى التأكيد للبطريرك الماروني أن فرنسا غير عازمة على إعادة النظر في حدود لبنان. ولكنه، وبالرغم من تأكيداته هذه، فعند وصول الجنرال ويغان مندوباً سامياً جديداً إلى لبنان، حاول إقناعه، دون جدوى، بوجوب فصل طرابلس عن لبنان[2].

تناقض حادّ في لبنان الكبير يمنع استمراريته

والخلاصة كان دو كيه أبرز السياسيين الفرنسيين الذين عارضوا إنشاء لبنان الكبير بالصيغة والحدود التي أعلن فيها. وأبرز العاملين بعد إعلانه على تعديل هذه الحدود. وبعد أن

1- Zamir, op. cit, p.116.

2- Zamir, op. cit, p.117.

خابت مساعيه قبل الإعلان وبعده، بنتيجة وقوف البطريركية ضدّه، أعلن دو كيه وبعد رحيله عن لبنان وفي العام 1926 أن لبنان الكبير خطأ تاريخي واضح، فكتب يقول:«لقد كان الإصرار على إنشاء دولة لبنان الكثير الكبر خطأً جدّياً واضحاً للعيان، حتى في الحقبة التي اقترف فيها. وواضح أنه كان ضرورياً، كي نجعل حياة هذا البلد الاقتصادية قادرة على الاكتفاء، بإضافة شيء ما إلى الصخور التي احتواها. ففرنسا كانت مدينة لنفسها ولحلفائها القدماء بإصلاح هذا الفشل الذي واجهته العام 1860. ولكن الحدود التي طالب اللبنانيون بها منذ 1860 هي أكبر مما يجب. فلبنان استطاع البقاء لأنه تكوّن من شعب ذي أغلبية مسيحية مطلقة، واعية لنفسها ومتعلّقة بحكمها الذاتي الذي أمّنته فرنسا لها. أما لبنان الكبير في سنة 1920، فقد احتوى على كثير من العوامل الدخيلة غير المسيحية، وفي حدود غير طبيعية ومصطنعة، رغم أنها جغرافية مثل حدوده السابقة العام 1860. والمسألة بشأن لبنان الكبير لم تكفّ عن البروز منذ ذلك الحين. ولن أصل إلى القول بأنها كانت ستنتهي لو أننا اكتفينا برسم حدود معقولة للبنان. وحتى لو اكتفينا بضمّ بيروت وصيدا، أو بقايا الولاية التركية في دمشق وبيروت بالجبال، لكان يمكن أن يستمرّ القوميون بالصراخ احتجاجاً، وربما كان الحجم الكبير الذي وصل إليه لبنان يسمح بإعادة النظر في حدوده، وإرضاء المطالب السورية. .. ولكن الواقع هو أنه في لبنان الكبير ثمة تناقض حادّ يكمن في أننا جعلنا الكثير

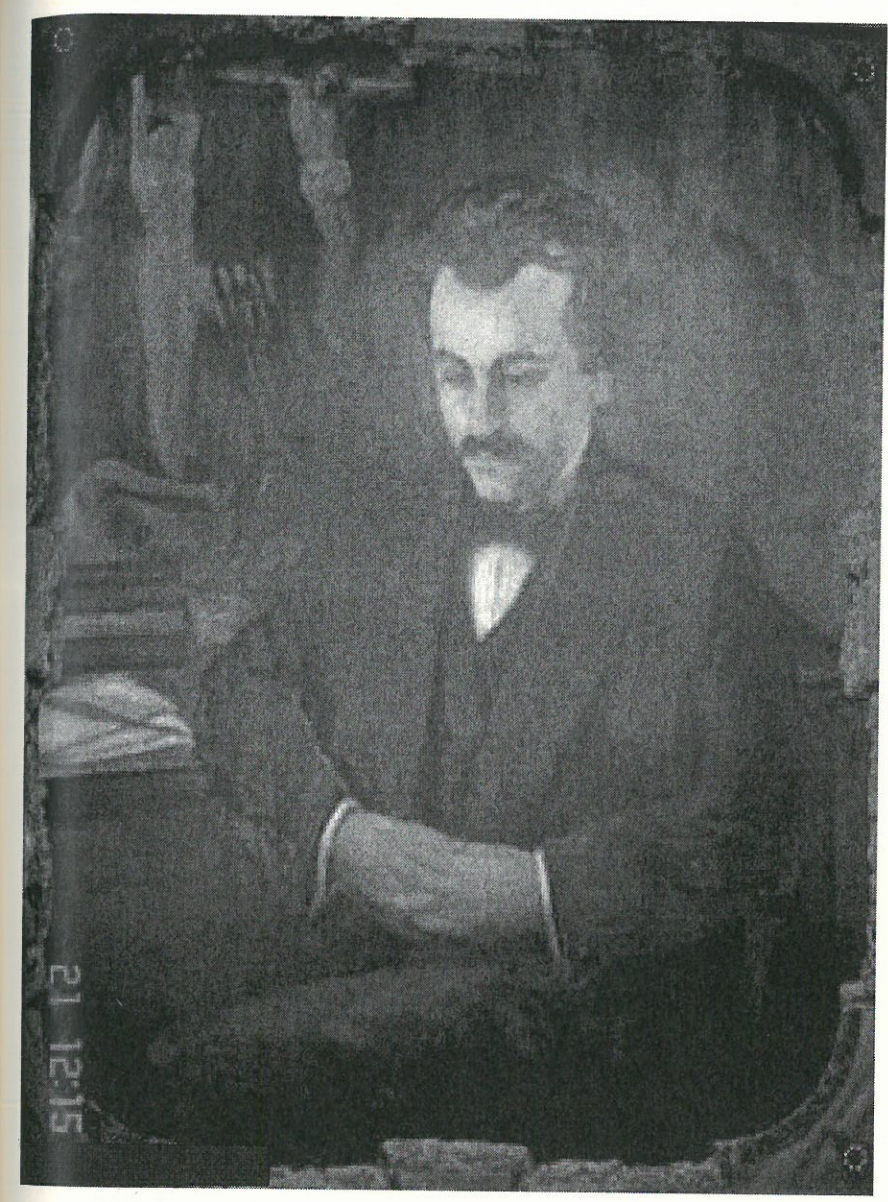
من المسلمين لبنانيين رغماً عنهم، وهو أمر لا يخفونه، بل يصرّحون به بقوة أو بضعف تبعاً لنوعية السلطة التي يمارسها الانتداب على البلاد»[1].

مصلحة فرنسا والمسيحيين في لبنان مسيحيّ الطابع

يتّضح من كلام دو كيه هذا أنه كان يرى مقوّمات صمود لبنان وبقائه تكمن في استمرار هويّته وطابعه المسيحي، وهذا الطابع لا يؤمّنه إلا أغلبية مسيحية ساحقة. فقد عارض ضمّ المدن الساحلية، وحتى مدينة بعلبك، انطلاقاً من أن ذلك سيخلّ بميزان القوى الذي كانت كفّته راجحة لصالح المسيحيين في المتصرّفية. وهو إن كان لا يبحث في ذلك عن مصلحة مسيحيي لبنان بالدرجة الأولى بل عن مصلحة الانتداب في إنشاء دولة مسيحية مستقرّة وموالية له في آن، إلا أنه كان يرى أن المصلحتين الفرنسية والمسيحية اللبنانية تلتقيان وتتقاطعان عند هذه النقطه. ولما لم يجد أذناً صاغية في الأوساط المارونية، ولاسيما البطريركية، اتّهم المسيحيين اللبنانيين بجنون العظمة وبطريركهم بقصر النظر وفقدان الحسّ السياسي، وعدم تقدير العواقب التي يقودهم إليها خيارهم المتطرّف في تكبير حدود لبنان مهما كان الثمن.

وتبقى آراء دو كيه ومقترحاته حتى يومنا هذا موضع تأمّل وتفكّر. أيهما كان المصيب والرؤيوي: هو أم خصمه البطريرك الحويّك؟

1- Zamir, op. cit, p.115-114.



جبران خليل جبران

باب 2

فصل 3

جبران: ماذا يبقى من لبنانكم بعد مئة سنة ؟!

مواضيع فصل 3 باب 2:

- نشاط جبران السياسي
- مفهوم سوريا ودلالة التسمية عند المهاجرين
- جبران وسوريا الفدرالية
- جبران يحذّر من مجزرة طائفية
- لكم لبنانكم ولي لبناني
- تضحكني دولة لبنان الكبير
- دعاة سوريا الفدرالية يتراجعون
- جبران: لبنان وطني

تندرج معارضة جبران خليل جبران (1883 - 1931) أشهر أدباء لبنان المبدئية للبنان الكبير ضمن سياق من الأحداث والمواقف السابقة واللاحقة لإعلان لبنان الكبير، ويصعب أن تفهم بمعزل عنها. ولكننا بالمقابل لو توسّعنا في العرض لاحتجنا إلى تصنيف بحث مستقلّ. لذا اخترنا أن نتناول بإيجاز أبرز المعطيات المتصلة بموقفه. وأهمّها:

1 - نشاطه السياسي السابق.

2 - مفهوم سوريا ودلالة هذه التسمية عند المهاجرين.

3 - علاقته بعدد من الشخصيات السياسية والفكرية أمثال الدكتور أيوب تابت وشكري غانم.

نشاط جبران السياسي

لم يشأ جبران أن يكون سياسياً، ولا طمح إلى دور سياسي، وطالما قال وردّد:«لست بسياسيّ ولا أريد أن أكون سياسياً»[1].

ولكن ذلك لم يمنعه من لعب دور وطني في الأوقات الصعبة والظروف المصيرية التي مرّ بها وطنه لبنان.

وفي مقالة عنوانها "الهوية اللبنانية في فكر جبران خليل

---

1 - جبران، جبران خليل، إقلب الصفحة يا فتى، مخطوطات لم تنشر، تحقيق وهيب كيروز، بيروت، لجنة جبران الوطنية، 2010، ص 102.

جبران السياسي" يقسّم د. جورج لبكي نشاط جبران السياسي إلى مراحل ثلاث:

1 - المرحلة الأولى 1908 - 1916. مرحلة ثورية طالب أثناءها جبران بتحرير بلاده من النير العثماني معبّراً عن تمرّده ورفضه للاحتلال العثماني في عدد من المقالات المنشورة في الصحف العربية.

2 - المرحلة الثانية 1916 - 1920. وهي مرحلة النشاط السياسي حين انخرط في عدد من الجمعيات أثناء الحرب الكونية عاملاً على مساعدة مواطنيه الذين ينهشهم الجوع ومناضلاً من أجل بلاده.

3 - المرحلة الثالثة بعد 1920. تاريخ إعلان لبنان الكبير، ونشرِ مقالته الشهيرة: لكم لبنانكم ولي لبناني، عندئذ ابتعد جبران عن السياسة مكرّساً جهده لفنه وأدبه[1].

وفي 1929/11/8 كتب إلى ماري هاسكل:«مسؤولياتي في الشرق قد انتهت. ولن أتعهّد في المستقبل بأية مهمّة من هذا النوع (...) فقد رغبت من كل قلبي المساعدة قليلاً لأني تلقيت مساعدات كثيرة»[2].

ورغم موافقتنا المبدئية على تقسيم المراحل الثلاث هذا،

1- Khalil Gibran and Ameen Rihani, Prophets of Lebanese-American literature, Louaizé/Lebanon, N.D.U press, 1999, p 122.

2 - حلو، فرجينيا، نبي الحبيب، رسائل الحب بين ماري هاسكل وجبران، ترجمة لوران فارس، بيروت، الأهلية للنشر، ط2، 2004، ص 509.

فإننا نرى أنه يغفل مرحلة سابقة لسفر جبران إلى باريس (1908 - 1910)، أبدى فيها جبران، في مقالات صحفية له، اهتماماً بالشأن السياسي، ولا سيما بقضايا الجالية اللبنانية - السورية في أميركا.

وفي المرحلة الممهّدة هذه يستوقفنا حدث ذات صلة بموضوع دراستنا، ومن شأنه أن يسلّط أضواءً إضافية عليه. إنه الفتنة المذهبية بين الموارنة والروم في الجالية اللبنانية-السورية في نيويورك سنة 1905. وكان لجبران دور في وأدها «ففي العام 1905 وقع خلاف مذهبي في جسم الجالية في نيويورك. واستمرّ الخلاف لأكثر من عام، وشمل أبناء الجالية في أكثر من مدينة وولاية في المهجر الأميركي الشمالي. وتطوّر الخلاف إلى معركة دموية سقط فيها قتيل من آل اسطفان وعدد من الجرحى. وكان بين المعتقلين المتّهمين بالتحريض المطران هواويني مطران الأرثوذكس، وصاحب جريدة الهدى السياسي الماروني نعوم مكرزل. وفي حين اعتمد فريق مكرزل صحيفة الهدى لتبرئة الذات واتهام الآخرين، وضع الصحافي الأرثوذكسي نجيب دياب جريدته مرآة الغرب في تصرّف فريق الهواويني»[1] وما يهمّنا هنا من هذه الفتنة أمران:

1 - إنها مؤشر لتشنّج العلاقات بين الموارنة والروم قبل الحرب الكونية، ما سيمهّد ويفتح الطريق وسيعاً لاختلاف

---

1 - دايه، جان، لكم جبرانكم ولي جبراني مع خمسين نصّاً مجهولاً لجبران، بيروت، منشورات مجلة قب الياس، ط1، 2009، ص 53.

الخيارات السياسية، وبالتالي النزاع على الكيان والهوية موضوع دراستنا.

2 – دور جبران في إطفاء نار الفتنة. فقد وقف فيها على الحياد. ورفض منذ البداية أن يقتتل أبناء الجالية الواحدة والوطن الواحد، وعبّر عن رفضه هذا بعدد من المقالات والرسوم نشرها في جريدة المهاجر لصاحبها أمين الغريب. وهذا الأخير أخذ موقفاً محايداً بتأثير من نابغة المهجر على ما يبدو.

ومن مقالات جبران التي ساهمت في تخفيف حدّة الفتنة واحد بعنوان "نداء ورجاء" نشر في جريدة المهاجر في 1905/10/21، ومما جاء فيه:«فديتكم يا قومي، فمنكم من يمثل الدين، والدين أجمل صلة بين الإنسان وربّه. ومنكم من يمثل الصحافة، وهي أوفى سبيل إلى الترقي، فباسم أي تتباغضون وتتخاصمون»[1].

وفي قولة جبران هذه إشارة واضحة إلى زعيمي الفتنة: المطران هواويني والصحافي نعوم مكرزل. ويستحلف جبران في بداية مقاله المتخاصمين:«اسمعوا يا قومي فأرواح جدودنا تنادينا من أعالي لبنان، أنظروا فقد بعث المجد القديم من قبره منادياً أبناء المتخاصمين(...) اسمعوا يا قومي فقد أنصت البغض إذ قام الحبّ خطيباً»[2].

وفي مقالة أخرى في المهاجر بتاريخ 1906/05/15 عنوانها:

---

1 - دايه، م. س، ص 289 – 290.

2 - م. ن، ص 289.

"قلب الجامعة ونفس الأمة" يتوجّه جبران إلى قلوب أبناء الجالية ومشاعرهم ويستحلفهم أن يضحّي كل ببعض من مصلحة فردية في سبيل الصالح العام:«العدل الحقيقي هو الذي لا يسلب دموع جامعة ويحرق كبد أمة من أجل ابتسامة فرد واحد. الحقوق المقدّسة لا تكسر المعصم طمعاً بالسوار. والعدل الحقيقي لا يقطع الأعناق شغفاً بالعقود»[1].

ويهتف جبران في مقالته مستبقاً ما سيعود ويكتبه في النبي:«كل شيء في هذه الحياة لا يساوي دقيقة محبة»[2].

وبكلماته الطافحة بالنبل والودّ صبّ جبران ماءً على نار الفتنة، في حين كان غيره يصبّ عليها الزيت.

وأثناء الحرب الكونية التهب قلب جبران حرقة على أهله الذين يموتون جوعاً في جبل لبنان. والمجاعة هذه كانت سبباً أساسياً في تورّطه في العمل السياسي، أو بالحري العمل الوطني: جمعاً للإعانة، وسعياً حثيثاً للتحرّر من ربقة المحتل التركي.

فهتف جبران في مقالة "مات أهلي":

«مات أهلي جائعين (...) مات أهلي أذلّ ميتة، وأنا هنا أعيش في رغد وسلام، وهذه هي المأساة المستتبّة على مسرح نفسي»[3].

لم يطق جبران أن يموت أبناء بلاده جوعاً فصرخ متأوّهاً:«لو

---

1 - دايه، م. س، ص 295.

2 - م. ن.

3 - جبران، جبران خليل، المجموعة العربية الكاملة، تقديم ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر، ط1، 1949، ص 428.

كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي، لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحبّاتي يد الموت عن نفسه»[1].

ويختم مقالته بدعوة ملحّة موجّهة إلى كل فرد من أفراد الجالية بالتبرّع لمساعدة الجائعين في لبنان:«إن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من بشرية بما فوق البشرية»[2].

والحلقة الذهبية إسم جمعية أدبية سياسية تأسست في شباط/1911 من أجل الدفاع عن قضية البلدان العربية الخاضعة للأتراك، وكان جبران من مؤسّسيها وكبار الناشطين فيها. وفي تعبيره الختامي لمقالته تورية وإشارة ضمنية إلى هذه الجمعية.

وشارك جبران في تأسيس لجنة إغاثة منكوبي سوريا ولبنان/حزيران 1911) واختير سكرتيراً لها، في حين كان زميله أمين الريحاني نائباً للرئيس[3].

ووطأة المجاعة المميتة هذه جعلت جبران يصرخ ويشدو بفرح عند نهاية الحرب العالمية الأولى وفي رسالة إلى ماري هاسكل في 1918/11/07:«إنه يوم مقدّس حقاً. بل هو أقدس الأيام بعد ولادة يسوع»[4]. وهل من شيء يسعد الجائع إلا

1 - م. ن، ص 429.

2 - م. ن، ص 430.

3 - نجار، إسكندر، قاموس جبران خليل جبران، ترجمة ماري طوق، بيروت، دار الساقي، ط1، 2008، ص 73.

4 - حلو، نبي الحبيب، م. س، ص 370 – 371.

الرغيف؟!

مفهوم سوريا ودلالة التسمية عند المهاجرين

يطرب الداعون إلى القومية السورية عندما يرون عبارات "سوريا" و"السوريون" تتكرّر في كتابات جبران، ويعتبرونه قومياً سورياً ومَن دعاة هذه القومية، والواقع أن تصنيفهم هذا لا أساس متين له كما سنرى.

وقد تناولنا هذه المسألة في بحث سابق لنا عنوانه "المغتربون ومسألتا الهوية والانتماء"[1]، وأوردنا فيه شرحاً لميخائيل نعيمة (1889 – 1988) سكرتير الرابطة القلمية وزميل جبران جاء فيه:«حار المهاجرون في بدء هجرتهم إلى أي الأمم ينتسبون. فهم بتبعيتهم أتراك، وبلسانهم عرب. ولكن كلمة تركي كانت تنطوي في أذهان أهل البلاد على شيء من الإهانة والتحقير. ولم تكن أفضل منها بكثير كلمة عربي. فاختاروا أن ينتموا إلى سوريا، لأنها القطر الأكبر من الأقطار الثلاثة التي نزحوا عنها. وهي لبنان وسوريا وفلسطين. ولأن اسمها قديم ومعروف، أما في علاقاتهم بعضهم ببعض، فما كان اللبناني يتخلّى عن لبنانه، ولا الفلسطيني عن فلسطينه»[2].

فسوريا في الأدبيات المهجرية وفي زمن جبران:«كانت تعني

1 - صليبا، د. لويس، الاغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014، فصل 4، ص 59 – 78.

2 - صليبا، الاغتراب، م. س، ص 63 – 64.

واقعاً جغرافياً يضمّ سوريا ولبنان وفلسطين والأردن حالياً، ولا تعني كياناً سياسياً. وفي أميركا الشمالية أطلق على جميع المهاجرين الآتين من الشرق "سوريين"»[1] وجبران عندما يندب موتى مجاعة جبل لبنان في الحرب الكونية يقول: مات أهلي وأهلكم أيها السوريون، فماذا نستطيع أن نفعل لِمن لم يمت منهم»[2].

وهو كثيراً ما يقرن ذكر سوريا باسم لبنان، تمايزاً ربما، فيقول في مقالة المجاعة عينها:«واحرّ قلباه، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان»[3].

وإن كان جبران وزميله الدكتور أيوب تابت الرئيس اللاحق للبنان قد طالب بِـ "الوحدة الفدرالية في سوريا الطبيعية كلّها»، كما سيلي الحديث فهو حتى في مطلبه هذا بعيد عن مفهوم القومية السورية، ونحن نوافق إسكندر نجار في خلاصة بحثه في هذا الشأن:«رغم إيمانه بحرّية الشعوب والتزامه محاربة الاضطهاد، لا يمكن اعتبار جبران بطل القومية السورية، لذا، فإن ميل بعضهم إلى أن يجعل منه قومياً سورياً، بالمعنى الإيديولوجي للكلمة، لا يرتكز على أي أساس»[4].

---

1 - نجار، قاموس، م. س، ص 130.

2 - جبران، المجموعة العربية، م. س، ص 430.

3 - م. ن، ص 429.

4 - نجار، قاموس، م. س، ص 150.

جبران وسوريا الفدرالية

لا يمكن أن نفهم موقف جبران غداة نهاية الحرب الكونية بمعزل عن علاقاته بعدد من الناشطين في المجال السياسي والوطني. وأبرز مَن كان له بهما اتصال ولهما فيه أثر في هذا المجال:

الدكتور أيوب تابت[1] الذي سيتولى رئاسة الدولة اللبنانية

---

1 - أيوب تابت (1874 - 1947) ولد في بحمدون الضيعة/قضاء عاليه بلبنان. درس الطب في الجامعة الأميركية ببيروت. وتخرّج منها طبيباً 1893. ثم سافر إلى الولايات المتحدة واختصّ في الطب الداخلي وعمل في إحدى مستشفيات نيويورك. ثم عاد 1905 إلى بلاده ليمارس مهنة الطب. مال إلى السياسة فانتمى إلى الجمعية الإصلاحية في بيروت. وعام 1913 سافر إلى باريس ليشارك في المؤتمر العربي الأول الذي عقد فيها.

وفي فترة الحرب العالمية كانت له تحرّكات واسعة. وقبل أن تتناوله يد جمال باشا هرب إلى نيويورك حيث ترأس لجنة التطوّع لأجل سوريا وجبل لبنان التي عملت على تجنيد المهاجرين السوريين واللبنانيين الراغبين في القتال إلى جانب الحلفاء لتحرير المنطقة من النير العثماني، وكان جبران عضواً في هذه اللجنة.

وعيّن ثم انتخب نائباً مرّات عديدة منذ سنة 1922 وحتى وفاته 1947. عيّن أمير سرّ الدولة اللبنانية في عهد الرئيس إميل إدّه. وفي 1943/03/18 عيّن رئيساً للدولة اللبنانية وبقي في هذا المنصب حتى استقالته في تموز 1943. من مؤلّفاته: 1 - عبرة وذكرى أو كلمة حول الدستور 1908، 2 - ديوان زجلي بعنوان "الودي"، طبع بعد وفاته 1948، 3 - مشروع النظام الأساسي لدولة لبنان 1926. ومجموعة مقالات سياسية واجتماعية في مجلات المقتطف والكلّية ولسان الحال.

عرف أيوب تابت باستقامته حتى قيل عنه إنه مريض بالاستقامة، وقال عنه

وشكري غانم[1] وكِلا الرجلين دعيا إلى سوريا الفيدرالية ثم

خليل رامز سركيس:«سيرته ذهبت مثلاً في التقشف والتجرّد وفي ما يقال له عدل وعزم وحكم نزيه». (عوض، أصحاب الفخامة، م. س، ص 325). ولم يكن مؤمناً بصيغة 1943 والميثاق. وفي ذلك يقول:«إن صيغة 1943 لا يمكن أن تعيش أكثر من 25 سنة. لأن الوطن لا يبنى على التسويات. هناك مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية وثقافية تستدعي المعالجة ولم يستوعبها الميثاق الوطني ولا أعطاها فرصة التأمل» (عوض، م. س، ص 324) يقول عنه المؤرخ جواد بولس وكان وزيراً في حكومته:«كان أيوب تابت رجلاً مستقيماً إلى أبعد الحدود، صاحي الضمير المهني حتى الفناء فيه، وفي أيامه كانت الدوائر الرسمية بدوامين. وقد منع شرب القهوة والأكل ضمن الدوام الرسمي وفرض ضريبة على رمي النفايات في الشوارع»، (عوض، ص 315) ودعا تابت إلى منع صيد الحمام لا سيّما في نوادي التيرو، فأقرّ البرلمان قانوناً باستبدال الحمام بصحون خزفية. كما منع البرازانات وتحية العسكر للرئيس في فترة رئاسته.

1 - شكري غانم (1861 – 1929). ولد في بيروت من عائلة أصلها من لحفد/قضاء جبيل، تابع دروسه في معهد عينطورة بمنحة من الحكومة الفرنسية وتخرج 1879. سافر إلى مصر ومنها انتقل إلى فرنسا حيث استقرّ. توثقت علاقاته بالشخصيات الفرنسية بفضل أخيه خليل وصديقه پول كمبون سفير فرنسا في لندن لاحقاً. عيّن أميناً لمحفوظات مقرّ المندوبية الفرنسية في تونس واستمرّ في هذه الوظيفة إلى 1895. سنة 1908 اشترك بتأسيس الرابطة الوطنية العثمانية مع الدكتور جورج سمنه وألفرد سرسق وغيرهما. ثم عيّن نائباً لرئيس المؤتمر الوطني الذي عقد في باريس 1913. أسهم في تنظيم فرقة الشرف الخاصة التي شاركت في الحرب إلى جانب الحلفاء. أسس اللجنة المركزية السورية في باريس 1916 وتولّى رئاستها. واستقال منها 1921. خطب باسم الجاليات اللبنانية في المهجر في مؤتمر الصلح 1919. انتقل شكري غانم من الدعوة إلى سوريا الفدرالية إلى تأييد

تراجعا عن هذه الدعوة ليعملا للبنان الكبير كما سنرى.

ومن المرجّح أن علاقة جبران بشكري غانم تعود إلى حقبة إقامته في باريس (1908 -1910) إذ فيها «تقرّب جبران من أوساط المناضلين ضدّ النير العثماني، ومن أبرزهم الشاعر والكاتب المسرحي شكري غانم. كما تابع أعمال المؤتمر العربي الأول الذي عقده في باريس دعاة الاستقلال السوريّون واللبنانيون»[1].

إقامة لبنان الكبير 1920 وكان من أبرز مساعدي الوفد اللبناني الثالث برئاسة المطران عبدالله البستاني لنيل هذا المطلب. ترك العاصمة الفرنسية 1927 وانتقل إلى انتيب حيث توفي في أيار 1929.

له عدد من المؤلفات الأدبية والسياسية. أشهرها مسرحية عنتر Antar/يقول المطران عبدالله غانم في رسالة إلى البطريرك الحويك في شباط 1920:«إن العناية وفقتنا إلى استجلاب الخواجة شكري غانم إلى مذهبنا السياسي. ونهار البارح قابل حضرته رئيس الوزارة، وقال له ألا ترون بما أن فرنسا لا تقدر أن تتمّم وحدة سوريا (من حيث ضمّ فلسطين)(...) أنه صار من الواجب على الحكومة أن تهتمّ بتوسيع لبنان والاعتماد عليه (...) فأجابه الوزير إن هذه هي أفكارنا الآن ولا بدّ لفرنسا من إرضاء لبنان. فسأله شكري غانم عمّا إذا كان يمكنه هو أن يجاهر بهذا المبدأ فأجابه أيضاً بالإيجاب» (أرشيف بكركي، وثيقة رقم 23) ضو، طوني، لبنان الكيان ومؤتمر الصلح، جبيل، 1996، ج3، ص 50).

وفي رسالة جوابية يقول الحويك:«سرّنا أيضاً ما ذكرتم عن جناب ولدنا الخواجة شكري غانم. ونحن لا نستغرب دفاعه عن لبنان ومصالح لبنان. وهو من الأفراد الذين يفتخر بهم لبنان وبوطنيتهم الصادقة». (ضو، م. س، ص 60- 61).

1 - نجار، قاموس، ص 148.

أما علاقته بأيوب تابت فأقدم، إذ كان هذا الأخير زميلاً له في معهد الحكمة (1899 – 1901). وهو شقيق سلطانة تابت الأرملة الشابّة التي أحبّها جبران ورسمها واستوحى من حبّه لها رواية الأجنحة المتكسّرة[1].

وفي شهر شباط 1911 شارك جبران زميليه أيوب تابت وشكري غانم في تأسيس جمعية الحلقة الذهبية في نيويورك وكان هدفها الدفاع عن قضية البلدان العربية الخاضعة للعثمانيين.

وفي 1911/02/25 ألقى جبران في اجتماع كبير نظّمته الجمعية خطبة رنّانة دعا فيها السوريين إلى الاتكال على أنفسهم للتحرّر من النير العثماني»[2].

وعام 1917، وكما أشرنا في الهامش، التحق جبران في الولايات المتحدة بلجنة التطوّع لأجل سوريا وجبل لبنان التي كان يترأسها أيوب تابت ويدعمها ويحرّكها شكري غانم من باريس. وكانت غاية اللجنة تجنيد سوريي أميركا ولبنانييها الراغبين في القتال إلى جانب الحلفاء لتحرير المنطقة من النير العثماني»[3].

وقبيل نهاية الحرب الكونية تأسّست في نيويورك الرابطة السورية-اللبنانية للتحرير. أو رابطة سوريا-جبل لبنان للتحرير. وكانت هذه الرابطة بمثابة فرع لـ"اللجنة المركزية السورية"

1 - نجار، قاموس، ص 56 – 57.

2 - نجار، قاموس، م. س، ص 78.

3 - قاموس، م. س، ص 55.

Comité Central Syrien في باريس والتي ترأسها شكري غانم[1]. أما الرابطة السورية-اللبنانية فكان أيوب تابت رئيساً لها. وأمين الريحاني نائباً للرئيس وجبران خليل جبران سكرتيراً للمراسلات الإنجليزية وميخائيل نعيمه سكرتيراً للمراسلات العربية[2].

وفي 1919/02/01 أرسلت الرابطة السورية-اللبنانية إلى مؤتمر الصلح/باريس مذكّرة توضح فيها خطّها السياسي ومطالبها. وقد أوردنا في كتابنا الدولة الإسلامية ترجمة للنصّ الكامل للمذكرة. وأبرز ما جاء فيها:

1 – رفض احتلال قبائل الحجاز (قوات فيصل) لسوريا.

2 – السوريون ليسوا عرباً واللغة العربية فرضت على سبعة ملايين مسيحي كانوا سكان البلاد الأصليين.

3 – حلّ المسألة السورية على أساس الوحدة الفدرالية في سوريا الطبيعية كلّها [أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن الحاليين] تحت وصاية وحماية فرنسا»[3].

وأول موقّعي المذكرة د. أيوب تابت رئيس الرابطة أما الثاني

1 - خليفة، د. عصام، أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، دار الجيل، ط1، 1985، ص 84.

2 - خليفة، أبحاث، ص 84.

3 - صليبا، د. لويس، الدولة الإسلامية من منظور مسيحي أرثوذكس سوريا ولبنان في زمن التحولات 1908 – 1920، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط3، 2014، ص 90 – 92.

فجبران خليل جبران سكرتيرها العام[1] ما يعني أن جبران كان الرجل الثاني فيها.

وما يهمّنا هنا أن دعوة هذه الرابطة إلى وحدة سوريا في نظام فدرالي كانت أحد المشروعين الفرنسيين الأساسيين للبنان، أما المشروع الفرنسي الآخر المنافس فلبنان الكبير.

ويبيّن أرشيف الخارجية الفرنسية أن الفرنسيين كانوا يقدّمون الدعم المادي لجرائد ومجلّات مهجرية لا سيما "السائح" و"الفنون" و "الهدى". ويظهر أن ليبر القنصل الفرنسي في نيويورك طلب من وزارة الخارجية وضع مبلغ 20 ألف فرنك بتصرّف تابت والرابطة السورية اللبنانية لأنه قدّم مساعدات مهمّة لفرنسا من أجل سوريا الموحّدة، وهو شخصية عميقة الاطلاع. ويشيد ليبر في تقارير متلاحقة بموقف ثابت وجبران الودّي جدّاً من فرنسا. كما يرسل في أحد تقاريره الدبلوماسية نصّ رسالة وقّعها تابت (رئيس الرابطة) وجبران (السكرتير) ويعربان فيها عن عواطفهما الحارّة وتقديرهما لرئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو وفرحهما بنجاته من محاولة الاغتيال التي تعرّض لها. ويؤكّدان أنهما يضعان فيه كل آمالهما بتحرير سوريا وربطها بفرنسا ويعتبران أنه القادر على التعبير عن مطامح السوريين أمام مؤتمر الصلح[2].

ويحفظ أرشيف الخارجية الفرنسية تقارير لشكري غانم

---

1 - صليبا، الدولة، م. س، ص 92.

2 - خليفة، أبحاث، م. س، ص 86 – 87.

يشيد فيها بدور المثقفين ولجان المغتربين في أميركا الشمالية، ولا سيما تابت وجبران لأنهم يعملون بجدّ للوحدة السورية على أساس ديموقراطي فدرالي والإصرار على مساندة فرنسا الصديقة[1].

وتشير تقارير ووثائق أخرى في الأرشيف المذكور إلى التباين بين موقف جبران وتابت وموقف نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى. فهذا الأخير يرفض الوحدة السورية، ويصرّ على عدم إدخال لبنان فيها. ولكنه يلتقي مع تابت وجبران في المطالبة بالوصاية الفرنسية[2].

وهكذا نجد أكثر لبنانيي المهجر الأميركي يتنازعهما تيّاران: سوريا الفدرالية ولبنان الكبير. وجبران وتابت من أبرز ممثلي التيار الأول.

جبران يحذّر من مجزرة طائفية

لِمَ عارض جبران مشروع لبنان الكبير؟! لا نجد في كتاباته جواباً واضحاً عن هذه الإشكالية. ولكننا نعثر في مخطوطة له كتبت العام 1918 على ما من شأنه أن يسلّط أضواءً على خلفية موقفه هذا. فهذا اللبنان سيكون بلد الصراعات[3] وبنَفَس

---

1 - خليفة، د. عصام، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، ط1، 1997، ص 44.

2 - خليفة، شخصيات، م. س، ص 44 – 45.

3 - كيروز، وهيب، عالم جبران الفكري، بيروت، دار بشاريا، ط1، 1984، ج4، ص 329.

رؤيوي واضح تنبأ جبران بما سيحصل في هذا البلد الصغير:«لبنان يتمخّض بثورة مذهبية، ومن يعش يرَ.

»لبنان البلد الصغير، الهادئ الآن سيكون مسرحاً لمجزرة هائلة يذبح فيها المسلم المسيحي والمسيحي الدرزي، وسوف يذبح المسيحي أخاه المسيحي، ومَن يعِش يرَ»[1].

كأن جبران رأى بعينه الثالثة ما سيحلّ بهذا الوطن الصغير الناشئ من ويلات.

وعند إعلان لبنان الكبير في 1920/09/01 تلقّى جبران النبأ بحذر تبعه تحذير كبير وتقريع عبّر عنهما في مقالته الذائعة الصيت: لكم لبنانكم ولي لبناني، والتي نشرت في مجلّة الهلال المصرية في 1920/11/08. أي بعد نحو شهرين من هذا الإعلان.

وأزعج المقال سلطات الانتداب في سوريا ولبنان:«فعمدت إلى حذفه من كل النسخ المتداولة، غير أنها أغفلت ثبت مقالات العدد واسم كاتبه، بحيث تنبّه القرّاء إلى صنيع الرقابة هذا، فازداد فضولهم لقراءته. ويقول جبران في رسالة إلى صاحب دار الهلال عن هذا الحدث: لم أعلم، وحتى لم أحلم أن الرقابة في سوريا قد صارت حسّاسة. إنها والحق لحالة تبكي وتضحك في وقت واحد»[2].

---

1 - جبران، جبران خليل، إقلب الصفحة يا فتى، تحقيق وهيب كيروز، بيروت، لجنة جبران الوطنية، ط1، 2010، ص 133.

2 - نجار، إسكندر، جبران خليل جبران، ترجمة بسّام حجّار، بيروت، دار النهار، ط1، 2002، ص 137.

لكم لبنانكم ولي لبناني

واضح من توقيت صدور المقال ومن مضمونه أنه جاء ردّاً على إعلان لبنان الكبير واعتراضاً عليه.

يقول جبران فيه:«لبنانكم مربّعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش أما لبناني فمعبد أدخله بالروح»[1].

إنها إشارة واضحة إلى البطرك الحويك (رئيس دين) والجنرال غورو (قائد جيش) مؤسسي لبنان الكبير. وما أجري من عمليات بتر ووصل لأراضٍ ومقاطعات من أجل الوصول إلى لبنان الكبير (مربّعات شطرنج).

وفي إشارة إلى سوريا الفدرالية وإجهاض مشروعها يقول جبران:«لبنانكم ينفصل آناً عن سوريا ويتّصل بها آونة»[2] ويلحظ بأسلوبه الرمزي والشاعري ما رافق إعلان لبنان الكبير من جدل ومدّ وجزر بشأن ضمّ الطرفين الشمالي (طرابلس) والجنوبي (جبل عامل):«ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول»[3] ولبنان الكبير الذي رفضه جبران «عقدة سياسية تحاول حلّها الأيام»[4] وقد صدق في توقّعه هذا. وهو كذلك «مشكلة دولية تتقاذفها الليالي»[5].

---

1 - جبران، المجموعة العربية، م. س، ص 520.

2 - جبران، م. ع، ص 521.

3 - م. ن.

4 - م. ن، ص 520.

5 - م. ن.

ويحذّر جبران من تعدّد الجماعات غير المتجانسة في الكيان الناشئ، ما يجعل منه مخلوقاً غريباً متعدّد الرؤوس والرئاسات:«لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها»[1].

وهل يُكتب لكائن متعدّد الرؤوس أن يعيش. وهنا تثير نبوءة جبران الفزع والهلع في نفوس لبنانيي هذا الزمن:«وماذا عسى أن يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مئة سنة»؟[2].

هل تصدق نبوءة جبران فيتلاشى الكيان عند مضي قرن على نشأته 2020؟!

ويرى جبران الفساد سوسة ستفترس الوطن الناشئ، فأبناؤه وزعماؤه «هم الذين لا يعرفون المجاعة إلاّ إذا كانت في جيوبهم»[3].

هول المجاعة في لبنان التي صوّرها جبران كما أسلفنا، لا يعرفه رجالاته من ساسة وزعماء إلا إذا عضّ جيوبهم. وماذا يرجى من أناس كهؤلاء:«هل بينهم مَن يتجرّأ أن يقول:إذا ما متّ تركت وطني أفضل قليلاً ممّا وجدته عندما ولدت؟ هل بينهم مَن يتجرّأ أن يقول: لقد كانت حياتي قطرة من الدمّ في عروق لبنان أو دمعة بين أجفانه أو ابتسامة على ثغره»؟[4].

جبران قرف من رجالات يضجّون بالفرح حين يجب الحزن، ويُوَلْوِلُون حيث وحين يجب الفرح:«هم الذين يسيرون أمام

1 - م. ن ص 520.

2 - م. ن، ص 524.

3 - م. ن، ص 522.

4 - م. ن، ص 523.

الجنازة مزمّرين راقصين. حتى إذا ما التقوا موكب العرس تحوّل تزميرهم إلى نواح ورقصهم إلى قرع الصدور وشقّ الأثواب»[1].

ووطن هذه حاله وحال أبنائه أيكتب له أن يعيش؟!.

تضحكني دولة لبنان الكبير

وفي مقالة أخرى لم تنشر يضحك جبران من اللبناني الذي يفرح ممّا يوجب الحزن:«يضحكني في اللبناني أن يتكلّف الضحك وقلبه يبكي»[2].

ويسخر جبران تحديداً من دولة لبنان الكبير:«يضحكني اللبناني عندما يقول: دولة لبنان الكبير، ويحزنني عندما يقول: ما أفقر لبنان وما أجهل اللبنانيين»[3].

ويرثي جبران لحال سوريا المشلّعة المقسّمة إلى أربع دول: لبنان الكبير، دولة دمشق، دولة حلب، ودولة العلويين:«لنضحك ونفرح لأن بلادنا الصغيرة بحدودها تقسم إلى أربع دول عظيمة بأسمائها»[4].

ويتألّم جبران من الطائفية والمذهبية التي تنهش جسد الوطن الفتيّ وستفترسه عاجلاً أم آجلاً، «لنضحك ونفرح لأن المشعوذين بيننا لا يعرفون أي مذهب يذهبون. فهم المسلمون

1 - م. ن، ص 522.

2 - جبران، أقلب الصفحة، م. س، ص 116.

3 - م. ن.

4 - م. ن، ص 118.

نكاية بالمسيحية وهم المسيحيون نكاية بالإسلام. وهم اليهود والبراهمة والبوذيون والزرادشتيون نكاية بالمسيحية والإسلام»[1].

قرف جبران وثورته ينصبّان على زعماء لبنان وساسته وسائر مشعوذيه. «دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء، فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء»[2] يكتب في مقالة "يا بني أمي".

دعاة سوريا الفدرالية يتراجعون

لكن زملاء جبران وأصدقاءه القائلين بِـ سوريا الفدرالية والداعين لها تراجعوا عن مقولتهم قبيل إعلان لبنان الكبير. فأيوب تابت عاد إلى لبنان لينخرط في الحياة السياسية كما بينّا في ترجمته في الهامش. وشكري غانم كان عضواً للمطران عبدالله الخوري وسائر أعضاء الوفد اللبناني الثالث في مطالبتهم بلبنان الكبير. فما سرّ هذا التراجع والانكفاء؟!

يروي لنا المطران عبدالله خوري في يومياته ورسائله بعض أسباب تحوّل غانم. ففي رسالة له إلى البطرك الحويك في شباط 1920 سبق ذكرها في الهامش يقول:«إن العناية وفّقتنا إلى استجلاب الخواجة شكري غانم إلى مذهبنا السياسي، ونهار البارح قابل حضرته رئيس الوزارة وقال له ألا ترون بما أن فرنسا لا تقدر أن تتمّم وحدة سوريا (من حيث ضمّ فلسطين)... أنه

1 - م. ن، ص 118.

2 - جبران، المجموعة العربية، م. س، ص 392.

صار من الواجب على الحكومة أن تهتمّ بتوسيع لبنان والاعتماد عليه..

فأجابه الوزير أن هذه هي الآن أفكارنا ولا بدّ لفرنسا من إرضاء لبنان، فسأله شكري عمّا إذا كان يمكنه هو أن يجاهر بهذا المبدأ فأجابه أيضاً بالإيجاب»[1].

يبدو من هذه الرسالة أن أبرز أسباب تحوّل غانم يعود إلى نمط من الواقعية السياسية، فسوريا الفدرالية بدت مشروعاً طوباوياً وشبه مستحيل في ظلّ العجز عن ضمّ فلسطين إليها، فكان الخيار العمل على مشروع أكثر واقعية: تكبير لبنان.

ولكن، ولكي نفهم موقف شكري غانم على حقيقته وبمختلف أبعاده، فلا بدّ من وضعه في إطاره الحقيقي وقراءته على ضوء المشاريع والمطامع الفرنسية في بلاد الشام. ويقدّم لنا الباحث الشهيد سمير قصير عرضاً مختصراً مفيداً لها إذ يقول:«يجدر التذكير، أن ما كانت تطمع به فرنسا كان كامل بلاد الشام من جبال طوروس إلى سيناء حسب التعريف المشهور، تلك المنطقة التي كانت تسمّى في باريس آسيا الفرنسية، أو، بتعبير أكثر دلالة، سوريا الفرنسية، ومن هذا المنظار كانت فرنسا تستند بالتأكيد، في وجه المنافسة البريطانية، إلى ارتباطها الخاص بالموارنة، لكنها كانت تستند أيضاً، وفي الدرجة نفسها، إلى ادّعاء حماية الأراضي المقدسة في

1 - ضو، م. س، ص 50.

فلسطين»[1].

فالسياسة الفرنسية في سوريا كانت إذاً تستند إلى ركيزتين: العلاقات العريقة مع الموارنة وزعم حماية الأراضي المقدّسة، وفي غياب الركيزة الثانية مع بسط الانتداب البريطاني على فلسطين، بات التحالف مع الموارنة الركن الأساسي في السياسة الفرنسية. ومن هنا يمكن فهم التحوّل الفرنسي والاتجاه نحو إعطاء الموارنة ما يطالبون به أي لبنان الكبير.

وتبدو واقعية شكري غانم أكثر وضوحاً في المقدمة التي كتبها لمصنّف زميله د. جورج سمنة الداعي إلى سوريا الفدرالية. ففي حين يقول هذا الأخير "مستقبل الدولة السورية سيكون دولة فدرالية أو لن تكون". يناقضه غانم في المقدّمة فيعلن:«هذا كتاب لأحد السوريين عن سوريا (...) ولكنني أشك كثيراً الآن بأن تتمّ الفدرالية من دون أخطار (...) فهذه الفدرالية ليست ممكنة وغير مستحبّة في هذا الوقت»[2].

وتذكر يوميات المطران عبدالله خوري أن د. أيوب تابت كان يرافق شكري غانم مندوباً عن مهجريي الولايات المتحدة في اتصالاته مع المسؤولين الفرنسيين مثل رئيس الحكومة ميلّران

1 - قصير، سمير، لبنان في السياسة الفرنسية 1920 - 1993، ضمن 50 سنة من استقلال لبنان أعمال الثورة المنعقدة في النادي الثقافي العربي حزيران 1993، بيروت، دار النهار، ط1، 1993، ص 166 - 167.

2- Samné, G., La Syrie, préface de Chekri Ganem, Paris, Ed. Bossard, 1920, p XVII.

وغيره»[1]. ممّا قد يعني أنهما تراجعا عن الدعوة إلى سوريا الفدرالية في زمن واحد.

جبران: لبنان وطني

سبق وذكرنا أن اهتمام جبران بالشأن السياسي تضاءل إلى درجة التلاشي بعد نشر مقالة "لكم لبنانكم". لكن هل بقي على دعوته إلى سوريا الفدرالية، أم تحوّل عنها كما كان شأن زميليه شكري غانم وأيوب تابت؟!

إن انصراف نابغة المهجر عن الكتابة في الشؤون السياسية والوطنية لا يتيح لنا أن نسطّر إجابة قاطعة عن هذه الإشكالية. ولكن هل يمكن التشكيك بلبنانية جبران وهو الذي كتب وبخطّ يده:«لو لم يكن لبنان وطني لاتخذت لبنان وطني»[2].

وأكثر كتاباته، وحتى "النبي"، يفوح منها حنين جارف إلى وطنه. فهو يقول مثلاً في رسالة إلى فيلكس فارس:«لا بدّ من الرجوع إلى لبنان، لا بدّ من التملّص من هذه المدنية السائرة على دواليب»[3].

ولميخائيل نعيمة يقول:«لن أستعيد عزّة نفسي وحرّية فكري وراحة جسمي إلاّ في لبنان»[4].

جبران لبناني بالفطرة وطبعاً لا تطبّعاً. وقد أمضى حياته في

1 - خوري، مفكرة، م. س، ص 53، يوميات 1920/04/08.
2 - نجار، قاموس، م. س، ص 175.
3 - نجار، قاموس، م, س، ص 176.
4 - صليبا، الاغتراب، م. س، ص 86 - 87.

بوسطن ونيويورك مكتفياً بحمل بطاقة الإقامة الدائمة (المعروفة اليوم بالغرين كارد)، ولم يتقدّم بطلب الحصول على الجنسية الأميركية. وهذا ما تورده ماري هاسكل في مذكراتها وتذكره باربارة يونغ وهما أقرب امرأتين إلى حياة جبران»[1].

إنه درس بليغ في الولاء للبنان يعلّمه جبران للبنانيّ اليوم المستشرسين والمتهافتين على الحصول على جنسيات الدول الغربية.

والخلاصة فاعتراض جبران على لبنان الكبير يأتي في سياق تخوّفه على هذا اللبنان وحرصه عليه. تخوّفه من مذابح طائفية، وهذا ما حصل، وحرصه على لبنان -الجبل النقي الذي عرفه- من أن يذوب ويندثر في دنيا التجارة والفساد... الخ.

أما دعوته إلى سوريا الفدرالية فلا يمكن صبغها بالمفهوم الإديولوجي والديماغوجي الحالي.

فسوريا زمن جبران كانت تسمية جغرافية كما أشرنا. فحتى المطران عبدالله خوري رئيس الوفد الثالث وكبير الداعين والعاملين للبنان الكبير، كتب في مذكراته في 1920/09/08 وغداة نهاية مهمته ونجاحها:«حضرنا اليوم لوداع عائلة إسكندر قبل عودنا إلى سوريا»[2].

وكان المطران عائداً يومها إلى بيروت[3]، فهل يصحّ القول عن

---

1 - زغيب، هنري، جبران خليل جبرا،ن، شواهد الناس والأمكنة، بيروت، درغام للنشر، ط1، 2012، ص 162.

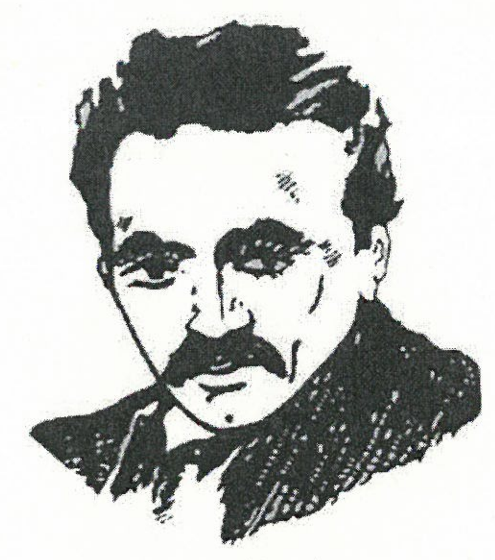
2 - خوري، مفكرة، م. س، ص 145.

3 - استخدم المطران لفظة سوريا بالمعنى الجغرافي العام على ما درجت عليه

كبير الدعاة إلى لبنان الكبير أنه كان سوريّ الهوى؟!

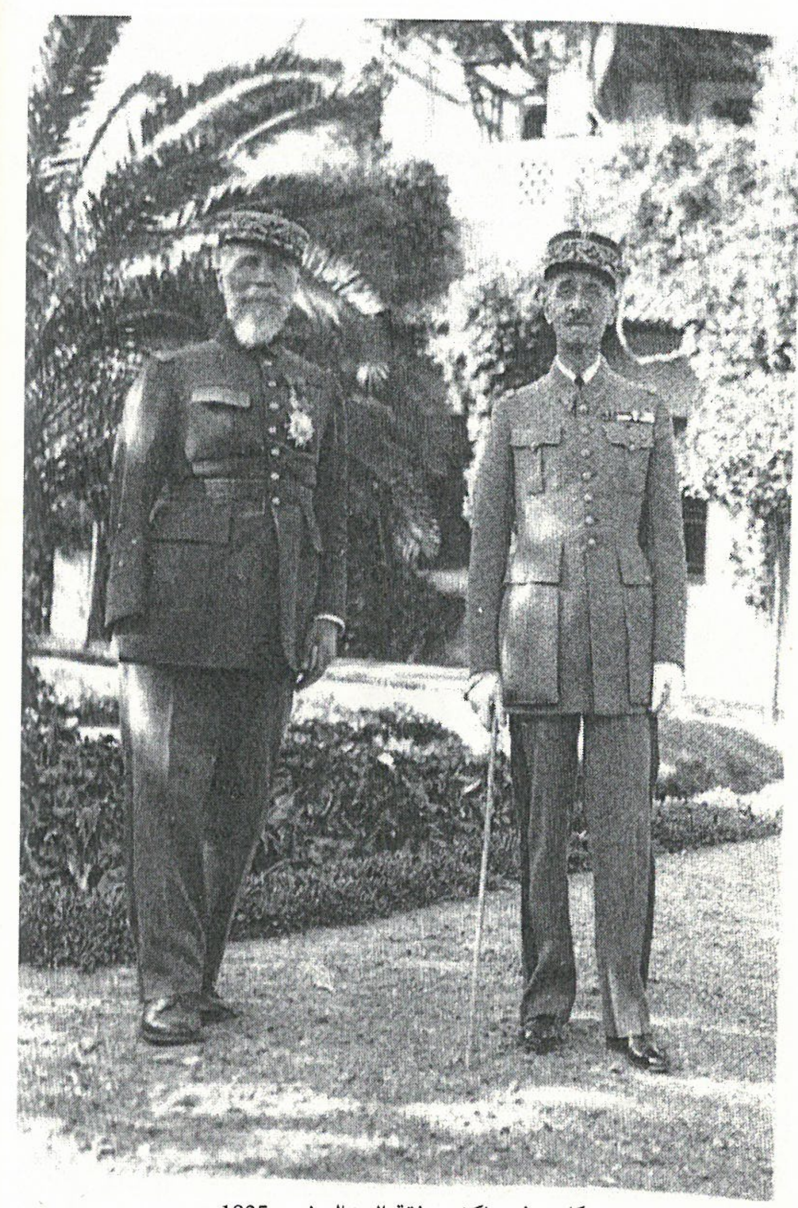
وقولة جبران لي لبناني في مقاله الاعتراضي نفسه تؤكّد تمسّكه بوطنه لبنان، وتدحض ما أشاع بعضهم عن توجّه سوري مزعوم عنده.

وأخيراً، إذا كانت نبوءة جبران عن المجازر الطائفية والمذهبية، وللأسف الشديد، قد تحققت، فهل تصدق نبوءته الثانية، فلا يعمّر لبنان الكبير المتعدّد الرؤوس والرئاسات أكثر من مئة سنة؟!



جبران خليل جبران

التسميات في الدوائر الفرنسية والأوروبية، وبالنسبة إلى اللبنانيين في المهاجر وأوروبا، فالذهاب والإياب والاتصال بالجبل كان يتمّ عبر بيروت ومرفأها. وهي كانت ولاية منفصلة عن إدارة الجبل اللبناني، ومتصلة عبر الحاكم التركي قبل نهاية الحرب بحاكم الولاية السورية.



كاترو في مراكش برفقة الجنرال غورو 1935

باب 2

فصل 4

كاترو: لبنان الكبير خطأ سيكولوجي

مواضيع فصل 4 باب 2:

- كاترو أبرز معاوني غورو.
- كاترو حاكم دمشق.
- دو كيه وكاترو يعارضان لبنان الكبير.
- دو كيه لتجزئة سوريا وكاترو لتوحيدها.
- لبنان الكبير خطأ سيكولوجي.
- كاترو يقنع غورو بإعادة توحيد سوريا.
- **كاترو ودوكيه: خلاف في الرأي والأسلوب.**

نظرية كاترو في الغربال.

كاترو أبرز معاوني غورو

لم يكن دو كيه الوحيد بين رجالات الانتداب وإدارة الجنرال غورو الذي عارض إنشاء لبنان الكبير. فثمة معارض آخر كان من أقرب المقرّبين إلى المندوب السامي، ولكنه لم يجهر بمعارضته إلا بعد زمن طويل: إنه الجنرال جورج كاترو[1]. وكان

---

1 - الجنرال جورج كاترو (1877-1969) بدأ اتصاله بالعالم العربي منذ 1900 عندما دخل مع الجيش الفرنسي إلى المغرب. ثم عمل في الجزائر سنة 1906، وشارك في النشاط الإنساني والاجتماعي والعسكري الذي قاد من 1905 إلى 1911 إلى احتلال المغرب. عمل مبعوثاً لفرنسا في شبه الجزيرة العربية 1919-1920. وعيّن ضابطاً مسؤولاً عن شؤون المسلمين في القيادة الفرنسية لما له من معرفة وخبرات بالشرق الإسلامي. نظّم إدارة فرنسا للانتداب على سوريا 1920-1922. وعيّنه الجنرال غورو حاكماً لدمشق مباشرة بعد دخول الفرنسيين إليها عقب معركة ميسلون. غادر مع غورو عند استقالته ليعيّن ملحقاً عسكرياً في اسطنبول من 1923 إلى 1925. وعاد العام 1925 إلى أفريقيا الشمالية للمشاركة في حرب الريف وفرض السلام على المغرب. استدعي العام 1926 مجدّداً إلى سوريا لحلّ مشكلة الثورة السورية الكبرى وبقي حتى 1930، لينقل منها مجدّداً إلى الجزائر فمراكش حيث عيّن حاكماً عسكرياً لمنطقة مراكش من 1931 إلى 1935. تولّى قيادة الفيلق 19 من الجيش الفرنسي في الجزائر من 1935 إلى 1939. ثم عيّن حاكماً عسكرياً على الهند الصينية 1939-1940. ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية دفعته إلى العودة مجدّداً إلى المشرق. إذ

يومها رائداً في الجيش الفرنسي.

اشتهر الجنرال كاترو، في تاريخ لبنان، بأنه أول من وجّه نداء يعترف فيه صراحة، باسم الجنرال ديغول، باستقلال لبنان. ولكنه، وقبل ذلك بنحو ربع قرن، كان له دور بارز في الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا وترسيخه، وموقف من نشأة الكيان اللبناني، وهذا ما يهمّنا في بحثنا هنا، وما سنعرض له.

كان رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو قد عيّن الجنرال غورو مفوّضاً سامياً على لبنان وسوريا خلفاً لجورج بيكو في تشرين الثاني 1919. فلاحظ غورو بسرعة مزايا الضابط الشابّ الرائد كاترو وذكاءه السياسي، فجعل منه واحداً من أبرز

→ التحق بحركة الفرنسيين الأحرار الرافضين الإذعان لألمانيا النازية والتي تزعّمها الجنرال شارل ديغول. وكان كاترو أعلى رتبة منه. وقد قبل زعامة قائد فرنسا الحرّة رغم أن الإنكليز كانوا يفضّلونه عليه. وأمام إصراره على رفض إقصاء ديغول عن القيادة، كلّف الجنرال كاترو بتمثيل فرنسا الحرة في المشرق، لأنه كان أفضل شخصية فرنسية بإمكانها دفع الفرنسيين الموالين لحكومة فيشي للالتحاق بقوات الحلفاء. فعيّن مفوّضاً سامياً في الشرق 1941. ثم حاكماً عاماً في الجزائر 1943-1944. وسفيراً في الإتحاد السوڤياتي 1945-1948.

ترك كاترو عن فترة تولّيه حاكمية دمشق في الانتداب الفرنسي تقريراً مهمّاً نشر العام 1958 ضمّنه قناعاته وموقفه من الكيان اللبناني. كما ترك عن الحرب العالمية الثانية ودوره فيها وفي المشرق مذكّرات نشرت 1948. وهي تؤرّخ لحقبة مهمّة من تاريخ لبنان والشرق الأوسط. وتعتبر مذكراته هذه مصدراً أساسياً من مصادر تاريخ المنطقة عموماً ولبنان خصوصاً وذلك من 1940 إلى إستقلال لبنان 1943.

معاونيه، ومحضه كامل ثقته. ما أثار غيرة روبير دو كيه السكرتير العام للمفوضية[1]. ومن علاقات الثقة هذه ولدت صداقة دائمة بين الرجلين العسكريين، لم تستطع الأحداث والحروب أن تعكّر صفوها.

كاترو حاكم دمشق

وثمّة حدث بارز رسّخ هذه العلاقة المميزة. إنها محاولة الاغتيال التي تعرّض لها الجنرال غورو على طريق القنيطرة في 1921/07/23. وكان كاترو إلى جانبه وفي سيارته. وعندما قدّم الرائد كاترو استقالته إلى الجنرال شعوراً منه بالمسؤولية، لأنه لم يؤمّن للموكب الحماية اللازمة، رفض غورو الاستقالة، كما رفض تحميل الرائد كاترو حاكم دمشق أية مسؤولية عن الحادث. ما جعل هذا الأخير يقدّر المزايا الإنسانية التي يتحلّى بها قائده الجنرال، وذلك بالإضافة إلى ما كان يكنّه له من تقدير كقائد عسكري ناجح. وبقي كاترو وفيّاً لغورو طيلة حياته ومقدّراً له.

وكان غورو قد عيّن الرائد كاترو في 1920/08/20 نائباً للمندوب السامي وحاكماً لدمشق، وذلك بعد أقلّ من شهر من دخول القوات الفرنسية إلى المدينة إثر معركة ميسلون. وهذا المنصب الإستثنائي وغير المتوقّع جعل من الرائد الشابّ ندّاً مساوياً للجنرالين Billote حاكم حلب وLamothe حاكم اللاذقية. وكان دليل ثقة كبيرة منحها المفوض السامي لمرؤوسه

1- Lerner, Henri, Catroux, Préface de Jean Lacouture, Paris, Albin Michel, 1990, p.78.

الرائد كاترو.

وحفظ هذا الرائد الذي صار لاحقاً من كبار جنرالات الجيش الفرنسي وقادته الجميل لقائده الجنرال. فعندما استقال غورو من منصب المفوّض السامي أواخر 1922 بسبب رفض الحكومة الفرنسية منحه الموازنة المالية التي يطالب بها لمفوضية لبنان وسوريا، أبى كاترو الاستمرار في منصبه المميّز، وطالب بإعفائه منه، وعاد مع جنراله إلى فرنسا على متن الباخرة نفسها[1].

ولم نتوقّف عند هذه العلاقة المميزة والوطيدة والتي ربطت بين كاترو ورئيسه غورو إلا لنشير إلى أنها لم تحل دون مخالفة الأول للثاني في سياسته تجاه لبنان، ورفضه لإنشاء دولة لبنان الكبير، وإن كان كاترو لم يعلن رفضه هذا يومها احتراماً لرئيسه.

دو كيه وكاترو يعارضان لبنان الكبير

ورغم أن كاترو كان على طرفي نقيض، كما سنرى، مع روبير دو كي في النظرة إلى سوريا وسياسة حكمها تحت الانتداب، ورغم ما كان بين الرجلين من تنافس على موقع الرجل الثاني في الانتداب كما أشرنا، فقد التقيا أقلّه على نقطة واحدة هي مخالفة رأي غورو في إعلان لبنان الكبير، وإن كان لكل أسبابه ودوافعه التي تختلف عن الآخر. واتفقا كذلك على اعتبار هذه الخطوة خطأً تاريخياً.

ومنطلقات كاترو في موقفه تختلف كلّياً عن دوافع دو كيه ومبادئه، لا بل تتناقض معها على خطّ مستقيم.

1- Lerner, op. cit, p.82-86.

فقد رأى العسكري الشاب والخبير في الشؤون الإسلامية أنه لن تكون لدولة مستعمرة أو منتدبة أو حامية سياسة قابلة للحياة إذا لم تراعِ الخصوصيات السيكولوجية للمحيط أو المحيطات البشرية التي تطبّق عليها، وإذا لم يظهر ذلك من خلال إدارة تتناسب مع العادات، وتكون في الوقت عينه مولّدة للتطوّر الاقتصادي والاجتماعي[1].

ويضيف كاترو:«هذا هو الثمن الذي على الدولة المستعمرة أن تدفعه حتى تقبل النخبة إخفات شعورها الوطني في معارضتها لوجود حكم أجنبي على أرضها». والحقيقة الأساسية هذه، هي التي كانت أساس عمل غورو في بلاد الانتداب كما صرّح في مذكراته[2].

دو كيه لتجزئة سوريا وكاترو لتوحيدها

كانت نظرة كاترو إذاً مناقضة تماماً لنظرية دو كي. فهذا الأخير كان، كما أسلفنا، يرى وجوب تعامل فرنسا مع الأقليات الدينية لدعم انتدابها وترسيخه على سوريا. أما كاترو فكان من خطّ لويس ماسينيون وغيره القائلين بوجوب التعامل مع الأكثرية الإسلامية السنّية واحترام توجهاتها. وهكذا غدا الجنرال غورو حائراً بين تيّارين متنازعين في قلب إدارته الأول يمثله روبير دو كيه ويدعو إلى تجزئة سوريا إلى دويلات متعدّدة واعتماد

1- Catroux, Général, Deux missions au Moyen-Orient (1919-1922), Paris, Plon, 1958, p. 84.

2- Ibid, p. 84-86.

سياسة فرّق تسد. والتيار الثاني يمثله حاكم دمشق الرائد كاترو ونادى بوجوب أن تتفهّم فرنسا التيّار القومي الوحدوي عوض أن تحاربه. وأن تعمل على ترضيته بمنحه قسماً من طموحاته[1].

وكان كاترو يرى أنه من الخطأ أن يستند مستقبل الوجود الفرنسي في سوريا ولبنان إلى دعم الأقلّيات، ورأى وجوب إنشاء دولة سورية موحّدة قادرة على القيام بدورها في المشرق الحديث[2].

ومن هذا المنطلق تأتي معارضته للبنان الكبير.

ويروي كاترو أنه لم يشارك غورو رؤيته السياسية ووهمه في دور الأقليات. ويقول إنه استلهم سياسة أخرى. ولكن مشاعر الحبّ والاحترام والتقدير التي كان يكنّها لرئيسه غورو دفعته لتغطية أخطائه[3].

وقد عارض كاترو سياسة دو كي القائلة بوجوب تقسيم سوريا في بداية الانتداب الفرنسي إلى دويلات، وفضّل الوحدة الفدرالية. ولم يكن مقتنعاً بصوابيّة تنشيط النزعات الانعزالية المناطقية التي كانت ظاهرة على سطح النشاط السياسي. فالتقسيم الإداري الذي يراعي الخصوصيّات كافٍ برأيه. وهو خطّأ لذلك سياسة الجنرال غورو ومستشاريه والتي قسّمت سوريا إلى دويلات حلب ودمشق والعلويين وسنجق

1- Lerner, op. cit, p.80.

2- Ibid, p. 81.

3- Ibid, p. 80.

الإسكندرون ودولة الدروز، واقتطعت من ولاية سوريا البقاع وصور وصيدا وطرابلس لتضمّها إلى لبنان القديم أي متصرّفية جبل لبنان وتكوّن دولة لبنان الكبير[1].

وقرار تجزئة سوريا هذا والذي سيكون له انعكاسات قوية كان برأي كاترو ردّة فعل من أجهزة المندوبية السامية الفرنسية على فكرة الوحدة السورية التي كان الملك فيصل وأتباعه ينادون بها. فتقسيم مملكة فيصل كان برأي تيار دو كي سيؤدّي إلى تدمير الوحدة الوطنية التي خلقها الملك المخلوع. أما كاترو فرأى أن سياسة التجزئة هذه قد أدّت إلى نتائج عكسية، إذ كانت حافزاً يحرّك الوطنيين السوريين ويثير طموحاتهم[2].

لبنان الكبير خطأ سيكولوجي

وهكذا نجد أن كلاًّ من دو كي وكاترو قد عارض إنشاء لبنان كبير، ولكن من منطلقات متناقضة.

دو كي عارضه من منطلقات تقسيمية وتجزئة، بمعنى أنه جاء أكبر ممّا يجب. أما كاترو فعارضه من منطلقات وحدوية لأنه يشكّل تحدّياً صارخاً لطموحات الأكثرية السنّية الداعية إلى وحدة سوريا الطبيعية.

ولعلّ ميزة موقف الجنرال كاترو أنه تحدّث عن خطأ سيكولوجي اقترفه رئيسه الجنرال غورو. في حين تكلّم الآخرون على خطأ تاريخي وجغرافي.

1- Catroux, op. cit, p.27-26.

2- Catroux, op. cit, p.27.

فقد وجد أن ضمّ أراضٍ سورية ومسلمة إلى لبنان الكبير ذي الأغلبية المسيحية في الأساس، سيولّد أزمة سيكولوجية في العلاقات بين فرنسا وسوريا. كما سيثير الشعور الوطني والحساسيات الطائفية عند السكّان، لأنه سيجعلهم يعتقدون بأن فرنسا تعمل على تفضيل المسيحيين على المسلمين تحت غطاء الانتداب[1].

واللافت في نظرة كاترو قوله إن إنشاء لبنان الكبير كان خطأً سياسياً وسيكولوجياً خطيراً ارتكبه الجنرال غورو والسياسة الفرنسية الانتدابية التي يمثلها، إذ خلق كياناً متميّزاً بتوجّهاته المسيحية على حساب سوريا الإسلامية، ما سبّب لفرنسا عداوة الأكثرية الإسلامية. ويضيف كاترو كان هذا القرار مجازفة فرنسية كبرى غير محمودة العواقب[2].

ويرى كاترو أن غورو بتفضيله للفئات المسيحية على حساب المسلمين زاد في تدهور العلاقات العدائية التقليدية بين الفئتين، وجعل فرنسا فريقاً في الصراع بين الطوائف عوض أن تسيطر عليه لتبقى سيّدة اللعبة[3].

كاترو يقنع غورو بإعادة توحيد سوريا

ولكن كاترو المحبّ لرئيسه غورو والمحافظ على ذكراه يجد مبرّرات لهذا الأخير في سياسته، فيعتبر أن نتائج هذه السياسة لم

1- Catroux, op. cit, p.28.

2- Lermer, op. cit, p.81.

3- Catroux, op. cit, p.57.

تكن خافية على جنراله، ولكن التخوّف من الشعور الوطني العربي-الإسلامي، قاده مع الحكومة الفرنسية إلى جعل لبنان سوراً يحمي الوجود الفرنسي في المشرق[1].

ويردف جورج كاترو زاعماً أنه انتهى به الأمر إلى إقناع الجنرال غورو بوجهة نظره، فتراجع عن تقسيم سوريا إلى دويلات، وأصدر في آب 1922 قراراً بتوحيد دولتي حلب ودمشق رغم معارضة الجنرالين Billote وLamothe حاكمي دولتي حلب والعلويين على التوالي[2].

ولكن، وبالمقابل، لم يكن بمقدور غورو، تبعاً لكاترو، أن يعيد إلى سوريا "أراضيها القديمة" التي سلخت عنها وضمّت إلى لبنان. وذلك خوفاً من إثارة غضب المسيحيين ونقمتهم»[3].

كاترو ودوكيه: خلاف في الرأي والأسلوب

والخلاصة ينبع رأي الجنرال كاترو في رفضه للبنان الكبير من أسس ودوافع مناقضة تماماً لرؤية دو كي ومرتكزاتها. وإن كان قد التقى مع منافسه حول نقطة محدّدة ومعينة وهي رفض ضمّ عدد من المناطق والمدن التي كانت تنتمي إلى الولايات السورية إلى لبنان الكبير.

ويبقى أن بين الاثنين خلافاً إلى حدّ التناقض في الرأي وفي

1- Ibid, p. 58.

2- Lerner, op. cit, p.81.

3- Catroux, op. cit, p.29.

الأسلوب في آن. الخلاف في الرأي سبق وتعرّضنا له. أما الخلاف في الأسلوب فينبع من موقع كل منهما وشخصيته. فدو كي دبلوماسي ينافس غورو نفسه ويطمح إلى الحلول مكانه. أما كاترو فعسكري يحبّ قائده، ويطيع أوامره، وإن لم يقتنع بها. والمبدأ العسكري يقول نفّذ ثم اعترض. وهو لم يكن بمقدوره، ولا في نيّته، مواجهة قائده ورئيسه كما فعل دو كي وحاول دوماً أن يفعل. لذا اكتفى باطلاعه على وجهة نظره محاولاً إقناعه بها. وهو يزعم أنه نجح بالنتيجة في ذلك، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن صار لبنان الكبير أمراً واقعاً لا يمكن التراجع عنه.

واللافت أن كاترو لم يصرّح بموقفه هذا علناً، كما فعل دو كي، فهو، كما أسلفنا، عسكري وملزم بإطاعة رئيسه، ولم يجهر به إلا بعد مضي نحو أربعين سنة (1958) على الحدث أي إعلان لبنان الكبير. لذا لم يكن لهذا الموقف أي تأثير على مجرى الأحداث، ولم يعرف به يومها على الأرجح إلا غورو وبعض رجال إدارته.

نظرية كاترو في الغربال

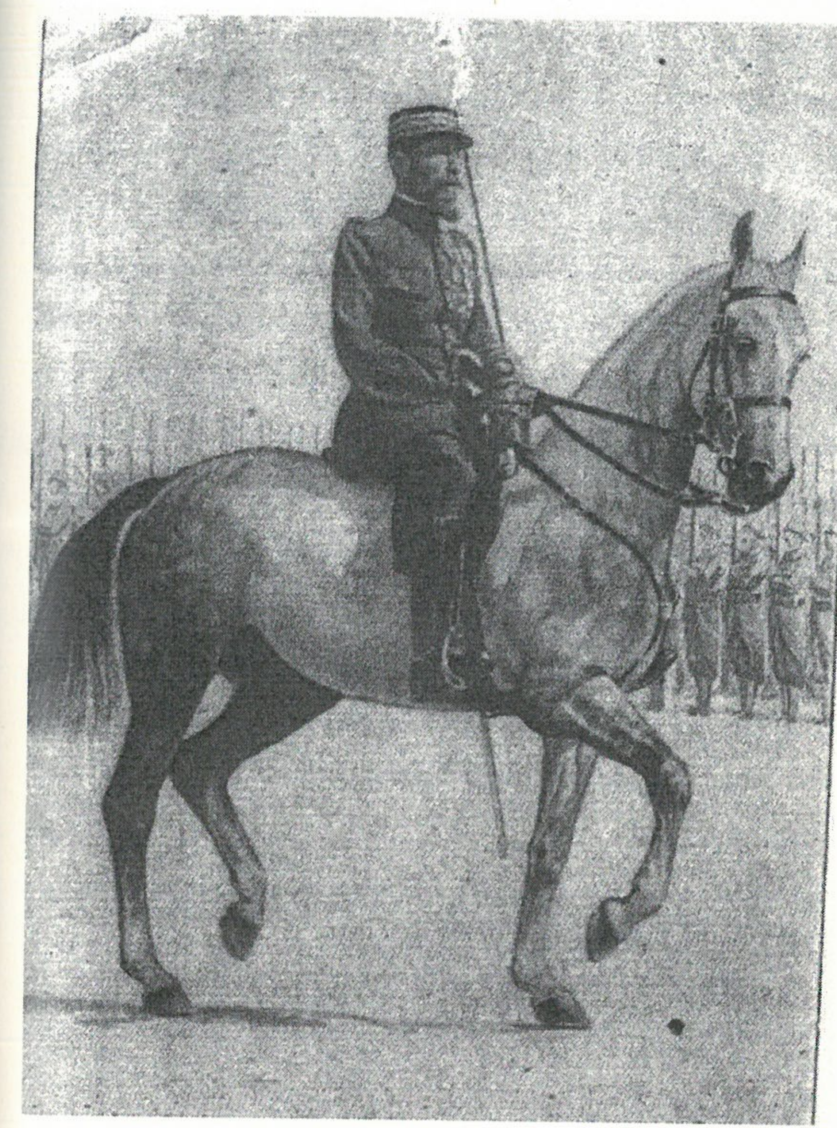
والخلاصة فكاترو يستوحي موقفه من توجّهات وحدوية وآرائه العلمانية اللاكاهنية التي لا تحبّذ الإكليروس[1]. ولكنه ينظر بعين واحدة نظرة أحادية الجانب. فهو يدعم التوجّهات الاتحادية على حساب رأي الأقليات وطموحاتها. وسياسة كهذه

1- Lerner, op. cit, p.85.

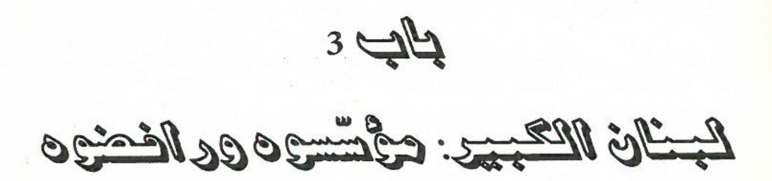
لو انتهجتها فرنسا يومها لكانت افقدتها حلفاءها التقليديين: الموارنة والعلويين وغيرهما بالتأكيد، من دون أن تكسبها حكماً الأكثرية السنّية التي كانت، ومنذ البدء، عدائية تجاهها. وهي بالتالي غير مضمونة العواقب. لقد حاول الجنرال غورو، وبعد أقل من سنة من إعلان لبنان الكبير، أن يمضي في مشروع الفيدراسيون وضمّ لبنان الكبير وبطريقة ما إلى وحدة سوريّة، فلاقى معارضة خطيرة من الموارنة وعلى رأسهم البطريرك، بل وتهديداً بالثورة، كما سنرى في فصل لاحق، ممّا اضطرّه إلى الانكفاء والعدول عن مشروعه. وكاترو نفسه سيعود في حقبة الاستقلال 1943 ليواجه محاولات انكلترة وممثلها الجنرال سبيرز لتجزئة لبنان كما سنذكر، وذلك تنفيذاً لسياسة قائده الجنرال ديغول.

وبكلمة فـ دو كيه في معارضته للبنان الكبير كان أكثر واقعية من كاترو. فالأول رأى أن لبنان الكبير أكبر من اللازم والضروري. أما الثاني فآثر الضمّ والوحدة، وهي مشاريع لم تكن لتمرّ.

وفي أية حال، يصعب الحكم على آراء كاترو، لسبب بسيط وهو أنه عبّر عنها بعد مضي نحو أربعين عاماً على الحدث أي إعلان لبنان الكبير؛ وهي بالتالي لا تخلو من قراءة استذكارية Retrospective للماضي وللحدث على ضوء ما استجدّ وتبعه من أحداث. أما دو كيه فقد عبّر عن رأيه في قلب الحدث، وتوقّع ما سيحدث لاحقاً، وكان مصيباً في بعض توقعاته.



الجنرال غورو/بطاقة بريدية



باب 3

لبنان الكبير: مؤسّسوه ورافضوه

فصول باب 3:

- فصل1: غورو يعلن لبنان الكبير.
- فصل2: المواقف من لبنان الكبير.
- فصل3: الروم ولبنان الخطأ التاريخي.
- فصل4: نجيب سرسق القائل: لبنان خطأ.
- فصل5: الإسرائيليون ولبنان الخطأ التاريخي.

باب 3

فصل 1

غورو يعلن لبنان الكبير

مواضيع فصل 1 باب 3:

- مراسلات غورو وميلّران

غورو ينجح في إقناع رئيس حكومته

أركان سياسة غورو

- خطاب غورو يوم إعلان لبنان الكبير

قراءة في خطاب غورو

مراسلات غورو وميلّران

كان الجنرال غورو المندوب السامي الفرنسي الحازم يرى، وخلافاً لرأي معاونه دو كيه، وجوب ضمّ المدن الساحلية للكيان اللبناني الذي عزم على إعلانه. وقد ربطت بين هذا القائد الفرنسي الكاثوليكي والبطريرك الماروني علاقة وطيدة. وكان الجنرال يتجاوب عفوياً مع المشاعر والرغبات المارونية، وهذا ما لم يكن شأن معاونه دو كيه.

وكانت العقبة الكبرى أمام غورو إخراج الدوائر الفرنسية ولاسيما رئاسة الوزراء من دائرة تأثير دو كيه.

وفي البرقيات السريّة المتبادلة بين ميلّران رئيس الوزراء والجنرال غورو ما بين 6 و 1920/08/23 أي في الفترة التي كانت مشاريع إعلان دولة لبنان والدول الأخرى في منطقة الإنتداب الفرنسي في طور النضوج، يتبيّن لنا سعي المندوب السامي الحثيث لإقناع حكومته بصوابيّة آرائه في ضمّ الأقضية الأربعة (حاصبيا، راشيا، البقاع وبعلبك) والمدن الساحلية إلى لبنان الكبير. أما ميلّران فكان عموماً يكرّر آراء دو كيه في هذا الشأن.

ويلخّص رئيس الحكومة الفرنسية في رسالة إلى مندوبه السامي موقفه ورؤياه: فهو يعارض ضمّ طرابلس إلى لبنان للأسباب التي شرحها له دبلوماسيّه دو كيه، في حين أنه اقتنع

أخيراً بضمّ بيروت رغم المحاذير من ابتلاعها للبنان. ولا يرى مفرّاً من إلحاق كامل سنجق صيدا ذي الغالبية الشيعية الساحقة بلبنان. يقول ميلّران لجنراله:«وهناك شرط أساسي آخر: تكوين لبنان كبير بإلحاق البقاع (أي السهل الضروري لحياة الجبل) وجبل عكار (أي شمالي السلسلة الجبلية حيث أكثر سكّانها من المسيحيين) حتى النهر الكبير عازلين بذلك طرابلس المركز السنّي. ويبدو أنه من الصعب أن لا ندمج بلبنان، وذلك بالرغم من اعتراضات الموارنة، سنجق صيدا، أي المسلمين المتاولة الشيعة سكان بلاد صور وصيدا الذين لا يمكن أن نتركهم معزولين بين لبنان وبين المستعمرات الصهيونية التي تجتاح شمالي فلسطين، فأقلّ ما يمكن: أن يربط سنجق صيدا بلبنان بشكل فدرالي مع بعض الاستقلالية»[1].

غورو ينجح في إقناع رئيس حكومته

ويتابع ميلّران بشأن طرابلس وبيروت، فيعلن عن ضرورة ضمّ الثانية وفصل الأولى، فيقول:«أما بشأن مسألة المرافئ، فلا يبدو أنها ستطرح بالنسبة لنا مشكلة. ففي ظلّ نظام الاتحاد الجمركي، يمارس لبنان تجارته البحرية. ثم إن نظام "المدن المستلحقة المستقلة" Régime de Municipe يتناسب تماماً مع وضع طرابلس. وهي مركز إسلامي سنّي لا يرغب بالالتحاق

1 - كوثراني، د. وجيه، بلاد الشام، السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، قراءة في الوثائق، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط1، 1980، ص 220.

ببلاد مسيحية. أما بالنسبة لبيروت، فنظراً لكونها مدينة مهمّة ومكتظّة، فإنها لايمكن أن تكون إلا عاصمة لبنان. بيد أن ذلك يؤدّي إلى مجازفة: هي ابتلاعها للبنان، ويطرح محذوراً هو معارضة سكّانها لهذا الإجراء. وأيّاً تكن الحالة التي نقرّر فيها ربط بيروت بلبنان: فينبغي لها أن تحتفظ باستقلالية بلدية ومالية Municipale et budgétaire »[1].

نجد ميلّران في طروحاته هذه أكثر اقتراباً من غورو في المسافة التي تفصل بين هذا الأخير وبين دو كيه. ولكنه يحتفظ من هذا الأخير بضرورة إبقاء طرابلس الحاضرة السنّية الأصولية مفصولة عن لبنان، في حين أن المصلحة الفرنسية وضرورات الوضع السياسي والموقع الجغرافي تملي عليه وجوب ضمّ كامل سنجق صيدا بما فيه جبل عامل إلى لبنان.

لم يبقَ على المندوب السامي إذاً سوى إقناع رئيسه بضمّ طرابلس إلى لبنان الكبير. ففي برقية له يؤكّد غورو لميلّران أن رفض دو كيه ضمّ طرابلس لم يعد له من مبرّر بعد سقوط مملكة فيصل:«إنها ذكرى تلك الفترة التي سمحت للسيد دو كيه أن يقول لسعادتكم إن طرابلس الشام لا ترغب بالالتحاق بلبنان الكبير. لكن اختفاء الأمير قد عدّل كلّياً شكل المسألة. وبصورة أخصّ أنقص حماس وأهمية هذه المطالب (مطلب أنصار فيصل في طرابلس بالانضمام إلى سوريا). إن مسلمي طرابلس الشام يقبلون اليوم طوعاً الارتباط بلبنان الكبير على أن

1 - م. ن.

يحافظوا على استقلال إداري من السهل أن نضمنه لهم»[1].

وفي برقيات متلاحقة وجّهها إلى ميلّران بتاريخ 1920/08/13 عرض الجنرال الأضرار التي تنتج عن اقتراح ميلّران في جعل طرابلس مستلحقة فدرالية سوريه وخلاصتها أن عدم ضمّها سيزيد من النزعات الإسلامية المعادية للفرنسيين في المدينة. في حين أن ضمّها سيؤمّن أكبر قدر ممكن من الضرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة اللبنانية المزمع إعلانها.[2] وينهي غورو برقيته المؤرخة في 1920/08/13 بما يلي:«إنني أطلب اليوم من سعادتكم، بصورة خاصة وملحّة، أن تسمحوا وفق الشروط المذكورة آنفاً بإعلان قيام لبنان الكبير في وقت قريب جدّا، وجعل بيروت عاصمته، وطرابلس ملحقة به»[3].

ولا يبدو أن الجنرال الحازم كان قد أقنع رئيسه كليّا بصوابية ضمّ طرابلس إلى لبنان الكبير. فهذا الأخير يعود وفي برقية له للجنرال بتاريخ 1920/08/23 إلى إبداء تحفّظاته على إلحاق طرابلس بلبنان، وكذلك ضمّ بيروت إليه[4].

ولكن يظهر أن إصرار غورو ليّن من مواقف رئيسه. ففي وثيقة لميلّران بتاريخ 1920/08/24 موجّهة إلى المطران عبدالله الخوري رئيس الوفد اللبناني الثالث إلى مؤتمر الصلح أكّد على موافقته على ارتباط مدينتي بيروت وطرابلس بلبنان ارتباطاً

1 - كوثراني، م. س، ص 225.
2 - م. ن، ص 226.
3 - م. ن، ص 227.
4 - م. ن، ص 231.

كلّياً. يقول ميلّران في هذه الوثيقة التاريخية المهمّة:«فرنسا تريد أن تكوّن لبنان الكبير وأن تحقّق لبلادكم حدودها الطبيعية. فيجب أن يشمل جبل لبنان من الجهة الشمالية جبل عكار ثم يمتدّ إلى الجنوب لحدود فلسطين. وأن تتّحد معه شديد الاتحاد مدينتا بيروت وطرابلس، مع الاحتفاظ الوحيد بأن يكون لمجلسي بلديتهما استقلال ذاتي متسع لرعاية ما بين هاتين المدينتين والجبل من الفرق الاقتصادي»[1].

أركان سياسة غورو

وكانت سياسة الجنرال غورو في السعي إلى إنشاء لبنان الكبير وإعلانه تقوم على ركنين:

1 - المصالح الفرنسية تتقاطع تماماً مع المصلحة اللبنانية في إنشاء لبنان الكبير. يقول غورو في برقية إلى رئيسه ميلّران بتاريخ 1920/08/13:«يجب أن نعطي الدولة اللبنانية والتي ترتبط مصالحها بصورة لا تقبل الفصل بمصالحنا أكبر قدر ممكن من الامتداد والقوة وفق احتياجاتها السياسية والاقتصادية»[2].

2 - مكافأة الموارنة والكاثوليك عموماً على موالاتهم الدائمة والقديمة لفرنسا. وقد عبّر غورو عن هذا الدافع بوضوح في خطابه في زحلة في 1920/08/03 عندما أعلن رسمياً ضمّ البقاع إلى لبنان إذ قال:«عندما رست بي سفينتي منذ ثمانية أشهر في هذا البلد كنت أعرف منذ وقت طويل العلاقات التقليدية

1 - حرفوش، م. س، ص 646.
2 - كوثراني، م. س، ص 226.

للبنان مع فرنسا ... وخلال هذه الثمانية أشهر بقي لبنان بأكثريته الساحقة موالياً لفرنسا، وهذه الموالاة ستحصل اليوم على مكافأتها ... ومن جهتنا يمكننا القول، إننا نحن الفرنسيين دفعنا الدين المترتّب على ولائكم القديم لنا»[1].

خطاب غورو يوم إعلان لبنان الكبير

وفي 1920/09/1 أعلن الجنرال غورو من مقرّه في قصر الصنوبر في بيروت، وفي حفل مهيب، قيام لبنان الكبير. وألقى بالمناسبة خطاباً شهيراً جاء فيه:

«يا أهل لبنان الكبير، إن اليوم الذي انتظره آباؤكم عبثاً، والذي ستكونون أنتم فيه أحسن حظّاً منهم، فترون فجره قد طلع، هو هذا اليوم.

أمام هذا الشعب المحتشد، المتقاطر من جميع البلدان التي يشرف عليها لبنان وكانت أمس متجاورة، فأصبحت متّحدة في وطن قويّ بما فيه، وعظيم في مستقبله.

وأمام أرباب الحكومة اللبنانية، وأبناء أشهر الأسر والرؤساء الروحيين من جميع المذاهب والطوائف، والذي أحييّ في مقدّمتهم البطريرك اللبناني العظيم الذي نزل من جبله، لحضور اليوم المجيد الذي يكلّل مكافحات حياته. وبمشهد من ممثلي الدول التي جاهد أكثرها معنا ذلك الجهاد الطويل، انتصاراً للحق والحرية. وتجاه هذه الجبال الشامخة التي كانت قوة بلادكم، إذ لم تزل الحصن المنيع لإيمانها وحرّيتها. وعلى شاطئ

1- Zamir, op. cit, p. 93.

البحر الشهير بغرائبه الذي شاهد مراكب فينيقيا واليونان وروما، وحمل إلى أقطار المعمورة أجدادكم الذين عرفوا بالحذق والمقدرة التجارية وفصاحة اللسان، وهو الآن بعود حميد يحمل إليكم تثبيت مواثيق ودّ عظيم قديم ومنافع السلم الفرنسي.

فعلى مرأى ومسمع من هؤلاء الشهود جميعاً، شهود أمانيكم ومكافحتكم وانتصاركم، وبالاشتراك في فرحكم وافتخاركم **أعلن أمام الملأ لبنان الكبير.**

وباسم حكومة الجمهورية الفرنسية، أحيّيه في عظمته وقوّته من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين وقمم لبنان الشرقي. ذلك هو لبنان، بجبله حيث يخفق قلب هذه البلاد المضطرم. بسهل البقاع الخصيب، وقد تكرّس اتحاده في يوم زحلة الذي سيحفظ ذكره في الصدور. بمدينة بيروت المرفأ الأعظم للدولة الجديدة ومقرّ حكومتها. بمدينتي صيدا وصور صاحبتي الماضي الشهير اللتين ستجدّدان شبابهما باتحادهما بوطن كبير. هذا هو الوطن الذي هتفتم له وحيّيتموه»[1].

قراءة في خطاب غورو

نلاحظ في خطاب غورو أنه حيّا كل رجال الدين الحاضرين ولم يخصّ بالذكر الا البطريرك الحويك وسمّاه: "البطريرك اللبناني العظيم" لا البطريرك الماروني، دلالة على أنه يعتبره بطريرك كل لبنان، بل وبطريرك إعلان لبنان الكبير، فغورو يردف عنه وعن

1 - فهد، م. س، ص 168-169.

الإعلان:«الذي نزل من جبله لحضور اليوم المجيد الذي يكلّل مكافحات حياته».

أما نظرة غورو إلى تاريخ لبنان فهي النظرة المارونية المسيحية التي تركّز على تاريخه الفينيقي وتغضّ النظر عن الحقبة العربية الإسلامية. «وعلى شاطئ البحر الشهير (...) الذي شاهد مراكب فينيقيا واليونان وروما» ونلاحظ أنه يذكر من المدن الساحلية المنضمّة إلى لبنان الكبير بيروت وصيدا وصور وينوّه بماضي هاتين الأخيرتين الفينيقي بالطبع. ولكنه لا يأتي على ذكر طرابلس رغم أنها كانت عقدة العقد في مسألة الضمّ إلى لبنان، وإن كان قد ذكر ضمّها ضمناً بقوله عن حدود لبنان "من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين."

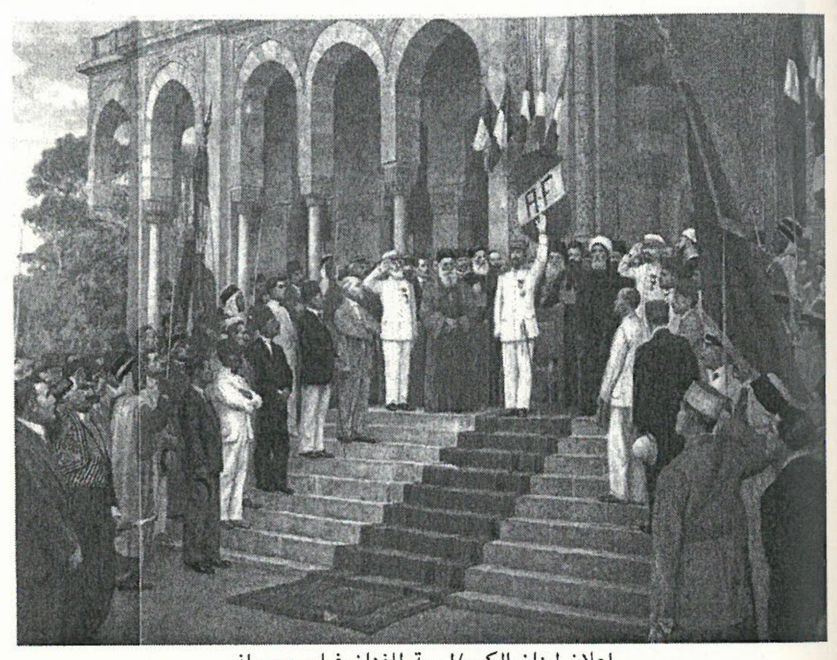
وخطاب غورو يعكس ببساطة الفلسفة المسيحية والمارونية تحديداً للبنان بجغرافيته وتاريخه الفينيقي وارتباطه بالغرب (اليونان وروما) ودوره.

صورة الاحتفال ودلالاتها

وبعد التصفيق الحادّ لغورو، وقف البطريرك الماروني وألقى كلمة إطراء وشكر لفرنسا وغورو، ومسح دمعة كانت أفصح وأبلغ من أي خطاب.

وتلفتنا الصورة التذكارية لهذا الاحتفال، ولعلّها الوحيدة الباقية، فعلى رأس الحضور وأمام باب قصر الصنوبر يجلس الجنرال غورو، وعن يمينه يجلس البطريرك الحويك وعن يساره مفتي بيروت مصطفى نجا. وهذه الصورة عميقة الدلالة

برمزيتها. إنه الزواج بين الموارنة والسنة الذي باركه المنتدب الفرنسي. أو بالأحرى زواج الخطيفة بعد أن خطف العريس الماروني العروس السنية ابنة المدن الساحلية، وعقد قرانه عليها بالمباركة الفرنسية. وتبيّن مع الزمن أن هذا الزواج لم يكن زواجاً مدنياً قابلاً للانفصال، بل زواجاً مارونياً لا طلاق فيه. وها هو هذا الزواج وبعد مضي نحو قرن عليه (1920-2013) لا يزال قائماً رغم ما تعرّض له من خضّات. فالكيان المعلن في أول أيلول 1920 والذي حمل بداخله ومنذ البدء الكثير من عوامل تفجيره لا يزال يصارع في سبيل الاستمرار.



إعلان لبنان الكبير/لوحة للفنان فيليب موراني



موكب الجنرال غورو يمرّ في حلب في 1920/09/13: عدنا يا صلاح الدين

باب 3

فصل 2

المواقف من لبنان الكبير

مواضيع فصل 2 باب 3:

ضمّ جبل عامل قرار فرنسي

تكبير لبنان تصغير لمارون

كسب في المساحة مقابل خسارة التوازن

إعلان لبنان الكبير أبرز حدث معاصر

لبنان الكبير اعتبر انتصاراً للمسيحيين

السنّة يقاطعون لبنان الكبير

الروم يسايرون السنّة

ضمّ جبل عامل قرار فرنسي

لا بدّ بداية من أن نلحظ ونقرّ أن المحصّلة النهائية، أي إعلان لبنان الكبير بحدوده التي رسمها الانتداب الفرنسي، لم تكن تتطابق مع برنامج أو مشاريع أي حزب أو فريق سياسي لبناني. فحتى الموارنة وبطريركيتهم التي كانت على رأس الساعين إلى تكبير المتصرفية لم تكن ترغب، على ما يبدو، في ضمّ جبل عامل بأكثريته المتوالية (الشيعية) الساحقة إلى لبنان. وقد عبّر عن ذلك ميلّران رئيس الوزراء الفرنسي في برقية سرّية موسّعة إلى الجنرال غورو تحمل عنوان "مخطّط لتنظيم الانتداب الفرنسي في سوريا" بتاريخ 1920/08/06، وقد سبق ذكرها. وفيها يقول:«ويبدو أنه من الصعب أن لا ندمج بلبنان، وذلك بالرغم من اعتراضات الموارنة، سنجق صيدا أي المسلمين المتاولة الشيعة سكّان بلاد صور وصيدا الذين لا يمكن أن نتركهم معزولين بين لبنان وبين المستعمرات الصهيونية التي تجتاح شمالي فلسطين. فأقلّ ما يمكن: أن يُربط سنجق صيدا بلبنان بشكل فدرالي مع بعض الاستقلالية»[1].

لكأن ميلّران كان يتنبأ بحدسه السياسي بما سيحدث لهذه المنطقة من صراعٍ دامٍ وطاحن مع الكيان اليهودي المزمع

1 - كوثراني، م. س، ص 220.

إقامته. ولكن ما يهمّنا من بوحه التاريخي لجنراله غورو إشارته إلى المعارضة المارونية لضمّ جبل عامل. وكان الموارنة قد أبدوا بالفعل معارضة لضمّ هذه المنطقة إلى لبنان الكبير، وعبّر عن ذلك المطران عبدالله خوري رئيس الوفد الثالث في رسالة إلى البطريرك الحويك (1920) يشرح له فيها مخاوفه من أن تؤول الأمور إلى أنهم (الفرنسيون) «يأخذون المدن والأراضي الخصبة، ويضيفون إلينا جبالاً على جبال، ويعطوننا نحو 80 ألف شيعي»[1].

وهذه الرسالة تبيّن صعوبة الخيار الماروني آنذاك. فوراء الطموح إلى منافذ بحرية وسهول خصبة يكمن خطر الذوبان في أكثرية سكّانية إسلامية (سنّية وشيعية). ولعلّ خيار المطران وبطريركه كان يُختصر في أنه إذا كان لا بدّ من شرب كأس ضمّ المدن الساحلية ومعها حكماً أكثريتها السنّية فأزيحوا عنا، على الأقلّ، كأس الأكثرية المتوالية الشيعية. ولكن كان للجغرافيا وللجوار الفلسطيني والصهيوني حكمه المبرم في هذا المجال. ولم يكن أمام الفرنسيين مفرّ من ضمّ سنجق صيدا، بما فيه جبل عامل، كما صرّح ميلّران لغورو.

تكبير لبنان تصغير لمارون

كان الموارنة إذاً أمام معادلة جديدة: الانتقال من أكثرية

1 - العلم، فيغان، البطريرك الحويك وإعلان دولة لبنان الكبير عام 1920، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1996، ص 213.

ساحقة في المتصرفية إلى أغلبية طفيفة في لبنان الكبير، ومن سيطرة مطلقة إلى وجوب احترام التوازن الديموغرافي. ولعلّهم لم يعوا أبعاد المعادلة الجديدة إلا تدريجياً ومع الزمن. وقد عبّر عن ذلك أحد المفكّرين المسيحيين جورج سمنة بقوله:«أي وطن قومي مسيحي هو هذا الذي نصف سكّانه من غير المسيحيين»[1].

وينقل تقرير مرسل إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 1920/08/09، بعض المخاوف المارونية من هذا التغيير الديموغرافي الذي من شأنه أن يخلّ بموازين القوى ويغيّر قواعد اللعبة.إذ جاء فيه:«يبدو أن سيادة المطران عوّاد، مطران قبرص، يخشى على مواطنيه من امتداد كبير للبنان. فبهذا يصبح الموارنة أقلّية، ويفقدون السيطرة على امتيازاتهم واستقلالهم»[2].

وفي قصيدة ساخرة يبيّن السياسي والشاعر اللبناني شبل دمّوس[3] انقلاب المعادلة المارونية بين اللبنانين الصغير والكبير فينشد متهكّماً:

1 - طرابلسي، م. س، ص 144.

2 - مراد، م. س، ص 146.

3 - شبل دموس (1871-1939) سياسي وأديب وصحافي وشاعر لبناني. ولد في زحلة. سافر في 1889/05/15 إلى نيويورك وأسّس فيها جريدة الأيام وجعلها منبراً لمهاجمة السلطنة العثمانية. عاد إلى زحلة 1908 على أثر صدور الدستور العثماني. عيّن قاضيا 1910. انتخب نائباً في البرلمان اللبناني في دورات ثلاث 1922 و1925 و1929. عيّن عضواً في اللجنة المكلّفة بوضع الدستور اللبناني 1926. له العديد من المقالات والقصائد في صحف زمانه.

أبناء مارون هلاّ كان سعيكم — إلا وبـالاً علـيكم غـير ميمـونِ
ظننتم كبر لبنـان يشـرّفكم — فتهجـرون مقـام الـذلّ والهـون
تـالله مـا قـدركم إلا الصـغير — ففي تكبير لبنان تصغير لمـارون[1]

ومعادلة دمّوس لما تزل قائمة: في تكبير لبنان تصغير لدور الموارنة وامتيازاتهم.

كسب في المساحة مقابل خسارة التوازن

ولعلّ المؤرّخ المستشرق اللبناني الأصل فيليب حتي (1886-1978) كان الأكثر رزانة وحياداً في وصفه لانقلاب الموازين والمعادلات مع لبنان الكبير، إذ يقول:«أما المدن البحرية التي ألحقت بلبنان بيروت العاصمة وصيدا وصور وطرابلس والمدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون، فإنها كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخياً وجغرافياً. وكان يحكمها أحيانا المعنيون وتارة أخرى الشهابيون. غير أن مساحة الأرض التي ألحقت بلبنان ضاعفت تقريباً مساحته، وزاد عدد سكّانه بما يقرب من مئتي ألف نسمة معظمهم من الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخّرة اقتصادياً واجتماعياً (...) ولكن هذا الكسب في مساحة الأرض كان يقابله عدم تجانس في السكّان ونقص في التمازج والترابط. ذلك أن لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً. ولكن من الناحية الجغرافية والاقتصادية أصبح لبنان دولة تستطيع البقاء. أما الأكثرية المسيحية، فلم تظلّ لها تلك الأكثرية

1 - طرابلسي، م. س، ص 143.

الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل»[1].

ويعتبر أستاذنا المؤرّخ عبدالرؤوف سنّو أن الشائبة الأساسية في لبنان الكبير كمنت في فقدان التجانس الديموغرافي، وهل يمكن لمجتمع وكيان أن يقوما على خوف ديموغرافي وسياسي متبادلة؟! يقول:«العيب الرئيسي في دولة لبنان الكبير أنها ضمّت طوائف مختلفة دينياً وبخصوصيات متنافرة، ما جعل هذا الاجتماع يقوم على الخوف الديموغرافي والسياسي والثقافي المتبادل»[2].

ورغم ما حوى من محاذير وحمل من مطبّات فقد كان إعلان لبنان الكبير في 1920/09/01 أبرز حدث في تاريخ لبنان في القرن العشرين. وكل الأحداث التالية مثل: إعلان الدستور 1926 وقيام الجمهورية، الاستقلال والميثاق 1943، أزمة 1958، الحرب اللبنانية (1975-1990) جاءت بمثابة تداعيات وذيول وردّات فعل أو تكلمة للحدث الأساسي والأبرز: لبنان الكبير. واستمرّ الأوّل من أيلول العيد الوطني للبنان حتى الاستقلال 1943. ولا يزال إلى اليوم ثمّة من يدعو إلى اعتماده عيداً وطنياً:«وهو برأينا عيد لبنان الصحيح»[3].

1 - حتي، فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، ط2، 1972، ص 597-598.

2 - سنّو، لبنان الطوائف، م. س، ص 44.

3 - صفير، الأب الدكتور بولس، دور البطريرك عريضة في استقلال لبنان، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، م. س، ص 400.

إعلان لبنان الكبير أبرز حدث معاصر

وفي ذلك يقول المؤرّخ الباحث مائير زامير في خلاصة بحثه في تاريخ لبنان الحديث:«إذا كان ثمة من حدث يستطيع أكثر من غيره تلخيص شخصية الدولة اللبنانية وتطوّرها، فهو من دون شكّ إعلان دولة لبنان الكبير في 1920/09/01»[1].

ويتابع زامير شارحاً رأيه:«هذا الحدث الذي اغتصب كل طموحات المسلمين، كانت له مضاعفات بعيدة المدى في تطوّر لبنان، حيث سيطرت الأزمات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين المسيحيين والمسلمين على مجمل تاريخه اللاحق، وتلاحقت المحاولات الفاشلة لإيجاد حلّ يربط المجموعة الأخيرة بالحياة اللبنانية»[2].

يعتبر زامير إعلان لبنان الكبير أساس كل الأزمات والمصائب اللاحقة التي المّت بهذا البلد. ويضيف:«وبالرغم من كل هذه الجهود لم ينجح لبنان في تجاوز مضاعفات حدث 1920. وهذا الفشل كان يظهر دائماً في التوتّر المستمرّ بين المسيحيين والمسلمين في لبنان وفي علاقته مع العالم العربي المسلم وخاصة مع سوريا»[3].

ويمضي زامير فيعتبر لبنان الكبير سبب الحرب الأهلية، والتي كانت لما تزل مشتعلة عندما كتب بحثه فيقول:«والحرب

1- Zamir, op. cit, p.I.

2- Ibid.

3- Ibid.

الأهلية سنة 1958 وفي سنة 1975-1976 والتي لم تنته بعد، تعود جذورها إلى توسيع حدود لبنان. ويمكن القول إن خلق لبنان الكبير بذر بذور تدمير استقلالية الكيان المسيحي، مع أن الخطّة كانت أن يكون ضماناً له»[1].

هل ركّب لبنان على السن الأعوج، وفق التعبير الشعبي، في الأول من أيلول 1920، وكان مجرّد دعسة ناقصة جرّت كل ما تلاها من ويلات. لا شك أن زامير من موقعه كباحث إسرائيلي يجد مصلحة في تضخيم الآثار السلبية للبنان الكبير، فقد نغّص هذا اللبنان عيش دعاة الصهيونية العالمية[2]، لأنه أسقط أحلاماً قديمة لهم بمياه الليطاني وأقسام من الجنوب، ممّا سنعود إلى ذكره. ولكن يبقى أن حكم هذا الباحث المؤرّخ يشير إلى ثابتة تاريخية لا يمكن إغفالها أو التعامي عنها: لبنان الكبير في أساس كل الأحداث التي تلت إنشاءه بسلبها وإيجابها. وقد شكل آنذاك تحدّياً سافراً بالأخصّ لمسلمي المدن الساحلية الذين خُطفوا يومها ووجدوا أنفسهم مكرهين على هذا الزواج الماروني-السنّي، الذي لمّا يزل قائماً إلى اليوم.

لبنان الكبير اعتبر انتصاراً للمسيحيين

ويرى زامير في إقامة لبنان الكبير حلقة من الصراع المسيحي-الإسلامي ورمزاً للانتصار المسيحي:«وجاء تأسيس

1- Ibid.

2 - السمعاني، لابا، لبنان بين 1861 و 1943، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، م. س، ص 175.

الدولة المسيحية في لبنان على يد القوى المسيحية الأجنبية التي أطاحت بالدولة المسلمة في سوريا، لا كرمز لهزيمتهم فقط، بل وأيضاً كنصر للمسيحية على الإسلام»[1].

قد يرى البعض في هذا الكلام شيئاً من المبالغة، ولكنه يعبّر عن الطابع الذي اكتساه الصراع آنذاك. وباسم الجسر الباحث اللبناني المسلم في تحليله لخلفية موقف سنّة المدن المضمومة إلى لبنان الكبير لا يبتعد عن هذا الرأي، وإن كان في تعبيره عنه مزيد من الدبلوماسية، إذ يقول:«هذا الموقف السلبي كان ينطلق من اعتبارات عقائدية، وسياسية واقتصادية-اجتماعية تتراوح بين مفهوم الحكم في الإسلام، واعتبار قيام لبنان الكبير رمزاً لاندحار الحركة العربية أمام أوروبا المسيحية، ورفض هذا الاندحار»[2] وترجم الرفض القاطع هذا ردّات فعل وشغباً على أرض الواقع، فعمّت موجة من أعمال العنف في المناطق الإسلامية إثر إعلان لبنان الكبير في الساحل وجبل عامل والبقاع. وبين 1920/12/6 و 1921/01/06 هوجمت ثلاثون قرية في جنوب لبنان وفي أيار/مايو من ذلك العام شنّ أهالي بنت جبيل هجوماً على قرية عين إبل المسيحية أسفر عن مقتل نحو خمسين من أبنائها. وفي بيروت اغتيل أسعد خورشيد باشا ناظر الداخلية السنّي، فأدّى ذلك إلى اعتقال سليم علي سلام وثلاثة

1- Zamir, op. cit, p. 1.

2 - الجسر، باسم، ميثاق 1943 لماذا كان؟ وهل سقط؟، تقديم فريد الخازن، بيروت، دار النهار، ط2، 1997، ص 54.

آخرين من أبناء المدينة ونفيهم[1].

السنّة يقاطعون لبنان الكبير

ويروي المؤرخ كمال الصليبي حكاية هذا الزعيم البيروتي السني مع لبنان الكبير والانتداب كما يلي:«كان سليم علي سلام (أبو علي) رئيساً لبلدية بيروت ورئيساً لجمعية المقاصد (..) وفي وقت لاحق انتخب نائباً عن بيروت في البرلمان العثماني في اسطنبول (...) وقضى أبو علي سلام بقية سنوات حياته، ورغماً عنه، كمواطن في لبنان الكبير الموضوع تحت الانتداب الفرنسي، وهو يقود المعارضة الإسلامية في بيروت (...) فمنذ العام 1920 كان مسلمو بيروت والأنحاء الأخرى قد أوضحوا بكلّ صراحة أن لبنان الكبير لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لهم ككيان وطني منفصل عن سوريا العربية ومميّز عنها، وأن هذا الكيان غير مقبول منهم إطلاقاً على المدى البعيد»[2].

وإلى ذلك قاطع سنّة المدن إحصاء سكان لبنان الكبير العام 1922، ورفضوا الحصول على الهوية اللبنانية، كما رفضوا المشاركة في الحياة السياسية وامتنعوا عن قبول الوظائف العامة في دولة لبنان الكبير[3].

1 - طرابلسي، م. س، ص 136.

2 - الصليبي، كمال، بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصوّر والواقع، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1990، ص 212-213.

3 - سليمان، عصام، الفدرالية والمجتمعات التعدّدية ولبنان، تقديم محمد المجذوب، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1991، ص 113.

وقد فنّد وجهاء بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبعلبك في "مذكّرة اعتراض سكّان الأقاليم المضمومة" (1921) الذرائع التاريخية عن "لبنان الطبيعي" مؤكّدين أنه كيان لم يوجد في التاريخ من قبل. وسيكرّر مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة في اجتماعاته في الأعوام 1928 و 1933 و 1936 النقد ذاته[1].

وواصل القوميّون العرب وصف دولة لبنان، ككيان مصطنع أنتجته فرنسا للتآمر ضدّ العرب. ولم يتوقّفوا يوماً عن تحدّي شرعيته، وواقعاً لم تعترف سوريا قطّ رسمياً بلبنان دولة مستقلّة[2] ولم تقم علاقات دبلوماسية معه إلا مؤخراً (2009).

ويلخّص أستاذنا المؤرّخ د. عبدالرؤوف سنّو الموقف الإسلامي من لبنان الكبير بمختلف تيّاراته كما يلي:«ولأسباب دينية وديموغرافية وتاريخية، رفض المسلمون الكيان الجديد، وتطلّعوا إلى عمقهم العربي-الإسلامي، وبخاصة إلى سورية، معتبرين أن دولة لبنان الكبير هي كيان بحدود مصطنعة وقوانين علمانية، ونتاج إرادة استعمارية وثقافة مسيحية غربية، وإسفين دق في صدر بلاد الشام، ورأى البعض منهم أن لبنان لم يكن وطناً حين أعلن الفرنسيون الكيان في العام 1920، لأن الرغبة في وجوده كانت محصورة في قسم من أبنائه[3].

1 - طرابلسي، م. س، ص 136.

2- Zamir, op. cit, p. 13.

3 - سنّو، د. عبدالرؤوف، لبنان الطوائف في دولة ما بعد الطائف، إشكاليات التعايش والسيادة وأدوار الخارج، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث، ط1، 2014، ص 45.

أما طرابلس فكانت الأكثر ثورة ورفضاً للبنان الكبير والانتداب. إذ «اعتبرت نفسها دوماً منارة محمّدية على هذا الشاطئ الشرقي من البحر المتوسط، وحصن الإسلام البحري الأكثر حصانة عنوة عن الإسكندرية والإسكندروة وبيروت وصيدا وصور ويافا وعن كل ميناء بحري إسلامي»[1].

ولكن منافسة طرابلس لبيروت وغيرها لم تكن مجرّد منافسة على الزعامة الدينية، بل كانت، وفي الأساس، مزاحمة تجارية. وفي ذلك يقول يوسف الحكيم الذي عاصر تلك الأحداث:«غير أنني عرفت في هذا الصدد أن الطرابلسيين، من مسلمين ومسيحيين على السواء، يرغبون في انضمامهم إلى سوريا تخلّصاً من تحكّم بيروت في مصيرهم الاقتصادي، ويأملون أن تكون طرابلس المرفأ السوري المفضّل نظراً لطبيعة موقعها. في حين يعلن مسلمو بيروت رضاهم عن الوحدة السورية بشرط أن تشمل بيروت وطرابلس معاً»[2].

كانت طرابلس إذاً تجد لها مصلحة مضاعفة في الانضمام إلى سوريا، وهذا تحديداً ما سعى أهل بيروت إلى منعه. وبالنهاية: «فمصالح برجوازية بيروت حالت دون عودة مرفأ طرابلس إلى سوريا. ذلك أن بقاء طرابلس داخل حدود لبنان الكبير يحدّ من خطر تهديدها مركز بيروت الاقتصادي الغالب. أما إذا أصبحت

1 - الرياشي، الأيام، م. س، ص 65.

2 - الحكيم، يوسف، سورية والعهد الفيصلي، بيروت، دار النهار، ط3، 1986، ص 50-51.

جزءاً من سوريا، فتلوح إمكانية أن تصبح المرفأ الرئيسي لسوريا على حساب بيروت»[1].

وأقلع جانب كبير من الشيعة مع الوقت عن مقاومة الدولة الجديدة لأنهم وجدوا أن من مصلحتهم أن يصبحوا أقلية كبيرة في لبنان بدلاً من أن يكونوا أقلية صغيرة في سوريا[2] أما الدروز،

---

1 - طرابلسي، م. س، ص 145.

2 - لو شئنا أن نعرض لموقف كل مجموعة وطائفة من الكيان اللبناني والانتماء إليه لاحتجنا أن نخصّ كلّا أقلّه بفصل، ولخرجنا عن سياق دراستنا وموضوعها المحدّد والمحدود في آن. ولكن تبقى الإشارة إلى خلفية موقف الشيعة/المتاولة مهمّة، لاسيما وأن من شأنها أن تشرح الكثير من تعقيدات وضع لبنان اليوم على ضوء ما حصل بالأمس. لم يشعر متاولة لبنان يوماً بأي انتماء أو مواطنية للدولة العثمانية. فقد عملت هذه الأخيرة دوماً على اضطهادهم، وكثيراً ما لم تعترف أنهم مسلمون حتى. ففي إحصاء للسكان في بداية عهد المتصرفية 1864 زمن داود باشا جاء التوزيع الطائفي كما يلي: إسلام 3394 دروز 12467 متاولة 4212 موارنة 57420 أرثوذكس 13552 (الراسي، لئلا تضيع، م. س، ص 128).

نلاحظ أن الدولة العثمانية في هذا الإحصاء لم تعترف بأن المتاولة مسلمون. وكان من الطبيعي أن يفرح هؤلاء بسقوط الحكم العثماني بعد الحرب الكونية، فناصروا بدايةً الحكم الفيصلي وطالبوا بالوحدة مع سوريا. لكن الانتداب الفرنسي نجح، مع الزمن، في كسبهم معه وتأييدهم بالتالي للكيان اللبناني. وكانت الخطوة الحاسمة في ذلك أيام المندوب الفرنسي هنري دو جوفنيل (1925/11/10-1926/9/02). فقد اعترف هذا المفوّض السامي بالمتاولة كطائفة إسلامية شيعية مستقلّة ومنفصلة عن الطائفة السنية كياناً وشرعاً وقانوناً. وكان هدفه من ذلك منع المتاولة من الانضمام إلى المعارضة في لبنان وسوريا. فأعلن في 1926/01/25 أنه سيتمّ التوقيع على قرار يعترف بموجبه بالمتاولة كطائفة مستقلّة، وستضمن لهم ←

فإنهم لم يأنسوا إلى سياسة الفرنسيين الودّية نحو خصومهم الموارنة، ومن ثم أحجموا عن فكرة الولاء لدولة أصبحت السيطرة فيها للموارنة[1]. وكان الدروز والشيعة عموماً راغبين في الانضمام إلى النظرية التي تبرّر وجود لبنان كملجأ للأقليات في سوريا[2].

الروم يسايرون السنّة

وهكذا بقي أهل المدن السنّة رأس حربة المعارضة للبنان الكبير، يجاريهم في المعارضة جيرانهم أهل المدن الروم الأرثوذكس. «فالمقاومة السنّية الصارمة التى ظهرت فى 1920، ظلّت على حالها حتى نهاية الإنتداب (...) ووجد المسلمون السنّة في موقفهم هذا بعض التأييد من الروم الأرثوذكس (...)

← محاكمهم الشرعية الخاصة بهم. وكان هذا الاعتراف مطلباً، بل هدفاً، سعى إليه هؤلاء منذ ما قبل الحرب الكونية، ولكنه لم يثمر إلا سنة 1926. واستقبل وجهاء المتاولة وعامّتهم هذا القرار بابتهاج عام. وتوجّه وفد من زعمائهم الدينيين والمدنيين لزيارة المفوض السامي وأعربوا له عن شكرهم ودعمهم للدولة اللبنانية ضمن حدود 1920 وولائهم لها وامتنانهم للدولة الفرنسية. وكان لهذا القرار أثر كبير على موقف الشيعة لاحقاً في الجنوب، بحيث رفض عدد كبير منهم التوقيع على عرائض الوحدة مع سوريا التي قدّمها لهم السنّة وتحديداً رياض الصلح. وهكذا نجح دي جوفنيل في تشتيت قوى المعارضة وضمّ قسماً منها إلى جانبه (العلم، فيغان، قراءة في أوراق الإنتداب، م. س، ص 368-369).

1 - الخصوصي، بدر الدين عباس، القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر، باريس، منشورات أسمار، ط2، 2007، ص 88.

2 - الصليبي، بيت، م. س، ص 214.

واستمرّت هذه المقاومة الأرثوذكسية للأوضاع الراهنة في لبنان طول عهد الإنتداب»[1].

ولعلّ هذا التناغم المستمرّ في المواقف بين السنّة والروم هو الذي أوحى بالمثل اللبناني المتداول "السنة والروم خيط مبروم". وسنعرض في الفصل التالي لموقف الروم وردّة فعلهم من لبنان الكبير فهو أمر من صلب موضوعنا.

ولا بدّ من ملاحظة بشأن كلام المؤرّخ الصليبي الآنف الذكر. فهو رغم عمق دلالته يغفل واقعة أساسية ألا وهي الخروج التدريجي عن مقاطعة الكيان اللبناني منذ الثلاثينات من القرن الماضي.

لكن الاختلاف في النظرة إلى لبنان الكبير بقي سائداً بين مختلف المجموعات اللبنانية. وهذا ما دعا المفكّر اللبناني ميشال شيحا[2] إلى القول، وبعد 16 عاماً من نشوء لبنان الكبير: «وبديهي أن رؤية اللبنانيين جميعهم، وفجأة متّحدين سيكون

1 - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، م. س، ص 214-215.

2 - ميشال شيحا (1891-1954) ولد في بمكّين/عاليه. درس الاقتصاد والتجارة ثم غادر إلى الإسكندرية حيث درس الحقوق، وهناك أسس مع فردينان دبّانه مجلة أدبية باللغة الفرنسية أسماها Planches. انتخب نائباً عن بيروت 1925، ثم رئيساً للجنة وضع الدستور اللبناني. وتحوّل عن السياسة وانصرف إلى إدارة البنك الذي أسهم بتأسيسه (فرعون وشيحا). أنشأ 1934 جريدة لوجور Le Jour الناطقة باسم الحزب الدستوري. كان من أوائل الذين نبّهوا إلى الخطر الصهيوني. ثم عارض مشروعات الريّ الإسرائيلي لإدراكه أن الليطاني سيكون الهدف. له مؤلفات عديدة منها: لبنان في شخصيته وحضوره، فلسطين، لبنان اليوم، محاولات، السياسة الداخلية وهو الكتاب الذي نقتبس منه هنا.

حلماً. وليس هذا الاتحاد إلاّ حلماً، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك. ولن يصنع إنسان ما معجزة اتحادهم في يوم من الأيام»[1].

ونختم فصلنا هذا بعرض جدول إحصائي يبيّن تطوّر عدد سكّان لبنان وتوزّعهم الطائفي من متصرفية الجبل إلى لبنان الكبير 1921 إلى 1932.

مقارنة بين توزيع السكان في سنجق جبل لبنان وفي دولة لبنان الكبير

طائفة	سنجق جبل لبنان 1911		لبنان الكبير 1921		لبنان الكبير 1932	
	عدد	نسبة مئوية	عدد	نسبة مئوية	عدد	نسبة مئوية
موارنة	242.308	58.40	199.181	32.70	227.800	29.11
روم أرثوذكس	52.356	12.62	81.409	13.37	77.312	9.88
روم كاثوليك	31.939	7.70	42.462	6.97	46.709	5.97
مسيحيون آخرون	3.062	5.73	12.651	2.08	45.125	5.77
الإجمالي المسيحي	329.626	79.45	335.703	55.12	396.946	50.73
سُنّة	14.529	3.50	124.786	20.48	177.100	22.63
متاولة	23.413	5.64	104.947	17.23	155.035	19.81
دروز	47.290	11.40	43.633	7.16	53.334	6.82
الإجمالي للمسلمين	85.232	20.54	273.366	44.87	385.469	49.26
المجموع	414.858	99.99	609.069	99.99	782.415	99.99

1- Chiha, Michel, politique intérieure, Beyrouth, Editions Trident, 1964, p. 17.

أدّى توسيع سنجق جبل لبنان إلى لبنان الكبير إلى إحداث تغييرات سكانية درامية. فقد مثل المسيحيون 80% من سكان السنجق، بينما انخفض تمثيلهم الآن إلى 51% من سكان لبنان الكبير بناءً على تعداد السكان لسنة 1932. وحتى هذه الأغلبية البسيطة لم يتوصّل إليها لبنان إلاّ بعد إضافة المهاجرين بأكثريتهم المسيحية والأرمنية الذين سكنوا لبنان بعد الحرب. وبدون هاتين المجموعتين كان المسلمون هم الأكثرية في لبنان. على كل حال أدّى تدفّق المهاجرين المسيحيين إلى الخارج، وارتفاع نسبة الولادات لدى المسلمين إلى اختلال التوازن. ففي دولة لبنان الكبير، مثَّل الموارنة أكبر طائفة مفردة، بنسة 30% من السكان، ولكنهم فقدوا أغلبية ال 58% التي كانت لهم في سنجق جبل لبنان. أما الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك فقد حافظوا على نسبتهم بالنسبة لعدد السكان، ولكن الدروز انخفض تمثيلهم من 11 بالمئة إلى 7 بالمئة، وأصبحو الطائفة الخامسة عددياً. وبالعكس، تحوَّل السُنّة الذين مثلوا 3.5 بالمئة من عدد السكان في سنجق جبل لبنان إلى ثاني أكبر تجمّع طائفي في لبنان الكبير، فمثلوا 22 بالمئة من عدد السكان، بينما ارتفع تمثيل المتاولة من 5.5 بالمئة إلى 20 بالمئة، وأصبحوا الطائفة الثالثة عددياً.

ويستوقفنا توصيف أستاذنا د. عبدالرؤوف سنّو للواقع الديموغرافي الخطر في لبنان الكبير الذي ولّد تجاذباً وشدّ حبال بين أكثرية على الحفّة وأقلّية على الحفّة، يقول:«صحيح أن

الإحصاء الرسمي الوحيد للعام 1932، أظهر زيادة طفيفة للمسيحيين على المسلمين في لبنان الكبير، إلاّ أن هذا التوازن الديموغرافي أجّج من ناحية أخرى الصراعات حول نصيب كل طائفة من المناصب والمراكز بين أكثرية على الحفّة وأقلّية على الحفّة وتسبّب بمخاوف لدى المسيحيين ونقمة عند المسلمين»[1].



الجنرال ويغان الذي خلف غورو

1 - سنّو، لبنان الطوائف، م. س، ص 46.



زيارة الكاردينال دوبوا Duboix إلى البطريرك الحويك
في بكركي/شباط1920

باب 3

فصل 3

الروم ولبنان الخطأ التاريخي

مواضيع فصل 3 باب 3:

الخلفية الاقتصاديّة والديموغرافيّة لموقف الروم

آل سرسق ودورهم أيام العثمانيين



ألفرد سرسق: اختير عضواً في الوفد الثالث لكنه لم يذهب

الخلفية الاقتصاديّة والديموغرافيّة لموقف الروم

عرضنا في الفصل السابق لمواقف الفئات والمجموعات اللبنانية المعارضة لإنشاء لبنان الكبير، ولم نتطرّق، سوى تلميحاً، إلى موقف الروم الأرثوذكس، ولا سيما أهل المدن الساحلية منهم، لأننا شئنا أن نتوسّع في عرض هذا الموقف ونفرد له فصلاً خاصاً، فهو من صلب بحثنا ودراستنا هذه.

سبق وذكرنا أن الروم وبطريركهم غريغوريوس الرابع حدّاد كانوا رأس حربة الدفاع عن فيصل ومملكته وحكومته، وكان البطريرك حدّاد أول المبايعين له بالملكية. فلا نستغربن هنا أن يكونوا من أبرز الرافضين لإنشاء لبنان الكبير، وهو المشروع الذي كان يتعارض، وعلى خطّ مستقيم، مع المشروع الشريفي الفيصلي.

وذكرنا أيضاً (فصل الحدّاد والحويك والسفّاح) أن مطران بيروت الأرثوذكسي كان من المقرّبين إلى البطريرك حدّاد، فطبيعي أن يتبع سياسته في دعم الحكم الفيصلي ويطالب بالوحدة مع سوريا[1].

وكذلك لحظنا أن الروم ووفق تعبير الصحافي/المؤرخ إسكندر

1- Zamir, op. cit, p. 67.

رياشي أضاعوا التوازن إثر سقوط الحكم القيصري في روسيا وكان حاميهم التقليدي. وفي ظلّ فقدان حامٍ لهم «وجدوا في التوصّل إلى تسوية مع جيرانهم أفضلَ السبل لحماية مصالحهم»[1].

ولا بدّ هنا من ذكر الروابط المتينة التجارية والاجتماعية بين الروم والسنّة، فكلاهما أهل مدن يعملان في التجارة. وهذا ما عبّر عنه المثل اللبناني السالف الذكر:«السنّة والروم خيط مبروم».والتجارة مع الداخل السوري كانت في أيدي عائلات أرثوذكسية بيروتية ثرية، لذا كانت أول من يخشى انفصام الروابط الاقتصادية مع سوريا بانفصالها عنها. وعندما طرحت مسألة إنشاء لبنان الكبير، ومن ثم العلاقات بين لبنان وسوريا 1920-1922 دعم الكثير من الأرثوذكس مواقف السنّة. وكذلك فإن واقع انتشار الروم ليس فقط في لبنان بل وفي سوريا جعلهم يدعمون باستمرار علاقات أفضل مع الداخل بل وارتباطاً به.

وإلى ذلك يمكن أن نضيف الحساسية والتنافس الدائمين بين الموارنة والروم، وقد أسلفنا الإشارة إليهما في اقتباسات عن إسكندر الرياشي وغيره. وعبّر زامير عن ذلك بالمعادلة الفائقة الدلالة التالية:«الروم في غالبيتهم، وخصوصاً الإكليروس، كانوا يكرهون الموارنة، أكثر مما يخافون من المسلمين»[2] ولا يغربن عن بالنا هنا الشعار الذي أطلقه الروم منذ 1860 "التركي ولا

1- Ibid, p. 135.

2- Zamir op. cit, p. 135.

بكركي" والمعادلة هذه من شأنها أن تشرح الكثير من تصرّفات الأرثوذكس ومواقفهم بالأمس البعيد والقريب واليوم، وتفسّر موقف الغالبية الرافضة للبنان الكبير.

آل سرسق ودورهم أيام العثمانيين

أكثر روم المدن، قلنا، كانوا من أثرياء التجّار. ولا يمكن فهم خلفية مواقفهم ودوافعها من دون أن نسلّط الضوء على موقعهم ودورهم في الدولة العثمانية ومن ثم في العهد الفيصلي وفي الانتداب.

وسنأخذ لأجل ذلك النموذج الأكثر تمثيلاً وتعبيراً: إنها عائلة سرسق البيروتية والتي ارتبط اسمها ببيروت، ولا سيما منطقة الأشرفية منذ قرون. يقول المؤرخ د. حسان حلاّق في ذلك:«أسرة سرسق والأشرفية توأمان لا ينفصلان منذ مئات السنين، وقد مثّلت الوجاهة البيروتية خير تمثيل»[1].

ويروي اسكندر الرياشي عن أثر السراسقة (آل سرسق) في السياسة العثمانية:«كان الحيّ السرسقي بنظر الأتراك الوسط الذي يجب أن يرضى، لأنه بماله الكثير وبحياته العالية، يمكنه أن ينزل الضرر بالذين لا يرضى عنهم. وكانت قصور السراسقة الملقّبين بملوك الشرق في عهد الأتراك، وفي بداية عهد الفرنسيين، دور ضيافة كريمة ووسيعة ومبهجة للحكّام. ولم يكن ملوك وأمراء البلدان الأجنبية الذين يزورون بلادنا ينزلون ضيوفاً على

---

1 - حلاق، د. حسان، آل سرسق مثال العائلات الوجيهة ذات الثروة والإقطاع، مقالة في مجلة الحوار، www.alhiwar.info

الحكومات، بل كانت تلك الحكومات تطلب رسمياً من قصور السراسقة دعوة ضيوفها، حيث كان كل ملك أو أمير يجد من العظمة والفخفخة ما قد لا يجده في قصور بلاده، وحيث كانت تقام ولائم وحفلات ومراقص لا مثيل لها في كرمها وسخائها»[1].

ويروي رياشي في كتاب آخر له أن دُور السراسقة استضافت مراراً جمال باشا أيام الحرب العالمية الأولى[2] وتولّى آل سرسق مناصب مرموقة في الدولة العثمانية فكان يوسف بك (جوزف) سرسق والد نجيب سرسق الذي سيلي الحديث عنه عضواً في مجلس الأعيان العثماني (أواخر القرن 19). وكان ألفرد بك موسى سرسق[3] سكرتيراً للسفارة العثمانية في باريس وللسفير

---

1 - رياشي، اسكندر، قبل وبعد 1918-1941، بيروت، دار الحياة، ط1، 1953، ص 38.

2 - رياشي، اسكندر، رؤساء لبنان كما عرفتهم، دمشق، دار أطلس، ط2، 2006، ص 299.

3 - ألفرد بك إبن موسى سرسق (1870-1934) من مواليد بيروت. سياسي ومفكّر ورسّام ونحات. أتقن الفرنسية والتركية والعربية. كانت له علاقات جيّدة مع الأتراك ولاسيما جمال باشا. ملحق فخري لتركيا في باريس. مؤسّس ميدان سبق الخيل في بيروت 1916. رئيس اللجنة الدائمة للتجمّع المسيحي في بيروت سنة 1919. اختير عضواً في الوفد اللبناني الثالث إلى مؤتمر الصلح 1920 لكنه تخلّف عن الذهاب مراعاة لفيصل وللسياسة الأرثوذكسية المؤيدة له كما يذكر البعض. أسهم في إنشاء المتحف الوطني وترأس لجنته التأسيسية. أسهم في تصميم وهندسة قصر الصنوبر (مقرّ الفرنسيين في بيروت).

العثماني رفعت باشا 1913. وميشال إبراهيم سرسق[1] عضواً في "مجلس المبعوثان" العثماني 1914. ونخلة سرسق عضو هيئة مشروع سكّة الحديد بين بيروت ودمشق مع سليم علي سلام 1913[2].

وبعد اندحار الأتراك انتقل آل سرسق، كما بطريركهم غريغوريوس، إلى تأييد الحكم الفيصلي؛ فالياس بك بن إبراهيم سرسق كان هو من استضاف الأمير فيصل بن الشريف حسين عندما زار بيروت العام 1918[3]، وألفرد موسى سرسق السكرتير السابق في السفارة العثمانية في باريس كان له دور بارز في العهد الفيصلي[4] وتولّى مناصب عديدة. ومن بين جميع السراسقة نتوقّف عن واحد اشتهر بمقولته «لبنان الكبير خطأ تاريخي»، ونحاول أن نستجلي دوافعه في إطلاق هذه المقولة التي لا تزال تتردّد حتى اليوم. إنه نجيب سرسق أغنى أغنياء بيروت ولبنان في عصره.

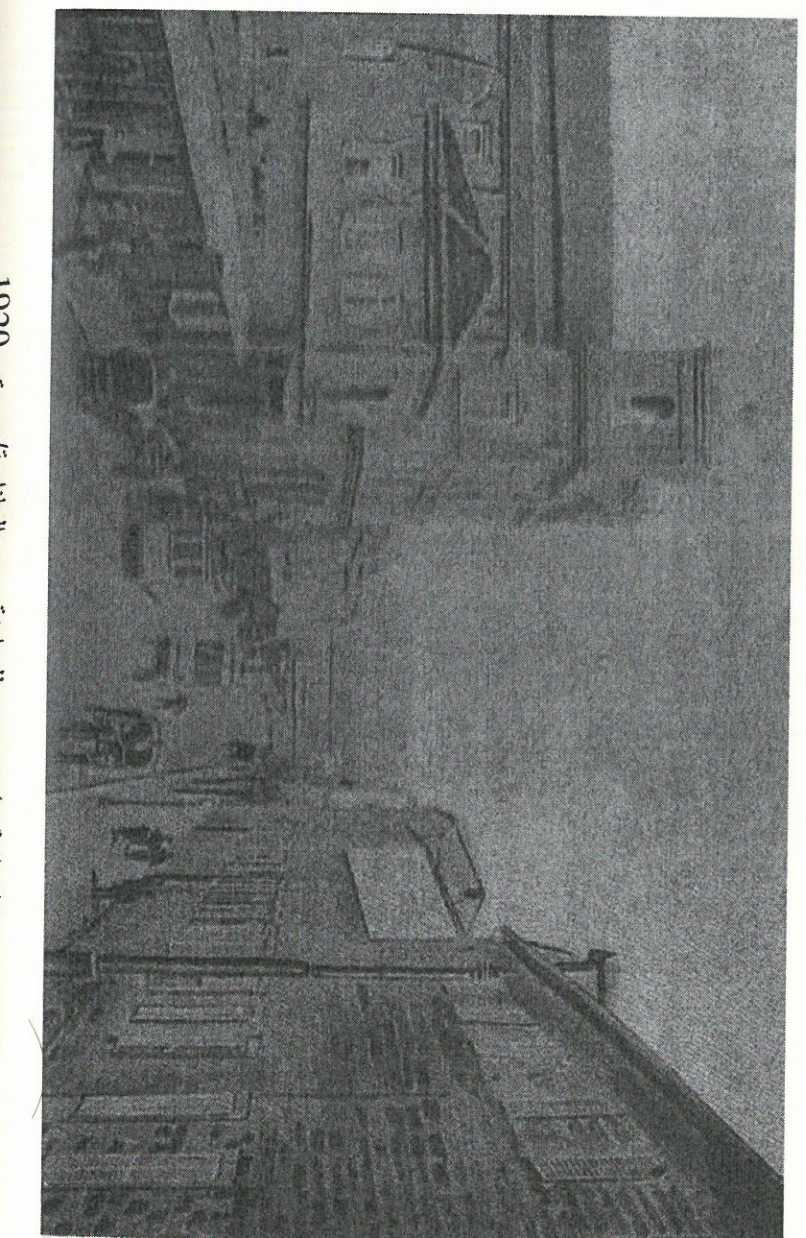
---

1 - ميشال إبراهيم سرسق (1886-1919) رجل أعمال. عضو مجلس المبعوثان عن مدينة بيروت 1914-1918. كان من أصدقاء جمال باشا المقرّبين. له مسرحيات باللغة الفرنسية.

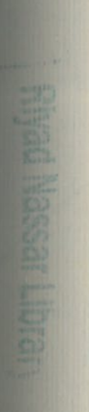
2 - حلاق، م. س.

3 - م. ن.

4 - م. ن.



كاتدرائية مار جرجس للموارنة ودير العازارية/بيروت، 1920



باب 3

فصل 4

نجيب سرسق القائل: لبنان خطأ

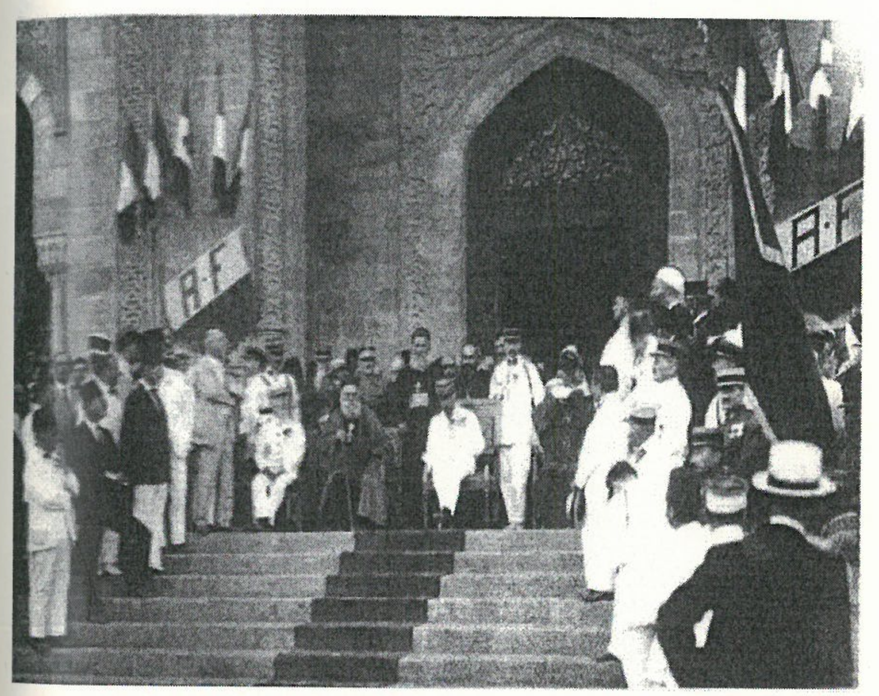
مواضيع فصل 4 باب 3:

نجيب سرسق أغنى أغنياء بيروت

لبنان الكبير خطأ

سرسق يطمح إلى رئاسة الجمهورية

الفرنسيون يختارون الدبّاس ويستبعدون سرسق



إعلان لبنان الكبير في قصر الصنوبر 1920/09/01

نجيب سرسق أغنى أغنياء بيروت

وبداية من هو نجيب سرسق؟

إنه إبن يوسف (جوزف) بك سرسق. وكان يوسف من كبار تجّار بيروت ووجهائها في العهد العثماني. انتخب عضواً في مجلس إدارة جمعية غرفة التجارة في بيروت ثم رئيس شرف للجمعية العام 1913[1]. وصار عضواً في مجلس الأعيان العثماني العام 1914.

أما نجيب يوسف سرسق الذي نترجم له فكان عضواً في غرفة تجارة بيروت منذ العام 1892. كما تولّى عضوية الجمعية الأمبراطورية الروسية-الفلسطينية[2]. عرف عن نجيب سرسق أنه كان أغنى أغنياء بيروت على الإطلاق[3]. وكان الأمير شكيب إرسلان يقول ويردّد:«إذا طلبنا من فقير متليكاً عزّ علينا مناله، وإذا طلبنا من نجيب سرسق الملايين أخذناها من دون إبطاء»[4].

---

1 - حلاق، م. س.

2 - م. ن.

3 - البعيني، نجيب، صحيفة الصفاء 1886-1926، مقال في جريدة الحياة، عدد 13934، بيروت 2001/05/10، ص 21.

4 - م. ن.

وكان نجيب سرسق يملك لوحده 11 قرية في فلسطين/منطقة الحولة يبلغ مجموع مساحتها 41500 دنم (ألف) م2[1] وقد باعها كلّها لليهود، فهاجمه الصحافي اللبناني نجيب نصّار في صحيفته الكرمل الصادرة في حيفا (1920/11/16) وقال:«نجيب سرسق باع 11 قرية في مرج إبن عامر للصهيونيين. وكنّا نتوقّع من بعد الاحتلال أن يتمثل سرسق وغيره من أغنيائنا المحترمين بأغنياء اليهود ويناصروا الوطنية والوطنيين كما يناصر زعماء اليهود الصهيونية. وإذا به يهتمّ بكل قواه لبيع هذه القرى للذين ينازعون قومه البقاء في وطنهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً»[2].

لبنان الكبير خطأ

وفي الوقت الذي كان نجيب سرسق يبيع قراه للصهاينة في فلسطين، كان يعلن في بيروت ويكرّر أن لبنان خطأ تاريخي، فقد جاء في تقرير رفعه الأمين العام للمفوّضية دي كيه إلى الرئيس Poincaré العام 1922:«لم يتوقف نجيب سرسق عن التكرار بأن إنشاء لبنان الكبير هو خطأ، وطالب بجعل بيروت مدينة حرّة، وقد تعاون مع وجهاء السنّة في بيروت الذين

1 - جراده، محمد رجب قدورة، مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نشؤوها وتطورها، أطروحة في كلية الآداب، جامعة صنعاء، 2007.

2 - الخطيب، هدى نور الدين، استعراض موجز لتاريخ الصحافة الفلسطينية قبل النكبة، مقالة في مجلة نور الأدب، 2011/12/06. www.nooreladab.com

حاولوا الحصول على كسب دعم الأرثوذكس من أجل روابط أقوى واتحاد مع داخل سوريا»[1] وهكذا نرى أن دوكيه قد تعلّم من سرسق تعبير "لبنان خطأً وأخذه عنه. فهذا السياسي والوجيه الأرثوذكسي هو، على الأرجح، مبتكره ومطلقه.

سرسق يطمح إلى رئاسة الجمهورية

ومعارضة نجيب سرسق الشرسة للبنان الكبير كانت تعود، في جزء منها، إلى طموحاته السياسية. ولكنه عاد وخفّف من حدّة معارضته وقرّر الانخراط في الحياة السياسية اللبنانية. ففي شهر ك1925/2 قرّر المندوب السامي الجديد الجنرال ساراي أن يستبدل حاكم لبنان الفرنسي بحاكم لبناني، فترشح لهذا المنصب إميل إده وحبيب باشا السعد ونجيب سرسق. ولكن المندوب السامي عدل عن قراره وعيّن كايلا حاكماً للبنان.

وعام 1926، وبعد وضع الدستور اللبناني، كان نجيب سرسق من المرشحين لمنصب أول رئيس جمهورية للبنان، وفي ذلك يروي إسكندر رياشي:«لماذا شارل دبّاس[2]، وليس نجيب سرسق

1 - أرشيف الخارجية الفرنسية، رسالة من بيروت من روبير دو كيه إلى الرئيس Poincaré بتاريخ 1922/02/22.

AE, Levant, Vol 38, 181-3 Beirut 22/02/1922.

نقلاً عن: Zamir, op. cit, p. 135.

2 - شارل دبّاس (1884-1935) محام وصحفي. والده من رؤساء جمعية مساعدة المرضى والجمعية الخيرية الأرثوذكسية والمجلس البلدي البيروتي. درس الحقوق ونال الدكتوراه فيها من جامعة باريس. عمل محامياً في بيروت وتولّى تحرير جريدة الحريّة الفرنسية. وأنشأ جريدة البيان

الذي كان مقدّراً أن يكون هو الرئيس لما كان عليه من وجاهة وثراء ومكانة كبيرة»[1].

ويردف رياشي في كتاب آخر له عن هذه المعركة الرئاسية:«وكان من الجانب الآخر نجيب سرسق وجيه وجهاء بيروت يلوّح من بعيد لبعيد بملايينه، وكانت شهرة هذه الملايين وخبر رغبته بالحاكمية قد جمعا حوله مقاطيع السياسة وسماسرتها يعدون النفس بالقبض»[2].

← بالفرنسية. حكم عليه الأتراك بالإعدام، لكنه استطاع أن ينجو بالهرب. عاد إلى بيروت وعيّن سنة 1920 ناظراً للعدلية ثم انتخب حاكماً للجمهورية. عيّن مندوباً للحكومة لدى مجلس النواب 1922. انتخب شارل دبّاس أول رئيس للجمهورية اللبنانية سنة 1926. وسنة 1929 أعاد المجلس النيابي انتخابه لثلاث سنوات أخرى. وفي سنة 1932 عيّن رئيساً للدولة لأجل غير محدد. لكنه قدم استقالته في 1934/01/02. ألغى مجلس الشيوخ عام 1926. من إنجازاته في رئاسة الجمهورية إنشاء البكالوريا اللبنانية وفرضها على الراغبين في مباشرة الدروس الجامعية. عيّن نائباً سنة 1934 وانتخب رئيساً للمجلس النيابي. وفي سنة 1934 استقال من النيابة. وتوفي في باريس 1935 ونقل جثمانه إلى بيروت. كتب بالعربية عدداً من المقالات في مجلتي الحقوق والبشير. يعود إليه الفضل في تنظيم المحاكم ونقابة المحامين فلم يعد مسموحاً إلا لحامل شهادة الحقوق أن يرافع، بعد أن كان ذلك مسموحاً لأيّ كان.

عرف شارل دبّاس بنزاهته ومعرفته العميقة في علم القانون وبهدوئه اللامحدود، وبمناصرته الكاملة للسياسة الفرنسية. وخلال دراسته في فرنسا تزوّج من إمرأة فرنسية تدعى مارسيل بونفار.

1 - رياشي، رؤساء لبنان، م. س، ص 296.

2 - رياشي، الأيام اللبنانية، م. س، ص 97.

الفرنسيون يختارون الدبّاس ويستبعدون سرسق

وكانت الرئاسيات الأولى في تاريخ لبنان فرصة للفرنسيين لترضية الروم وكسب مودّتهم وتغيير موقفهم من لبنان الكبير والانتداب. يقول رياشي في كتاب ثالث له:«لذلك تعمّدوا اختيار الدبّاس الأرثوذكسي، لإقناع الأرثوذكس بالرّجوع عن موقفهم السلبي، وقبول الحماية الفرنسية[1] وبالمقابل قبل البطريرك الحويك بحنكته السياسية المعهودة باختيار أرثوذكسي للرئاسة، ولربما للغرض نفسه الذي سعى إليه الفرنسيّون من هذا الخيار. يروي اسكندر رياشي معاصر تلك الأحداث «والرجل الوحيد الذي كان يستطيع أن يحتجّ على ذلك، ولا يرضى برئيس غير ماروني، كان مار الياس الحويك بطريرك الموارنة. ومع ذلك فإنه كان أوّل من وافق على تعيين الدبّاس، وقال يومئذ كلمته المشهورة:«الحاكم غير الماروني لا يتغنّج علينا ويطمع بنا مثل الحاكم الماروني»[2] كان اختيار الفرنسيين لشارل دبّاس الأرثوذكسي أوّل رئيس للجمهورية اللبنانية ضربة معلم.. أصابت عصفورين بحجر واحد: رئيس من شأنه أن يقلب معارضة الروم ورفضهم إلى موالاة، وفي الوقت عينه موالٍ للفرنسيين ولا غبار على موالاته، بل ومتزوّج من فرنسية. أما نجيب سرسق فاستبعد بسبب مواقفه السابقة، على الأرجح، وعدم ثقة الفرنسيين بولائه. وشارل دبّاس كان هو الآخر، كما

---

1 - رياشي، قبل وبعد، م.س، ص 39.

2 - رياشي، رؤساء لبنان، م،س، ص 299.

نجيب، من حيّ السراسقة وفي ذلك يقول رياشي: وكان من مزايا شارل دباس الأوّلية أنه:

أولاً: عاش بباريس، وكان يتكلّم الفرنسية جيداً، ويكتب فيها من أعلى طبقة. كما أن زوجته فرنسية.

ثانياً: أنه من أبناء الحيّ السرسقي. وكان الحي السرسقي بنظر الفرنسيين الوسط الذي يجب أن يرضى، لأنه بماله الكثير وبحياته العالية يمكنه أن ينزل الضرر بالذين لا يرضى عنهم.

ثالثاً: كان الدباس أرثوذوكسياً[1].

وهكذا توفّرت في دباس كل المزايا المتوفّرة في نجيب سرسق مضافاً إليها واحدة في غاية الأهمية وغير متوفرة في هذا الأخير: ثقافته وولائه الفرنسيين.فمعارضة سرسق السابقة تحت شعار "لبنان خطأ تاريخي" هي كما يبدو التي حرمته من فرصة أن يكون أول رئيس للجمهورية اللبنانية، ومنعته أن يدخل التاريخ من بابه الواسع. فغفل ذكره ونسيه الناس ونسوا ملايينه، ولم يبقَ منه سوى شعاره " لبنان خطأ تاريخي" يتردّد في الصحف والأقاويل وقد أهمل القائل ونسي.

1 - رياشي، م،س، ص 38- 39.

باب 3

فصل 5

الإسرائيليون ولبنان الخطأ التاريخي

مواضيع فصل 5 باب 3:

- المطامع بالمياه أساس نظرة الإسرائيليين إلى لبنان.
- الحويك وفيصل وموقفهما من الصهاينة.
- بن غوريون: لبنان خطأ تاريخي وجغرافي.



غورو يستقبل فيصل العائد من مؤتمر الصلح – بيروت 1920/01/14

المطامع بالمياه أساس نظرة الإسرائيليين إلى لبنان

وأصدقاء سرسق الصهاينة الذين اشتروا منه ضيعه الفلسطينية بالملايين... ورثوا عنه بالمقابل، ومجّاناً، شعاره هذا. ولا يزالون إلى اليوم يكرّرونه. وهم مذّاك على اتفاق تامّ معه أن لبنان خطأ تاريخي لا بل وجغرافي كذلك.

سبق وأشرنا إلى أن إعلان لبنان الكبير نغّص عيش الحركة الصهيونية وروّادها. ففي مؤتمر الصلح/فرساي/شباط 1919 طالب مسؤولو هذه الحركة بضمّ مناطق مصادر المياه اللبنانية ولا سيما الليطاني إلى فلسطين كشرط أساسي لإقامة الوطن اليهودي وإنجاحه»[1] وأعلن لويد جورج[2] رئيس الحكومة البريطانية أمام مؤتمر الصلح موقف بلاده المؤيّد للمطالب الصهيونية قائلاً:«إن بريطانيا ستوافق فقط على قبول انتداب على فلسطين حقيقية، فلسطين التاريخ القديم، التي يجب أن لا تقتصر على صخور يهودا الجرداء، والتي يمكن أن تحوّل إلى

---

1 - الحدّاد، م.س، ص 159.

2 - لويد جورج Lloyd Georges سياسي ورجل دولة بريطاني (1863-1945) رئيس حزب الأحرار ووزير منذ 1905. ثم رئيس الوزراء (1916-1922) لعب دوراً بارزاً في مؤتمر الصلح في فرساي (1929).

صحراء في أية لحظة تقطع عنها المياه»[1] وظهر في مؤتمر الصلح تنسيق تام بين موقفي بريطانيا والمنظمة الصهيونية.

ولكن فرنسا كانت بالمرصاد للطروحات الصهيونية والبريطانية.

فردّ كليمنصو[2] رئيس حكومتها على لويد جورج بوجوب اعتماد الحدود التي رسمها اتفاق سايكس- بيكو. وأصرّت أيضاً بلسان وزيرها برتوليه[3] Philippe Bertholet على أن يبقى نهر الليطاني ضمن الحدود اللبنانية. وعبثاً حاول حاييم وايزمن[4] في رسالة وجّهها إلى لورد كيرزون في 1920/10/30،

1- LlOYD GEORGES, Daid, the truth about the peace treaties, London, 1939, vol..., II p. 1155.

2 - جورج كليمنصو (1841-1929) صحافي وسياسي وطبيب فرنسي انتخب نائباً سنة (1871) ورئيساً لبلدية باريس 1875 عضو مجلس الشيوخ من 1902 إلى 1920، رئيس الحكومة الفرنسية من 1906 إلى 1909 ثم من 1917 إلى 1920. ترأس مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي 1919. انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية 1919. انسحب من الحياة السياسية عندما فشل في الوصول إلى رئاسة الجمهورية 1920. له مؤلفات عديدة. لقب بـ النمر و"أبو النصر".

3 - فيليب بروتوليه (1866- 1934) شارك في مؤتمر فرساي كوزير مفوّض لفرنسا ومدير للشؤون السياسية والتجارية في وزارة الخارجية من 1920 إلى 1933. شارك في كل مفاوضات الدبلوماسية الفرنسية.

4 - حاييم وايزمن Weizmann (1874- 1952) من زعماء الحركة الصهيونية. سعى مع الحكومة البريطانية ونجح في الحصول على وعد بلفور 1917، رئيس الحركة الصهيونية العالمية 1920 ثم الوكالة اليهودية 1929. أول رئيس لدولة إسرائيل (1949- 1952).

إقناعه بحق اليهود في استثمار مياه الليطاني، لأن لبنان غنيّ بالمياه، وقلّما يستفيد من هذا النهر.

كما اتصل وايزمن بالجنرال غورو أيضاً، في محاولة لإقناعه بأهمية مياه الليطاني للدولة العبرية. فلم يكترث المفوّض السامي الفرنسي له[1].

الحويك وفيصل وموقفهما من الصهاينة

وتروي المصادر التاريخية أن دافيد بن غوريون وحاييم وايزمن اجتمعا برئيس الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر الصلح البطريرك الحويك في باريس، وحاولا اقناعه بالتخلّي عن جنوب لبنان والجليل الأعلى لقاء وعد بتقديم مساعدات مالية لتطوير لبنان بحيث يصبح ذا أكثرية مسيحية. فأجاب البطريرك بأن الموضوع خارج عن إرادته وأن القرار بيد فرنسا[2]. ولنقارن هنا بين حنكة الحويك ورفضه الإغراءات والعروض الصهيونية، وسذاجة خصمه ومنافسه الأمير فيصل الذي وقع في الشرك الصهيوني، ووقّع مع وايزمن في لندن 1919 اتفاقية كتبت بالإنكليزية لم يعرف تحديداً ما ورد فيها[3][4].

---

1 - معكرون، إميل، الرئيس إميل إدّه والاستقلال، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، م. س، ص 300- 301. نقلاً عن أرشيف الخارجية والفرنسية ومراجع أخرى.

2 - الحدّاد، م.س، ص 160.

3 - أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة إحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، ط 8، 1987، ص 393- 396.

4 - حكاية هذا الاتفاق والخديعة التي تعرّض لها فيصل بتوافق لورنس

بن غوريون: لبنان خطأ تاريخي وجغرافي

وبن غوريون[1] أوّل رئيس حكومة لدولة إسرائيل الذي اجتمع بالحويك صرّح مراراً أن لبنان خطأ تاريخي وجغرافي ويجب إزالة هذا الخطأ وتصحيحه. ففي اجتماع سيڤر السرّي الذي تمّ فيه التوافق بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا على العدوان الثلاثي على مصر 1956:«اقترح بن غوريون إعادة تقسيم الشرق الأوسط، ولا سيما تفكيك لبنان الكبير، معتبراً إياه خطأً تاريخياً، وإعادة الجبل المسيحي إلى حجمه السابق»[2]. واستمرّ زعماء إسرائيل منذ بن غوريون في رفض الكيان اللبناني

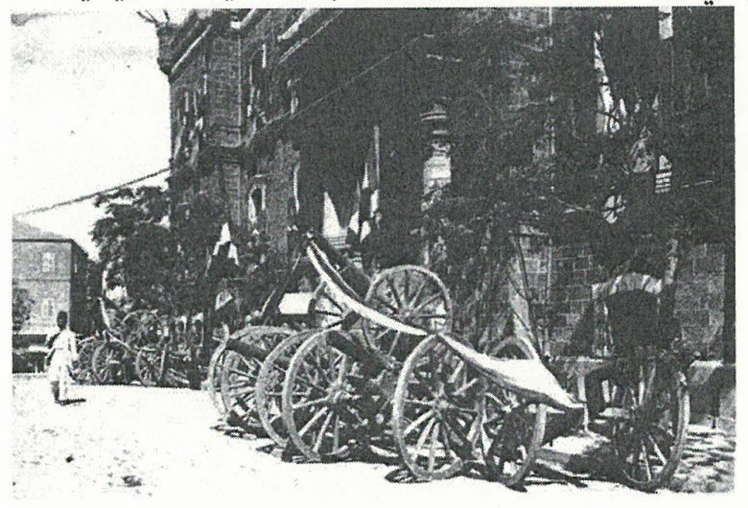
← ووايزمن طويلة ولا يتّسع المقام للدخول في تفاصيلها. وينصّ الاتفاق الخطيّ الذي لم يفهم فيصل، على ما يبدو، كل تفاصيله على تنفيذ وعد بلفور وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقد وقّع عليه فيصل بعد أن ربط موافقته بإنجاز بريطانيا لعهودها المقطوعة في استقلال العرب. وكتب الشرط بخطّ يده على نصّ الاتفاقية التي وقّعها. وشرطه هذا من شأنه أن يلغي الاتفاقية. ولا يزال الإسرائيليون، إلى اليوم، يستغلّون اتفاق وايزمن – فيصل هذا ويروّجون له. وبكلمة مختصرة يمكن القول:نصب وايزمن بالاتفاق مع لورنس، على الأرجح، فخاً لفيصل وأوقعه فيه، وكان حديث عهد بالسياسة وخدعها، ولا يتقن الإنكليزية.

1 - دافيد بن غوريون Ben Gourion (1886- 1973) سياسي إسرائيلي هاجر إلى فلسطين منذ 1906. عمل على تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين. أعلن قيام دولة إسرائيل في أيار 1984. رئيس الحكومة الإسرائيلية من 1948 إلى 1953 ومن 1955 إلى 1963 انسحب بعدها من الحكم وأسّس حزب رافي.

2 - قيصر، سمير، لبنان في السياسة الفرنسية، م. س، ص 169.

«على أنه خطأ تاريخي وجغرافي، مموهين بذلك خوفهم من نموذج نظامه السياسي الطوائفي التعدّدي الوفاقي، ورفضهم القطعي له بمختلف الوسائل[1]، فموشي أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي 1983 قال إن لبنان خطأ تاريخي وجغرافي لكي يسوّغ لنفسه احتلال جنوبه والسطو على مياهه[2]. ولا تزال هذه المقولة رائجة متداولة في إسرائيل إلى اليوم.

فبين الداعين إلى لبنان الكبير، وأخصامهم القائلين أنه خطأ تاريخي أيهما كان الأقرب إلى الصواب والحقيقة التاريخية!؟

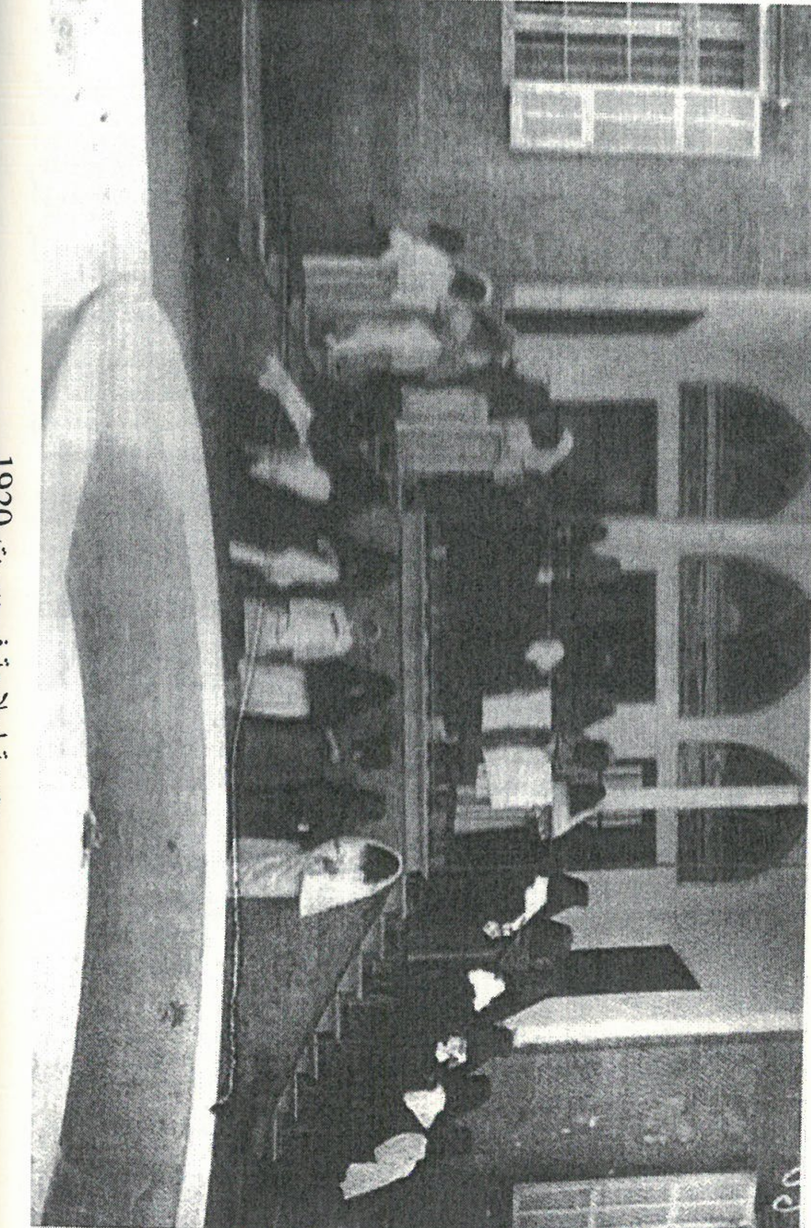


السراي القديم–بيروت، آب 1920، عرض مدافع سلبت من قوّات فيصل في معركة ميسلون

---

1 - سيف، د.أنطوان لبنان الكبير، من جبل لبنان إلى لبنان الوطن، بحث ضمن دولة لبنان الكبير، م.س، ص 488.

2 - خليفة، د. عصام، السوريون لم يخرجوا من لبنان، مقال في جريدة الشراع، 2014/01/08.



مدرسة إسلامية في بيروت 1920

باب 4

كيان يصارع ويبحث عن هوية

فصول باب 4:

فصل1: الموارنة والروم ومشروع الدولة الإسلامية.

فصل2: الحويك وحدّاد والفرنسيون.

فصل3: وادي النصارى ولبنان الكبير من إشاعة إلى أسطورة.

فصل4: الحويك: ماروني أم وطني لبناني؟!

فصل5: إميل إدّة يطلب العودة إلى لبنان المسيحي.

باب 4

فصل 1

الموارنة والروم ومشروع الدولة الإسلامية

مواضيع فصل 1 باب 4:

- ثورة الشريف تهدف إلى خلافة إسلامية
- العرب المسلمون أكثر تعصبّاً من الأتراك
- الدولة الشريفية دولة إسلامية بنظر الموارنة
- حدّاد يؤمن غطاء للدولة الشريفية الإسلامية
- الإنكليز سعوا إلى دولة حجازية إسلامية
- بطريركان وموقفان متواجهان من الدولة الشريفية
- موقف حداد: تسامح أم تبعية ؟!

ثورة الشريف تهدف إلى خلافة إسلامية

لعلّ أبرز الأسباب التي دعت المسيحيين الكاثوليك، ولا سيما الموارنة منهم، إلى مناوءة فيصل ووالده الشريف حسين والتصدّي لمشاريعهما هي خوفهم من قيام دولة إسلامية عربية مكان الدولة العثمانية. وقد عبّر البطريرك الحوّيك وعدد من أعضاء الوفدين اللبنانيين الثاني[1] والثالث[2] إلى مؤتمر الصلح صراحة في رسائلهم ومجالسهم عن هذه المخاوف.

1 - الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر الصلح ترأسه البطريرك الماروني الياس الحويك. وشارك فيه المطرانان مبارك (مطران بيروت) وبطرس الفغالي (حماة شرفاً) الأب أسطفان الدويهي سكرتير البطريرك، لاون الحويك شقيق البطريرك. وعن الروم الكاثوليك مطران زحلة كيرلس مغبغب- غادر الوفد لبنان في 1919/07/05 وتوقف في روما من 1919/07/20 حتى 1919/08/21 لمقابلة البابا وطلب دعمه، ووصل باريس في 1919/08/22. وعاد إلى لبنان في تشرين الثاني 1919.

2 - الوفد اللبناني الثالث ترأسه المطران عبدالله خوري ممثلاً البطريرك الحويك. وشارك فيه المحامي إميل إدّه والشيخ يوسف الجميل والأمير توفيق إرسلان. وانضمّ إليهم لاحقاً المطران كيرلّس مغبغب عن الروم الكاثوليك. وانسحب من الوفد ممثل الروم الأرثوذكس ألفرد موسى سرسق كما انسحب كامل بك الأسعد لأسباب صحيّة. غادر الوفد لبنان في 1920/01/31. وبقي في باريس حتى 1920/09/26.

فالمطران كيرلّس مغبغب[1] عضو الوفد الثاني والثالث يقول في مذكّراته عن تلك الحقبة:«الخوف الأكبر كان في أن يعمد فيصل إلى تأسيس دولة عربية إسلامية ممّا يطيح بحرية المسيحيين، ويعيدهم إلى قانون "أهل الذمة"[2] وهذه المخاوف لم تكن مجرّد هواجس. بل نشأت عن واقع تاريخي. فمشروع الشريف حسين الكامن وراء إعلان الثورة العربية كان في الأساس إقامة دولة إسلامية عربية موحّدة، لا بل خلافة إسلامية. ويبدو ذلك واضحاً في منشور الثورة الذي وضعه الشريف بنفسه وطبع ووزّع في 1916/06/26. فقد جاء فيه أن هذه الثورة تأتي ردّاً على أعمال رجال جمعية الاتّحاد الذين استلموا زمام الحكم في تركيا و «شرعوا في إبطال أحكام الشريعة المنصوصة في القرآن الكريم»[3]. ويؤكّد الشريف حسين أن الثورة والحكومة التي ينشد ستكون الشريعة الإسلامية وحدها أساساً لها ولأحكامها فيقول:«قائمة في كل أعمالها على أساس

---

1 - المطران كيرلس مغبغب ولد في عين زحلتا/جبل لبنان. رسم أسقفا على أبرشية زحلة للروم الكاثوليك سنة 1899.
شارك في الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر الصلح بتكليف رسمي من البطريرك ديميريوس قاضي (1919-1925). انتخب بطريركاً على طائفة الروم الكاثوليك العام 1925 واستمرّ في منصبه حتى وفاته في الإسكندرية سنة 1947.

2 - كبكب، د. وسام، دور المطران كيرلّس المغبغب في ولادة لبنان الكبير، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، م.س، ص 275.

3 - سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن، القاهرة، مكتبة مدبولي، د.ت، ج1، ص151.

أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلاّ إيّاه في جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الدين، ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقّي الحديث»[1].

وواضح من عبارته أن الشريف حسين يسعى إلى إقامة دولة إسلامية عربية. أما بشأن غير المسلمين في دولته فهو يسمّهم: المخالفين، والتعبير بحدّ ذاته بعيد الدلالات، ويلخّص نظرته إلى غير المسلمين.

وجلّ ما يعدهم الشريف به هو إعادتهم إلى وضعهم السالف والذي سبق الدستور العثماني (1908). وحكم جمعية الاتّحاد والترقي. أيّ وضع أهل الذّمة. وهو وإن كان لا يستخدم هذا التعبير حرفياً، فهو يشير إليه بلباقة ودبلوماسية. إذ يقول عن ثورته:«جاعلة مبدأها وغايتها نصرة دين الإسلام، والسعي لإعلاء شأن المسلمين. والمساواة الشرعية في الحقوق بينهم وبين جميع مَن يدخل في حوزة استقلالها من المخالفين»[2].

يظن قارئ المنشور وهذا المقطع بالذات للوهلة الأولى أن الشريف الحجازي يتحدّث عن مساواة تامّة بين المسلمين وغيرهم (المخالفين). ولكنه في الحقيقة لا ينادي إلاّ بالمساواة الشرعية» أي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على غير المسلمين، وبالتالي إعادتهم إلى وضع "أهل الذّمة". الذي كان

---

1 - م.ن، ص156.

2 - م. ن.

الدستور العثماني قد حرّرهم منه. وهكذا تبدو الثورة الشريفية، بنظر المسيحيين، عودة إلى الوراء، وإلغاء لمكتسبات كانوا قد حصلوا عليها في ظل الدولة العثمانية.

وفي منشوره الموجّه إلى سكّان بلاد الشام في 1917/02/16 والذي يدعوهم فيه إلى الالتحاق بالثورة يقول شريف مكّة:«وأعلمكم بأني قد أقمت ابني فيصل المشار إليه مقامي ليعمل فيكم بكتاب الله وسنّة رسوله، وما يجب على كل امرئ يتولّى أمراً من أمور عباده، فاعتمدوه بعد الله سبحانه وتعالى، واعتمدوا كل ما يقرّكم عليه وينفّذه بينكم»[1]. وهل من كلام أوضح بياناً وتأكيداً من هذا على أن ما يسعى إليه الحسين هو دولة تيوقراطية إسلامية؟!

فهو ينصّب ابنه فيصل مرجعاً أولاً ووحيداً بعد الله تعالى، ويطلب من أهل الشام أن يطيعوه طاعة مطلقة، وهو سيحكم بينهم بالقرآن كتاب الله والشريعة الإسلامية (سنة رسوله).

العرب المسلمون أكثر تعصبّاً من الأتراك

وهل نستغرب بعد كل هذا مخاوف المسيحيين الكاثوليك ورفضهم لمشاريع فيصل، وعدم تجاوبهم مع محاولاته الحثيثة لاستمالتهم. وهذا الرفض عبّر عنه المطران كيرلّس مغبغب السالف الذكر عضو الوفدين الثاني والثالث في مذكّرته إلى جورج

1 - شهاب، د. أسامة يوسف، الاتجاه الإسلامي في نهضة الشريف الهاشمي، دراسة في الفكر السياسي للثورة العربية وثائق ونصوص وأسانيد، عمّان، مركز اللغات، ط1، 1995، ص 428.

كليمنصو رئيس الحكومة الفرنسية حيث يقول:«إن التجربة التاريخية مع العرب والحكم العربي خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمن كانت تجربة قاسية. لذلك فمن الأفضل الإبقاء على مسافة متوازية بين الإسلام والمسيحية لمنع وقوع أي مشكلة، وليس دمجهما في دولة واحدة. وإن إعلان العرب عن استعدادهم للعيش معنا بانسجام ليس إلاّ وهماً، فطالما كان العرب في علاقتهم معنا، أكثر شوفينية وأقلّ تسامحاً من الأتراك»[1].

والمطران مغبغب هنا يشير إلى تاريخ طويل من عصور الذمّة والنظرة الدونية والشروط العمرية إلخ.... الراسخة في الوعي الجماعي عند مسيحيي المشرق، فكيف يمكنهم والحالة هذه الوثوق بوعود عرقوبية ومعسول الكلام ممّا حاول إغرائهم به فيصل في سبيل إعلان ملكه ومملكته ؟

الدولة الشريفية دولة إسلامية بنظر الموارنة

ولا يقلّ المطران عبدالله خوري رئيس الوفد اللبناني الثالث عن مرؤوسه المطران مغبغب رفضاً وصراحة في رفضه للحكم الفيصلي، لأنه برأيه حكم إسلامي مهما حاول إخفاء هويّته هذه وتلميع صورته. يقول:«هل من الممكن إقناع المسيحيين بالقبول والرضى بالحكم الإسلامي؟! هل نسي البعض بأن المسلم يعتبر المسيحي ككائن وضيع (أدنى منه) ولا قيمة لدمه. فلماذا فضّل مسيحيو لبنان في كل العصور، جفاف صخورهم على سهول

1 - كبكب، م. س، ص259.

سوريا الخصبة؟ أليس حبّاً بالاستقلال؟ لقد كان لبنان ملجأ المسيحية، ويجب أن يظلّه على الدوام»[1].

إنه شبح الإرث التاريخي من عصور الذميّة لا يفارق وجدان المسؤولين المسيحيين ولا مخيّلتهم. ولا يغربنّ عن بالنا هنا، ما سبق وذكرناه أن السفّاح جمال باشا، أرغم البطريرك الحويك وكل أساقفته ومنهم عبد الله خوري على طلب الفرمان إمعاناً في تذكيرهم بعصور الذمّة، بل وإرجاعهم إليها. فالمطران خوري هنا يتحدّث عن تجربة ومعاناة لا عن أحداث تاريخية ولّت وحسب. ويضيف رئيس الوفد الثالث مركّزاً على مخاطر أي ربط للبنان بسورية وإلحاقة بها من أي نوع كان، ففي ذلك برأيه عودة لشبح مذابح 1860 التي قيل فيها المثل الدارج:«سنة الستين يا معين»[2]، وكذلك شبح مجاعة الحرب العالمية الأولى التي ذهب ضحيّتها أكثر من نصف مسيحيّي جبل لبنان لذا يقول «وإلحاقه [لبنان] بسوريا بأي رابط، مهما كان محدوداً، يعني تعريضه، كما بالأمس، للخراب والمذابح المتتالية ... فلا يقولن أحد بأن ظالمينا الأتراك لم يعودوا في سوريا.. فهل تضمن فرنسا بقاءها في سوريا؟ ليس الآن وقت التجارب والاختبار... فالتاريخ أبلغ شاهد على هذا الوضع... فينبغي تدارك العلّة بحيث سيكون متأخراً إبعادها»[3].

1 - مخطوطة المطران عبدالله خوري من أرشيف بكركي، نقلاً عن العلم، فيغان، البطريرك الحويك، م.س، ص218.

2 - الراسي، سلام، في الزوايا خبايا، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1974، ص72.

3 - العلم، فيغان، م.س، ص 218.

الدولة الشريفية كانت في نظر موارنة لبنان وسائر كاثوليكه دولة إسلامية أولاً وأخيراً مهما أعطي لها من صفات وألقاب. ومن هنا استشراسهم في رفضها.

حدّاد يؤمّن غطاء للدولة الشريفية الإسلامية

ومقابل هذا الموقف الماروني والكاثوليكي الحازم والواضح نجد أن البطريرك حدّاد يذهب في تأييده للدولة الشريفية حتى النهاية. فكان فيصليّاً وشريفيّاً أكثر من الهاشميين والحجازيين أنفسهم، وملكيّاً أكثر من الملك.

وسبق لنا في دراستنا الموسّعة عن نسيبنا أمين خيرالله صليبا وكتابه الأزاهير المضمومة، أن رجّحنا أن غريغوريوس هو مَن أوعز لكاتبه وتلميذه أمين بتأليف "الأزاهير" والذي يطالب فيه أن يكون الإسلام دين الحكومة والدولة التي كان فيصل بن الحسين قد أزمع إنشاءها[1]. وفي الكتاب المذكور قال أمين صليبا جهراً ما لم يستطع بطريركه الإفصاح عنه. وغريغوريوس الذي لقبّه السوريّون "بطريرك العرب"[2] صرّح أمام لجنة كينغ كراين الأميركية:«نحن النصارى الأرثوذكس في هذا البلد عرب غساسنة تدعونا عروبتنا لنكون يداً واحدة مع أبناء قومنا، ومع الدولة

1 - صليبا، د. لويس. الدولة الإسلامية من منظور مسيحي، جبل لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014، باب 2/فصل 6.

2 - الراسي، سلام، لئلا تضيع، أحاديث وأحداث، بيروت، مؤسسة نوفل، ط2، 1977، ص 123.

العربية الشريفية التي ارتضيناها وقبلناها»[1].

ويعقّب الراسي راوياً ومؤرّخاً:«وكان لهذا التصريح الخطير أثره الكبير على مجرى الاستفتاء، حتى إن شارل كراين اضّطر يومئذ إلى إرسال برقية إلى الرئيس الأميركي ولسون يقول له فيها إن القضية العربية ليست قضية إسلامية كما يدّعي الفرنسيون»[2] ما يعني أن بطريرك الروم أمّن غطاءً مسيحياً مهمّا وضرورياً لفيصل لتمويه الصفة الإسلامية الواضحة في مشروعه السياسي.

ولنتوقّف قليلاً عند تصريح حدّاد الخطير هذا وما يحمل من دلالات.

سبق لنا أن عرّفنا بالغساسنة اليعاقبة حلفاء البيزنطيين ودورهم في تسليم المدن للغزاة المسلمين عند الفتح العربي[3]. يقول المؤرّخ العالمي أرنولد توينبي[4] في ذلك:«وقد كان في

---

1 - الراسي، م.س، ص 123.

2 - م. ن.

3 - صليبا، د. لويس، الإسلام في مرآة الإستشراق المسيحي، دراسة، نصوص مترجمة وتعقيبات، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2013، ص 407-408.

4 - Arnold Toynbee (1889 – 1975)، مؤرّخ وفيلسوف تاريخ إنكليزي. أكّد في مؤلفه الرئيسي دراسة في التاريخ (12 جزءاً) إرادته في بناء فلسفة في التاريخ انطلاقاً من دراسة إحدى وعشرين حضارة. قال بدورية الحضارات وتوالدها بعضها من بعض. ولكنه لم يقل بحتمية انحطاطها كما قال الماركسيون. من مؤلّفاته، 1 – الحضارة في محنة 1951، 2 – الحرب والحضارة 1950، 3 – العالم والغرب 1953.

موقف المسيحيين اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة عون للعرب الفاتحين. ذلك بأنهم لم يأسفوا لتغيّر الحكّام»[1]، وغريغوريوس يتباهى هنا بعملهم الاستسلامي هذا. أما انتسابه إليهم، ففيه مغالطة تاريخية كبرى، فالغساسنة يعاقبة من حيث العقيدة. أما الروم الأرثوذكس فخلقدونيون على مذهب الأمبراطور البيزنطي، وقد دعوا "روم" نسبة إلى روما وهذا الأمبراطور، كما سمّوا ملكيين نسبة إليه أيضاً. فهم سلالة البيزنطيين عقيدة ونسباً، وليسوا متحدّرين من الغساسنة. ومع ذلك يحلو لبطريرك العرب الانتساب إليهم تأكيداً على تبعيته للدولة العربية الشريفية، والتي هي، ووفق منشور ثورتها وسائر بلاغاتها، دولة إسلامية.

الإنكليز سعوا إلى دولة حجازية إسلامية

وليس الشريفيّون وحدهم من أعطى لثورتهم ودولتهم المنشودة هذا الطابع الإسلامي. فحلفاؤهم البريطانيون كانوا، وقبل نشوب الحرب الكونية واشتعال الثورة الشريفية، يبحثون عن دولة أو خلافة إسلامية عربية تحلّ محل الدولة العثمانية وتؤمّن لهم مصالحهم بل تكون غطاءً لها. فانكلترة قبل الحرب كانت تسعى لتحقيق "مشروع يرتكز على توحيد المنطقة [سوريا الطبيعية] إسلامياً في إطار "خلافة" أو "دولة عربية"[2]

---

1 - توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر، ط1، 1982، ص 89.

2 - كوثراني، بلاد الشام، م. س، ص 12.

وفي التقارير الدبلوماسية الفرنسية السرّية في تلك الفترة نجد وصفاً دقيقاً للمشروع البريطاني هذا. أرسلت وزارة الخارجية الفرنسية العام 1913 أندريه ديبوسك إلى سوريا وفلسطين للاطلاع على أوضاعهما ومراقبة النفوذ الخارجي فيهما، ولاسيما نفوذ انكلترة والبحث عن الوسائل العملية لمكافحة هذا النفوذ. فرفع تقريره عن مهمته إلى وزير الخارجية الفرنسي في 1913/06/30[1]. وممّا جاء فيه بشأن المشروع الإنكليزي لإقامة خلافة إسلامية عربية:«أما فيما يتعلّق بالخلافة، فإن إنكلترة تتمنّى ظهور قوة روحية جديدة في شبه الجزيرة العربية تتّفق معها على تقويض سلطة السلطان [العثماني] الدينية، وحقوق السيادة التي ينبغي أن يحسب حسابها في مصر، ذاك السلطان الذي بدأ يتملّص شيئاً فشيئاً من سلطة الإنكليز عليه، ليدخل في دائرة عمل السياسة الألمانية»[2].

لكأن المبعوث الفرنسي إلى سوريا يتنبّأ في أسطره القليلة هذه بقيام الثورة العربية والدولة الحجازية. فهو قد توقّع تحديداً ما قام به الشريف حسين سنة 1916 بتشجيع وحث ودعم من الإنكليز. كان البريطانيون إذاً، ومنذ ما قبل نشوب الحرب، يبحثون عن قيام خلافة إسلامية عربية تقوّض سلطة الخليفة العثماني الدينية والسياسية بعد أن خرج هذا الأخير من الفلك الإنكليزي ليدخل في دائرة النفوذ الألماني. فوجدوا في

1 - كوثراني، م. س، ص 301.

2 - م. ن، ص 307.

الشريف حسين الرجل المناسب. وهم، بلا ريب، من أوحى إليه بفكرة الخلافة الإسلامية العربية، وشجّعوه على الثورة على الأتراك لتحقيق هذا المشروع.

بطريركان وموقفان متواجهان من الدولة الشريفية

كانت مخاوف البطريرك الحويك وسائر الأساقفة الكاثوليك في أن تكون الدولة الفيصلية المزمع إنشائها دولة إسلامية في محلّها إذاً. فهي تستند إلى معطيات ووقائع عديدة منها مناشير الثورة الشريفية نفسها والمعلومات عن مشروع الإنكليز حلفائها وغير ذلك. ولكن هل فاتت كل هذه الوقائع البطريرك حدّاد؟!

يبدو من تصريحه أمام لجنة كينغ كراين ومن مواقف المقرّبين إليه كأمين خيرالله صليبا وغيره، أنه لم يكن يخشى قيام حكومة وسلطة إسلامية هذا إن لم يكن يسعى فعلاً إلى ذلك. فما عاشه في ظلّ الدولة العثمانية وتحت سلطتها ما كان ليخاف أن يعيشه في الدولة الشريفية.

غريغوريوس وأكثر أساقفته وإكليروسه من جهة، وبالمقابل الحويك وأساقفته وسائر الأساقفة الكاثوليك تيّاران متواجهان وعلى طرفي نقيض في الموقف من الدولة الفيصلية، وما كان يرشح عن مشروعها الوحدوي الإسلامي. فهل أغفل بطريرك الروم هذا الجانب أو الطابع للمشروع الفيصلي، أم تغاضى عنه وعن أبعاده؟! الجواب الضمني يكمن في ما أسلفنا.

موقف حداد: تسامح أم تبعية

وإذا كان الأمر مجرّد تسامح، فهل كان تسامحاً في محلّه في منطقة كان الدين فيها، ولا يزال، العامل الأول في السياسة والأحداث؟ يستوقفنا هنا، وفي هذا الصدد، ما كتبه من دمشق، وعلى مقربة من مقرّ غريغوريوس وكرسيه البطريركي القنصل العام في قنصلية فرنسا في دمشق إلى القائم بالأعمال الفرنسي في القسطنطينية في 1914/02/19 (قبيل نشوب الحرب الكونية) عن العامل الديني وتأثيره الحاسم فقال:«يتزايد اعتقادي بأن الدين في الشرق، هو حقاً أساس كل شيء. وبرأيي لا ينبغي أبداً أن يغيب الدين عن بالنا عندما نحكم على الأحداث والمشاعر والتيّارات. بالطبع لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار، هنا كما في كل مكان آخر، المصالح المادية. لكننا مضطّرون في آخر التحليل إلى الاعتراف بأن الدين يتدخّل دائماً. ويبدو أن المحافظ الأكثر تخلّفاً والثوري الأكثر تقدّماً، والموظّف المدني أو العسكري، والذي درس في باريس كما الذي تثقف في برلين، يتصرّفون جميعهم، سواء كانوا مؤمنين أو أحرار التفكير، كما لو لم يعرفوا قطّ أي شيء آخر غير الكتب المنزلة»[1].

ففي بلد يبدو العلمانيّون فيه "دينيين" حتى التعصّب، هل كان البطريرك حدّاد محقّاً في ما يُنسب إليه من تسامح؟

ونتابع مع القنصل العام الفرنسي تقريره الموجز والمهمّ. فهو يقول في نهايته:«لا نجد أحداً أكثر لامبالاة من شعوب هذه

1 - كوثراني، م. س، ص 297.

البلدان عندما لا يكون الدين معنيّاً، وعندما لا يقوم القادة الذين يوجّهونهم ويضبطونهم حسب رغبتهم بإيقاظ تعصّبهم الديني. وثمة مثل محلّي يقول عن السوريين:«قشة تجمعهم والعصا تفرّقهم»[1].

ويختم القنصل بالقول:«لا يعتبر مسلماً ورعاً ذاك المتعلّق بإيمانه، إنما ذاك الذي يتقن بغض المسيحيين. فالتسامح فضيلة قليلة الشيوع في سوريا»[2].

فإلى أين كان تسامح غريغوريوس المزعوم سيقود المسيحيين لو قيّض لمشروعه وخياراته أن تنجح؟!



1 - م. ن، ص 299-300.

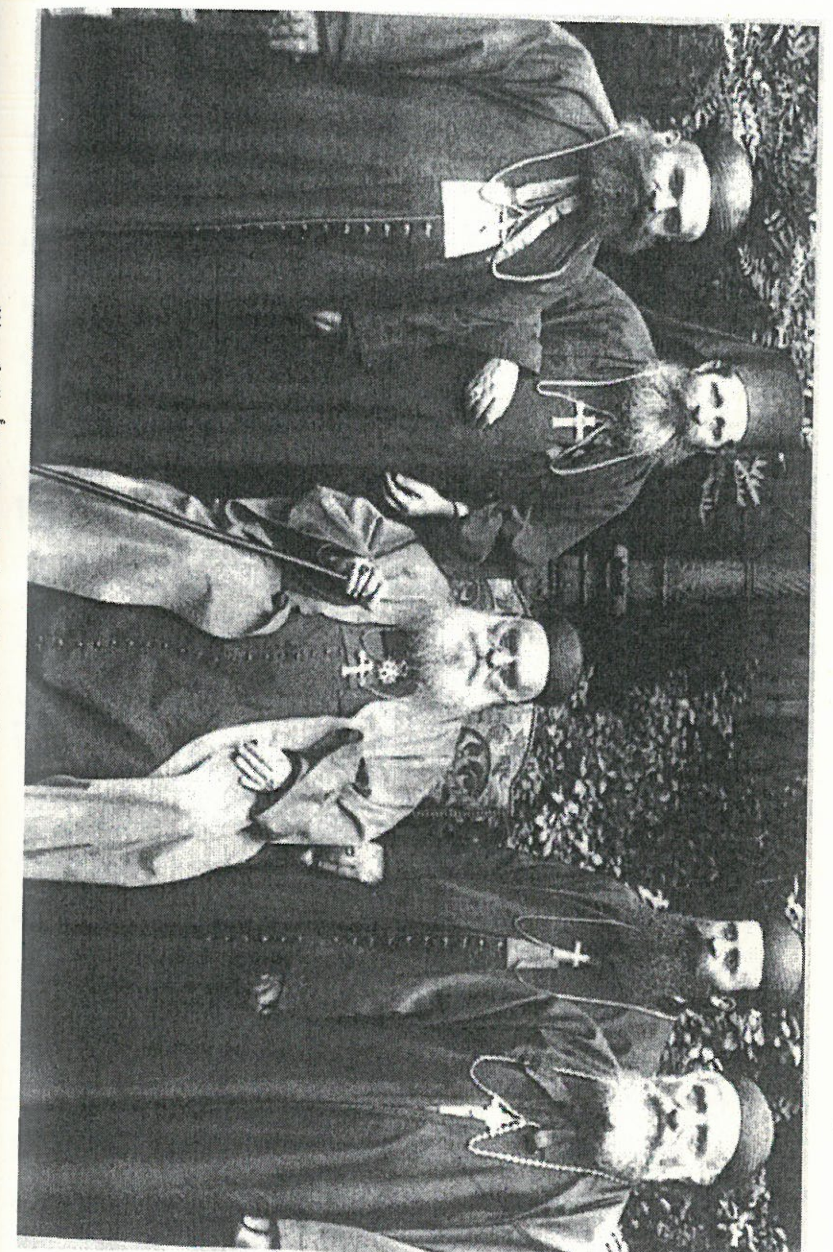
2 - م. ن، ص 300.



باب 4

فصل 2

الحويك وحدّاد والفرنسيون



الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر الصلح: البطريرك الحويك والأساقفة مرافقوه

مواضيع فصل 2 باب 4:

بطريرك لبنان وبطريرك العرب

حداد والفرنسيون علاقة استمرّت سيئة

حدّاد والخيار السياسي الفاشل

الحويك وغورو: علاقة ندّية

- الحويك يهدّد غورو بالثورة

غورو يحاول تمرير مشروع اتّحاد لبناني-سوري

غورو يعرض مشروع الاتحاد

خطاب ناري للحويك بحضور غورو

غورو يتراجع عن مشروع الاتحاد

الحويك رجل المواجهات

الحويك يهدّد الفرنسيين بالثورة 1926

الحويك حليف غير مرتهن

الحويك: كبير في مواقفه وعلاقاته

بطريرك لبنان وبطريرك العرب

سبق وقارنّا بين البطريركين في علاقاتهما بالأتراك والسلطنة. ولا مجال للمقارنة بينهما في العلاقة بالحجازيين وفيصل، فالبطريرك الحويك لم تكن له تقريباً أية علاقة بالشريف وابنه. وقد سأله، عندما سافر إلى مؤتمر الصلح/باريس، صحافي في جريدة Action Française إذا ما كان قد اجتمع في يوم ما بالأمير فيصل، فأجاب:«لم أره يوماً، ولا أفكّر برؤيته. فما من شيء مشترك واحد يجمعنا»[1].

فالأجدى إذاً مقارنتهما في علاقتهما كل مع حليفه. الحويك مع الفرنسيين، ولا سيما الجنرال غورو. وحدّاد مع الشريفيين وخصوصاً فيصل.

سبق وذكرنا أن علاقة البطريرك حدّاد بفيصل والحجازيين كانت امتداداً لعلاقته بالعثمانيين. إنها في جوهرها علاقة تبعية، ولم تخلو من انبهار بفيصل وحبّ لشخصيته. وكأن بطرك الروم، وببساطة، نقل البارودة من كتف إلى كتف، ولم يرَ ضيراً من الانتقال من دولة إسلامية تركية إلى دولة إسلامية عربية.

ولعلّ في اللقب الذي حمله كل من البطريركين دلالة على

1- Zoghbi, Marie-Roger, Une gloire du Liban le Patriarche Elias Hoyek, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1991, p. 209.

شخصيته

فحدّاد عُرف منذ الحكم الفيصلي، وكما سبق وذكرنا بـ: "بطريرك العرب"[1]. أما الحويّك فلقّب بـ: "بطريرك لبنان". وقد توافق اللبنانيون والفرنسيون على منحه هذا اللقب. فعند زيارته لباريس 1905 صدّرت جريدة الفيغارو Le Figaro الشهيرة صفحتها الرئيسية بالعنوان التالي: Le Patriarche du Liban à Paris بطريرك لبنان في باريس. فلبنان كان قضية حياة الحويك. أما حدّاد فقضيته الدولة العربية.

حداد والفرنسيون علاقة استمرّت سيئة

ونجد في علاقة الحويك بفرنسا طابعاً نديّاً بعيداً عن التبعية يصعب بل يستحيل أن نجده في علاقة حدّاد بالحجازيين. أما علاقة بطرك الروم بالفرنسيين فاستمرّت سيئة طيلة حياته. وكان من البديهي أن لا يثقوا به بعد تأييده الكامل لفيصل. وسنعرض، في ما يلي، لجدلية علاقة كل من البطريركين مع المنتدِب الفرنسي.

ونبدأ ببطرك الروم، إذ لا تفاصيل كثيرة تذكر عن علاقته بالفرنسيين وتكاد هذه العلاقة تختصر بالريبة والشك. فالمسؤولون الفرنسيون الذين توالوا على حكم دمشق أيام غريغوريوس لم ينسوا له موقفه من فيصل ورفضه التامّ للانتداب الفرنسي أيام هذا الأخير. وكتب البعض في مذكّراته وأوراقه انطباعاته عن هذا البطريرك. وأبرز هؤلاء الجنرال كاترو

1 - الراسي، لئلا تضيع، م. س، ص 123.

السالف الذكر. وكان حاكماً لدمشق في عهد المفوض السامي الجنرال غورو. واشتهر عن كاترو، كما ألمحنا، دبلوماسيته وقربه من المسلمين والوحدويين ونجاحه في استمالة الكثيرين ممّن رفض الانتداب الفرنسي بداية. وهذا ما حاوله مع غريغوريوس. ولكن كاترو وجّه في مذكراته عن حكمه لدمشق نقداً حادّاً لبطرك الروم ممزوجاً بتهكّم لاذع. وممّا قاله:«كانت العلاقات مع هذا البطريرك شاقّة ومتعبة، لأن الدنيوي والمادّي كان يختلط دوماً عنده بالديني والروحي»[1].

وعبّر حدّاد في أواخر أيامه عن الأسى والأسف لموقف الفرنسيين منه، في كلام قاله للدكتور جون مرهج ونقلناه في كتاب "الدولة الإسلامية". إذ باح له يوماً بما يلي:«أنا على شفيرها. وعندما طلب منه مرهج توضيحاً قال:«صادقنا روسيا فكانت الحرب الكبرى وويلاتها. وأساء العثمانيون بعض الظنّ بنا. فكانت حجّتنا كسباً لأبنائنا. وبايعت فيصلاً وخرجت مودّعاً إياه. فأساء الفرنسيون فهم الصداقات والعلاقات. أنا على شفيرها»[2].

حدّاد والخيار السياسي الفاشل

وتستوقفنا حسرة غريغوريوس هذه أواخر أيامه. ألا تعبّر، في الحقيقة، عن شعور عميق بفشل خياراته السياسية

1- Lerner, catroux, op. cit, p 85.

2 - صليبا، د. لويس، الدولة الإسلامية، م. س، باب 3/فصل 6، البطريرك والأمير فيصل.

وإخفاقها!! لقد كان يمضي في خياراته حتى النهاية ولا يحسب خطّ الرجعة وفق التعبير العامّي. لعلّه كان في علاقاته صديقاً وفياً، ولكنه بالتأكيد لم يكن سياسياً محنّكاً ومتبصّراً. فالمشروع الفيصلي بدا، ومنذ البدء، متعثراً تقف بوجهه مصالح دول كبرى انتصرت في الحرب ودفنت "الرجل المريض" (الدولة العثمانية). ومع ذلك فقد دعمه غريغوريوس دون قيد أو شرط. وفي زمن مواجهة فيصل للفرنسيين ومعركة ميسلون انتشرت ردّة زجل لبنانية تقول:

يا مير وش لك بالحروب — وفرنسا مانك قدّها
هيدي دول بدها دول — راعي الغنم ما يردّها[1]

لقد وعى الزجّال اللبناني أن لا طاقة لفيصل على صدّ فرنسا. أما البطريرك حدّاد، فيبدو أنه كان غافلاً عن ذلك. فجرّ على نفسه نقمة الفرنسيين بقية حياته.

وباختصار لقد كان موقف غريغوريوس من الدولة الشريفية ودعمه الكامل لفيصل خياراً سياسياً فاشلاً، ويدلّ على قصر نظر. ويضيف البعض، بشيء من الإجحاف والقسوة، أن موقف بطرك الأرثوذكس هذا كان امتداداً للتبعية التي تعوّد أن يعيش فيها.

الحويك وغورو: علاقة ندّية

وعلاقة بطرك العرب الودّية هذه بفيصل جديرة بأن تقارن بالعلاقة الوطيدة التي ربطت "بطرك لبنان" بالجنرال غورو على

1 - الراسي، في الزوايا، م. س، ص 238.

اختلاف وتمايز بين العلاقتين. وهذا ما سنعرض له في التالي.

وعلاقة البطريرك الماروني بالمندوب السامي غورو كانت تحكمها، بلا ريب، علاقته بفرنسا الدولة المنتدبة التي حمت الموارنة تقليدياً منذ زمن الملك/القديس لويس التاسع، مروراً بالملك فرنسوا الأول، ثم لويس الرابع عشر (لويس الكبير) وصولاً إلى نابوليون الثالث الذي جرّد حملة فرنسية إثر مجازر 1860.

ومع ذلك يبقى لهذه العلاقة طابع ودّ شخصي بين الرجلين. ولكن هذا الودّ لم يمنع البطريرك من مواجهة صديقه الجنرال متى شعر أن مصلحة لبنان في خطر كما سنرى.

ولا نعرف تحديداً متى تعرّف الحويك إلى غورو. ولكننا نجد بطرك الموارنة عندما كان يرأس الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر الصلح يتوسّط لتعيين هذا الجنرال القدير مندوباً سامياً لفرنسا في لبنان. كان الزمن زمن حوادث طائفية ذكّرت المسيحيين بمجازر 1860. فاتّجهت أنظار "بطرك لبنان" إلى قائد حربي حازم رأى فيه جرّاحاً ماهراً وقادراً على استئصال هذا الداء. يروي الأب حرفوش سكرتير الحويك ومرافقه:«وكانت عصابات الشريف تجدّد حوادث سنة 1860 في الأقاليم الجنوبية التي طلبت الانضمام إلى لبنان. فبادرت الحكومة الفرنسية إلى تدارك الحالة ومعالجتها بتعيين الجنرال غورو مندوباً سامياً لها في سوريا ولبنان. وكان البطريرك آنئذٍ في باريس يتوسّط لدى أرباب الأمور في إيفاد هذا القائد المعدود من أكبر رجال الحرب

الذين يشار إليهم بالبنان. فبلغ الجنرال المومى إليه بيروت في 1919/11/2. وكان البطريرك لم يزل في فرنسا»[1].

ونجد في رسائل الرجلين وخطاباتهما تعابير ودّ صادق تخرج عن اللياقات والبرتوكول في آن، وتدلّ على عمق الصداقة التي ربطت بينهما.

ففي خطاب للحويك إثر عودته إلى لبنان، ألقاه في بعبدا عند زيارته لمجلس المتصرفية، توجّه إلى غورو الحاضر هناك قائلاً:«أنا قد أتممت سعيي، وما بقي لي الآن غير أن أقول: أيها القائد إصنع ما يوحيه إليه قلبك»[2].

ولنلحظ عبارة الحويك الأخيرة:"قلبك". لم يقل له واجبك أو ضميرك بل قلبك. فرغم أن المسألة العاطفية قلّما تدخل في حسابات العسكريين، ولا السياسيين ومخطّطاتهم، فقد توجّه البطريرك إلى قلب هذا القائد.

ونجد الجنرال غورو يقابل البطريرك بالودّ والحبّ عينهما. فهو يكتب إليه مثلاً في 1920/08/12 إثر انتصاره في ميسلون: «كان لرسالتكم بالغ الأثر في نفسي .... ففيها تعبّرون بقلبكم الوطني الكبير عن فرحتكم (...)»[3].

وممّا لا شك فيه أنه كان لعلاقة المودّة هذه دور أساسي في احترام مطالب البطريرك وتلبيتها. ففي الرسالة عينها يبلغ غورو

---

1 - حرفوش، م. س، ص 607.

2 - حرفوش، م. س، ص 605.

3 - م. ن، ص 642.

الحويك بأنه أعلن ضمّ الأقضية الأربعة (بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا) إلى لبنان. ويزفّ له النبأ السار بقرب إعلانه للبنان الكبير قائلاً: «أعلم يا صاحب الغبطة كم سيفرحكم هذا العمل الكبير الذي سيتوّج أماني اللبنانيين ووفاءهم ولاسيما الموارنة منهم»[1].

وإثر تعرّض غورو لمحاولة الاغتيال في القنيطرة في 1921/07/23 والتي نجا منها بأعجوبة ولم يصب فيها سوى كمّ يده اليمنى المقطوعة، كان البطريرك الماروني أول من زارهم الجنرال «فهنأه البطريرك بسلامته وجرى له استقبال فخيم، فزاد اعتقاداً من إخلاص البطريرك وشعبه. وزار سيدة لبنان بورعه المشهور مسدياً لها الشكر عل نجاته»[2] كما روى الأب حرفوش مرافق الحويك.

كلّها وثائق ووقائع تؤكّد عمق العلاقة التي ربطت بين البطريرك والجنرال ومتانتها.

الحويك يهدّد غورو بالثورة

لكن علاقة الودّ الواضحة هذه، لم تمنع البطريرك من مجافاة صديقه الجنرال، لا بل حتى من تهديده، متى كان الأمر يتعلّق بمصلحة لبنان الكبير العليا. وقد كرّس له الحويك حياته وسعيه. وخير دليل على ذلك حادثة الديمان التي وقف فيها بطرك لبنان

---

1 - م. ن.

2 - حرفوش، م. س، ص 651.

بوجه جنرال فرنسا معلناً أن أي مسّ بتراب لبنان الكبير ووحدته سيقابل بإشعال الثورة.

ولا بدّ أن نروي هنا، باختصار، حادثة الديمان هذه وبعض تفاصيلها ووقائعها. فهي تبيّن لنا جوانب مهمّة من شخصية البطريرك الحويك وثوابت عمله، وتسلّط أضواء واضحة على العلاقة التي ربطته بالجنرال غورو وفرنسا عموماً.

والشاهد الأساسي، لا بل أحد اللاعبين الأساسيين في حادثة الديمان، كان الكاتب والسياسي اللبناني يوسف السودا. وهو يروي تفاصيلها في كتابه في سبيل الاستقلال. ومنه سنوجز مجرياتها.

غورو يحاول تمرير مشروع اتّحاد لبناني-سوري

يذكر السودا أن الجنرال غورو وفي الخطاب الذي أعلن فيه قيام لبنان الكبير في 1920/09/01، لم يأت على ذكر العلاقة بين لبنان وسوريا، ولم يشر إلى استقلال لبنان إلا بطريقة غامضة غير محدّدة وتثير بعض الريبة[1].

وممّا زاد في ريبة اللبنانيين أن غورو نفسه عاد وقال في خطاب له بعد ذلك في دمشق «أعلنّا استقلال لبنان، ما لم يغيّر اللبنانيون فكرهم»[2]. ثم أتبعه بخطاب آخر في حلب جاء فيه «إستقلال لبنان – إلى أن يعدل عنه اللبنانيون»[3].

---

1 - السودا، الإستقلال، م. س، ص 282.

2- السودا، م. س، ص 334.

3 - م. ن، ص 334-335.

وهذا التناقض والتأرجح توضح خلفيته وحقيقته الوثائق الفرنسية العائدة إلى تلك الفترة. سبق وذكرنا، في عرضنا لآراء روبير دو كيه ومن ثم كاترو، أن السياسة الفرنسية كان يتنازعها اتجاهان:

1- تجزئة وتفتيت لسوريا وتعامل مع الأقليات يمثلها دو كيه وغيره.

2- وسياسة وحدوية دافع عنها ماسينيون وبرتلو وتبنّاها كاترو.

وهذا الأخير، وكما سبق واشرنا، استطاع أن يقنع رئيسه غورو، في مرحلة ما، بصوابية فكرته، فوحّد بين دولتي دمشق وحلب. لكنّه لم يستطع المسّ بلبنان الكبير خوفاً من الموارنة وبطريركهم. نحن إذاً في قلب هذه المرحلة، وفي المواجهة بين غورو والموارنة وبطريركهم عندما حاول المندوب السامي تمرير مشروع الفيدراسيون أي الاتحاد بين لبنان وسوريا. وهذا المشروع يبدو أنه كان متزامناً مع مشروع غورو في إعلان لبنان الكبير 1920/09/1. ففي مراسلات رئيس الوزراء الفرنسي ميلّران إلى مندوبه السامي في لبنان غورو تبدو معالم هذا المشروع ونواته واضحة. يقول ميلّران في رسالة إلى غورو في 1920/08/06 «كان لبنان قد أكدّ بصورة قاطعة رغبته في الاستقلال الكامل تحت الإنتداب الفرنسي (...) لذلك قد ينتج بعض المساوئ من جرّاء فرض إرادتنا على الشعور اللبناني. فمن خلال الواقعية، ومن خلال نجاح الرقابة الفرنسية على الاتحاد السوري، يمكننا

أن نقود لبنان للارتباط به»[1].

ويتحدّث ميلّران في رسالته هذه عن استقلال مؤقّت للبنان ولفترة محدودة عن الكونفدرالية السورية وتوسيعه باتجاه الساحل والبقاع وعكّار والجنوب[2].

ولعلّ خلو خطاب غورو في حفل إعلان لبنان الكبير 1920/09/01 من إشارة واضحة إلى استقلاله وعلاقته بسوريا يعود إلى مشاريع ميلّران هذه.

وقد أحسّ اللبنانيون بهذا التناقض في الموقف الفرنسي وتباين المشاريع واختلافها، والذي عبّرت عنه خطابات الجنرال غورو. ويحدّثنا يوسف السودا عن نقاش حادّ جرى في 1921/07/15 في الإسكندرية بين روبير دو كيه وبعض الوجهاء المسيحيين اللبنانيين المقيمين في مصر[3]. وقد أراد هؤلاء أن يعرفوا من الدبلوماسي الفرنسي إذا ما كانت حكومته تنظر إلى استقلال لبنان على أنه نهائي وثابت ولا رجوع عنه أم لا. وتمّ الاتفاق في نهاية هذا اللقاء العاصف على أن يرتّب دو كيه اجتماعاً ليوسف السودا مع الجنرال غورو عندما يسافر الأول إلى لبنان لقضاء فصل الصيف.

غورو يعرض مشروع الاتحاد

وعقد الاجتماع المذكور في عاليه في 1921/08/08. ونقل فيه

1 - كوثراني، م. س، ص 219.

2 - م. ن.

3 - السودا، م. س، ص 334-335.

السودا إلى المندوب السامي مخاوف اللبنانيين وهواجسهم بسبب ما يأتيهم من أخبار، ويقرأون من تحفّظات على استقلال لبنان. ولذلك فهم يريدون أن يعرفوا حقيقة موقف فرنسا من هذا الموضوع بصورة واضحة وصريحة ونهائية. ففوجئ عندها السودا بسماع جواب الجنرال التالي:«لا أخفي عليك أنني رأيت، بعد الاختبار، ومنذ إعلان لبنان الكبير في أيلول الماضي، أن هناك مسائل تستدعي إعادة النظر، وبنتيجة البحث والمشاورات رأيت أنه يمكن اللجوء إلى شكل فدراسيون بين سوريا ولبنان، وقد وضعت مشروعاً بالفدراسيون»[1].

واعترف غورو بوجود معارضة لبنانية لمشروعه. ولكنه بالمقابل ذكر أن بعض الشخصيات اللبنانية (لم يسمّها السودا) قد وافقت عليه. وأكّد المندوب السامي أن الجميع سيعود إلى رأيه[2].

اعتبر السودا أن ما سمعه من الجنرال خطير جداً، لاسيما بعد أن عرضه على عدد من القيادات المارونية وشاركه الجميع شعوره بهذه الخطورة. ومن هؤلاء داود عمّون والمطارين عبدالله خوري وأوغسطين البستاني (مطران صيدا) وإغناطيوس مبارك (مطران بيروت)، فاتفق الجميع على أن يذهب السودا إلى البطريرك الحويك في الديمان (المقرّ الصيفي/شمال لبنان) بكتاب توصية منهم ليشرح له الأمر. فقصد السودا الديمان في

1- السودا، م. س، ص 339.

2 - م. ن، ص 340.

1921/09/23 وأطلع الحويك على كلام غورو. فأظهر البطريرك اهتماماً شديداً بالموضوع، وأخبر السودا أن المندوب السامي قادم لزيارته عشية ذلك اليوم بالذات، وأنه سيمضي ليلته بضيافته. ودعاه إلى مأدبة العشاء التي سيقيمها على شرف الجنرال[1].

خطاب ناري للحويك بحضور غورو

ويروي السودا لنا ما حصل أثناء العشاء فيقول:«مجاملات وعواطف إلى أن جاء دور الشمبانيا. فوقف البطريرك وارتجل بالفرنسية خطاباً استهلّه بالترحيب بممثّل الدولة صديقة الأجيال، القائد الكبير الذي أعلن دولة لبنان الكبير. ثم ذكر الشائعات التي تدور حول الرجوع إلى فكرة الوحدة بشكل من الأشكال، فاستنكر وقال إنه رغم شيخوخته وما لقي من مشقّات السفر إلى المؤتمر، سيعود إلى باريس، ولا يرجع إلا بعهد صريح أن استقلال لبنان بحدوده نهائي لا يمسّ. وكان التصفيق والهتاف يقاطعان الخطاب بشكل كهرب الجو. وزاد التوتّر حين أنهى البطريرك خطابه بجملة لم تنشر يومئذٍ حذراً من إثارة أزمة خطيرة بين البطريركية والمفوضية. والجملة هي:«وإذا مسّت حفنة من تراب لبنان فأنا -خلال أربع وعشرين ساعة- سأعلنها ثورة في البلاد»[2].

رغم ما بين الرجلين من ودّ وصداقة عميقة، لم يتردّد

1 - لسودا، م. س، ص 349-350.

2 - م. ن، ص 352.

البطريرك في تهديد صديقه بالثورة. فمصلحة لبنان عنده فوق كل مصلحة.

غورو يتراجع عن مشروع الاتحاد

ويحدّثنا السودا عن ردّة فعل المندوب السامي على التهديد فيقول:«وكأن تياراً كهربائياً مسّ الجنرال عند سماعه هذه الجملة، فانتصب منتفضاً، وزعق والزبد يرغو في فمه قائلاً: مفاجأة، مفاجأة. يا مونسنيور. أتهدّدني بالثورة. وفي البيت الذي نعتبره بيت فرنسا. أنا الذي أعلنت لبنان الكبير. أنا الذي أمّنت لكم الاستقلال والحدود الطبيعية من الناقورة إلى النهر الكبير ... تهدّدني بالثورة»[1].

كان وقع المفاجأة صاعقاً على غورو. فهو لم ينتظر بتاتاً أن يتحدّث البطريرك علناً عن هذه المسألة، لاسيما وأنها كانت لا تزال ضمن المداولات السرّية. وبالأخصّ لأن الحويك لم يكتفِ برفض الفكرة، بل أعلن أنه سيقاومها بالثورة.

ويستأنف السودا روايته:«ثم سكن روعه قليلاً فقال: ولكن يعزّيني أن هذه الأفكار ليست أفكاركم، بل هي أفكار المسيو سودا الجالس بقربكم[2] (...) نعم حدّثت المسيو سودا عن الفدراسيون. ولكنني قلت له إن المشروع لا ينفذ إلا إذا وافق اللبنانيون، ولغبطتكم الرأي الأول. وما دام اللبنانيون غير موافقين، فلا تنشأ فدراسيون (...) وقال الجنرال: لا كلمة في

1 - م. ن، ص 352.

2 - م. ن.

الجرائد عمّا حصل. وفي اليوم التالي جرى حديث بينهما (البطريرك والجنرال) جدّد فيه الجنرال الوعد للبطريرك أن مسألة الفدراسيون قد طويت. ولم يشأ الجنرال أن يكون للحادثة ذيول»[1].

ويروي لنا السودا ما قاله له الحويك عندما جاءه آسفاً عمّا حدث:«فربّت [البطريرك] على يدي وابتسم قائلاً: كن مطمئناً. عملنا الواجب. كان من الضروري أن نخلص من هذه القصّة، قصة الفدراسيون. وإذا رجعوا رجعنا. فلا تهتمّ»[2].

وحادثة الديمان هذه بالغة الدلالات، وتوضح لنا شخصية الحويك ودوره الأساسي في إعلان لبنان الكبير وطبيعة علاقته بصديقه الجنرال غورو.

الحويك رجل المواجهات

ومما نستنتجه منها أن البطريرك هو المنشئ الحقيقي للبنان الكبير لا الجنرال. فهذا الأخير كان سيعود عن قراره وإعلانه بعد أقلّ من سنة عليه. والحويك كذلك هو رجل المواجهات والقرارات التاريخية، لم يحجم عن تهديد صديقه وعلناً عندما دعت الحاجة والمصلحة العليا. ولولا هذا التهديد المباشر لكان المندوب السامي وإدارته وحكومته كلّهم قد مضوا في تنفيذ مشروع الوحدة، لاسيما وأنه كان مخطّطاً له قبل إعلان لبنان الكبير كما رأينا في رسالة ميلّران رئيس الوزراء الفرنسي إلى

1 - م. ن، ص 353.

2 - م. ن.

غورو. وكأن لبنان الكبير كان مرحلة نحو الوحدة الكبرى. وهذا التدخّل الواضح والسافر للحويك هو الذي أحبط المشروع الفرنسي. ونلاحظ عزم بطرك الموارنة في الاستمرار بالتصدّي: إذا رجعوا رجعنا.

الحويك يهدّد الفرنسيين بالثورة 1926

وقد عادوا بالفعل في ظروف أخرى، فعاد البطريرك إلى التهديد. كان ذلك أثناء الثورة السورية الكبرى 1925-1927. فرغم إعلان الدستور والجمهورية في لبنان في أيار/مايو 1926 ترك المفوض السامي دوجوفنيل الباب مفتوحاً لكثير من الإشاعات حول استعداد فرنسا لإعادة النظر في الحدود السورية-اللبنانية. وبدا أن فرنسا بصدد إرضاء الثورة السورية على حساب لبنان. فما كان من الحويك إلا أن هدّد المفوّض السامي الفرنسي بالوكالة بثورة مضادّة إذا لم تعدل دولته عن فكرة التنازلات الجغرافية التي تزمع تقديمها لسوريا. كان ذلك في لقاء عاصف بين دو ريفي المندوب السامي بالوكالة والحويك في مقرّه في جديدة قنوبين في 1926/09/24. وقد نقل وقائعه مؤرّخ سيرة البطريرك الأب حرفوش.

وممّا قاله البطريرك لِ دو ريفي:«لا نريد أن نقدّم برهاناً على تعلّقنا بفرنسا والتقاليد التي تربطنا بها منذ أجيال فذلك أمر مشهور (...) إننا ذهبنا إلى باريس فأثبت لنا المسيو بوانكاره والمسيو كليمنصو محافظتهما على التقاليد وعلى استقلال لبنان بحدوده الحالية. فعلام هذه الضجّة التي يثيرونها تارة بسلخ

هذه المدينة وطوراً بفصل طرابلس وإلحاقها بالوحدة السورية (...) إن طرابس هي جزء متمّم لأراضي لبنان (...) فكيف يعقل أن تجتازوا بها الأراضي اللبنانية لتوصلوها إلى سوريا (...) إن لبنان لم يكن الباعث للثورة الحالية حتى يدفع ثمنها (...) وجلّ ما نطلبه المحافظة على لبنان بحدوده الحالية على أن ذلك هو في مصلحة فرنسا قبل مصلحتنا»[1].

وختم الحويك حديثه بتهديد واضح بالثورة ضدّ الفرنسيين إن هم اقتطعوا أي شبر من الأراضي اللبنانية، فقال:«إن لبنان قادر على إيجاد الإضطرابات وإقلاق بال الحكومة والوقوف بوجهها، إلا أنه يحبّ السلام والسكينة، فهو مخلص أمين في وعوده، ونودّ أن تبادله فرنسا النبيلة هذا الإخلاص»[2].

وهكذا فالتهديد بالثورة كان سلاحاً أشهره بطرك الموارنة بوجه الفرنسيين في كل مرّة حاولوا المسّ بلبنان الكبير. ومن يومها تعلّم الفرنسيون أن لبنان الكبير بات أمراً واقعاً لا يمسّ، فصار الحفاظ عليه من ثوابت السياسة الفرنسية في الشرق. وهذا ما أكّده من خلف غورو مندوباً سامياً: ويغان، وبونسو وغيرهم، وحتى الجنرال كاترو آخر المندوبين. فهذا الأخير كان كما رأينا من أشدّ المتحمّسين لمشروع الفدراسيون، ولعب دوراً مهمّاً في إقناع رئيسه غورو يومها به. ورغم كل ذلك فهو يروي في مذكرات ثانية له أنه يوم تولّى المندوبية السامية 1941 أحال

---

1 - حرفوش، م. س، ص 661-662.

2 - م. ن، ص 662.

مشروعاً لإعلان استقلال لبنان على القيادة البريطانية ينصّ على أن «فرنسا الحرّة تعتبر دولة لبنان سياسياً وجغرافياً وحدة لا تتجزأ، وبأن تماسكه ينبغي أن يصان من أي تهديد كان»[1].

وقد قبلت القيادة البريطانية بنصّه، ولكن الجنرال إدوارد سبيرز[2] حاول إلغاء لفظة لا تتجزأ، فأصرّ عليها كاترو وعلى المقطع كاملاً، فرفعت القضية إلى لندن، وأمام إصرار الجنرال ديغول على وحدة لبنان غير القابلة للتجزئة، تراجع سبيرز[3].

لقد صار لبنان الكبير، وبفضل إصرار البطريرك الحويك عليه، ثابتة في السياسة الفرنسية لا تمسّ.

كانت صداقات الحويك المتينة وعلاقاته بالفرنسيين وغيرهم كلها مسخّرة للمصلحة الوطنية العليا، وليس العكس كما هو السائد في أيامنا.

الحويك حليف غير مرتهن

والخلاصة لم يكن الحويك بتاتاً كما حاول البعض أن يشيّع

1- Catroux, Georges, Dans la bataille de Mediterrannée (1940-1944), Paris, René Juliard, 1948, p. 230-231.

2 - إدوارد سبيرز (1887-1974). رئيس البعثة الإنجليزية في المشرق. أقلع الجنرال ديغول إلى بريطانيا بعد انهيار فرنسا على طائرته (1940/06/17). عيّنه تشرشل في تموز 1941 رئيساً للبعثة الإنجليزية في المشرق. فتمركز في بيروت، وأصبح في ك2 من سنة 1942 وزير بريطانيا المطلق الصلاحية لدى حكومتي سوريا ولبنان. لعب دوراً مهمّاً في حقبة استقلال لبنان. ونشر مذكرات عن دوره هذا.

3- Catroux, op. cit, p. 231.

عنه "مرهوناً للموقف الفرنسي"، فالوثائق الفرنسية العائدة لحقبته تثبت عكس ذلك. ويقول صديقنا الدكتور عصام خليفة المتخصّص في الأرشيف الفرنسي المتعلّق بلبنان في هذا الشأن «إن المدقق في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية يكتشف أن الأمر ليس كذلك (أي فرضية ارتهان الحويك للفرنسيين)»[1].

ويورد خليفة دليلاً على ما يقول، وعلى سبيل المثال لا الحصر، إيعازاً من وزارة الخارجية الفرنسية إلى نعوم مكرزل تطلب فيه منه إرسال برقية إلى بطرك الموارنة بتاريخ 1919/05/30 تؤكّد أن ممثله في باريس المونسنيور عمانوئيل فارس وعدد آخر من المقرّبين إلى البطريرك بما فيهم إبن أخيه يطالبون باستقلال لبنان من دون أي تعاون مع فرنسا[2].

وحادثة الديمان تؤكّد هي الأخرى أن الحويك كان حليفاً لفرنسا، وليس منفّذاً لسياستها أو مرتهناً لها، ولم يحجم عن مواجهتها إذا دعت الحاجة.

الحويك: كبير في مواقفه وعلاقاته

وقد عبّر الحويك لاحقاً عن خيبة أمل مريرة من فرنسا. وذلك لوفد من المعارضين لنتائج الإنتخابات التي نظّمها غورو (نيسان 1922) فقال كلمته المشهورة:«يا بنيّ، وجدنا فرنسا مثل النار، كنا عن بعيد نتدفّأ على حرارة عاطفتها، أما اليوم، وقد

1 - خليفة، شخصيات بارزة، م. س، ص 8.

2 - م. ن.

أصبحت قريبة منا، فقد أخذت هذه النار تحرقنا»[1].

وجدلية العلاقة هذه بما حوت من ذرى ووهاد، لم يكن من شأنها أن تفسد الصِلات الوثيقة بين غورو وسائر الفرنسيين من ناحية وبطرك الموارنة من ناحية أخرى. فبقي هؤلاء على احترامهم الكبير والمميّز له. يشهد على ذلك قول الجنرال غورو، في برقية له معزّياً بالبطريرك (1931/12/28) وكان يومها حاكماً لباريس

Je le croyais éternel.

كنت أعتقد أنه أبديّ. تعازيّ القلبية. وأسفي كبير أن أكون بعيداً اليوم[2].

ولعلّ من أنصف الأحكام على الحويك ووقفاته التاريخية وعلاقاته بكبار معاصريه، قول مرافقه ومؤرّخ سيرته الأب إبراهيم حرفوش في خلاصة كتابه:«لقد حلّته العناية الإلهية بالصدق والجرأة الأدبية، وكانت المتكلّمة فيه أمام الأحبار الأعظمين والولاة والسلاطين وكل عاتٍ جبار. فوقف تلك الوقفات المجيدة مع أمبراطور النمسا والبابا لاوون الثالث عشر والسلطان عبد الحميد والطاغية جمال باشا ونمر فرنسا كليمنصو وهو في سكرة النصر، ونال من كل منهم ما شاء

1 - هاشم، الأب ريمون، الإنتداب الفرنسي على لبنان، ظروفه، إقراره، دولة لبنان الكبير وإعلان الدستور، بيروت، منشورات الجامعة الأنطونية، ط1، 2007، ص 321.

2 - حرفوش، م. س، ص 726.

وشاءت العناية»[1].

والخلاصة لقد كان كبيراً، بل عملاقاً في مواقفه وصدقه وكذلك في علاقاته وشهد له بذلك الأعداء والأخصام .. كما الأصدقاء.

غورو في صورة تذكارية مع أعضاء المجلس التمثيلي في 1920/10/06

1 - حرفوش، م. س، ص 739.

باب 4

فصل 3

وادي النصارى ولبنان الكبير
من إشاعة إلى أسطورة

مواضيع فصل 3 باب 4:

- **وادي النصارى: الجغرافية والسكان**

أشهر قرى وادي النصارى

- **إشاعة محاولة ضمّ الوادي إلى لبنان الكبير**

خرائط الحملة الفرنسية وتقاريرها

حدود لبنان في تصوّر البطريركية المارونية

الحويك يطالب بالحدور وفق التصوّر الفرنسي–الماروني

ليس في الوثائق أي إشارة لوادي النصارى

لم تعرض على الحويك ولا هو رفضها

تفنيد أقوال المؤرّخين عن وادي النصارى

حكي الجرائد كلام مُرسل

روم وادي النصارى لم يفكّروا أصلاً بالانضمام

- **لا الفرنسيون ولا الحويك ولا أهل الوادي فكّروا بضمّها**

دراستنا هذه، والتي تتناول أوجه النزاع بين الموارنة والروم على الكيان نشأة وهوية، لا يمكن لها أن تكتمل إذا لن نتطرّق إلى موضوع نجده مكروراً في الكثير من مقالات الصحف والجرائد، وفي أحاديث السياسيين والناس عامة. إنه مسألة وادي النصارى وخبرية، بل إشاعة، محاولة ضمّها إلى لبنان الكبير. وسنتناول في هذا الفصل هذه الإشاعة ومطلقيها، ونفنّد ما يُتداول بشأنها.

وادي النصارى: الجغرافية والسكان

وادي النصارى هي اليوم منطقة سياحية سورية تابعة لمحافظة حمص، تقع على الحدود اللبنانية- السورية.

وتتألّف من مجموعة قرى وبلدات يبلغ عددها الثلاثين. والأكثرية الساحقة من سكّانها كانت في بداية القرن العشرين من المسيحيين (روم أورثوذكس في غالبيتهم وروم كاثوليك)، ومن هنا التسمية: وادي النصارى. وتمتاز هذه المنطقة بطبيعتها الخضراء، وبكثرة مناظرها الطبيعية الخلّابة وينابيعها. وقد حاولت السلطات السورية محو الطابع المسيحي لهذه المنطقة السياحية المميّزة، فحوّرت اسمها الأصلي منذ زمن الوحدة بين سوريا ومصر (1958- 1961) وجعلته وادي النضارة". واعتمدت

هذه التسمية رسمياً منذ ذلك الوقت. ولكنها لم تستطع أن تحلّ محلّ الاسم الأصلي الذي عرفت به واشتهرت.

يعمل سكّان الوادي في زراعة الأشجار المثمرة، وفي التجارة والصناعة. والسياحة من أبرز موارد الرزق عندهم. إذ تنتشر المنشآت السياحية في الوادي كالفنادق والكازينوهات والمطاعم، وتكثر فيها الحفلات، لا سيما في فصل الصيف. وتستقبل الوادي السيّاح من مختلف المناطق السورية، ومن خارج القطر.

وتتميّز الوادي بكثرة مثقّفيها وبالمؤسسات التعليمية الخاصة مثل جامعة الوادي الدولية، وجامعة الحواش الخاصة، وثانوية المزينة الخاصة ذات المستوى العالي. وتحوي الوادي عدداً من المصانع وشركات الأدوية وغيرها.

أشهر قرى وادي النصارى

ومن أبرزها قراها وبلداتها:

1- الناصرة: تقع في وسط الوادي على يمين الطريق العام. وهي ناحية الوادي ومركزها.

2- مرمريتا: تقع على الطريق العام. وهي من القرى الكبيرة في الوادي.

3- الحواش: من القرى الكبيرة التي تقع على طريق عام الوادي، اشتهرت بجامعتها المذكورة آنفاً.

4- الزويتينة: في الجانب الغربي من الوادي وفوق نبع الفوّار. وهي من أهمّ قرى الوادي السياحية. وفيها نبع الفوّار الذي تفور منه المياه من باطن الأرض. وهو محاط بعدد من

المطاعم والمنتجعات السياحية الراقية.

5- تنورين: من الجهة الغربية من الوادي وعلى حدود محافظة طرطوس. تشتهر بزراعة الزيتون والعنب والتين. ومناخها معتدل. وما زالت تحافظ على طابعها الريفي. فيها عيون ماء كثيرة أشهرها عين داود وعين الخورية. وفيها معامل رخام ومعاصر زيتون وبيوت بلاستيكية ومسبح صيفي وكنيستان للروم الأورثوذكس وأخرى للروم الكاثوليك. تشتهر باحتفالات عيد السيدة العذراء في 15 آب.

6- قلعة الحصن: على يسار طريق عام الوادي، وتشتهر بقلعتها العريقة.

7- حور: شرق الوادي على حدود طريق حمص. قرية جبلية جميلة تشتهر بهوائها العليل النظيف وهدوئها.

أما سائر قرى الوادي فهي: الجوانيات، المزينة، التلة، الدغلة، القلاطية، الكيمة، المزرعة، المشتاية، المقعبرة، بلاط، جوار العفص، حب نمرة، عش الشوحة، عمار الحصن، عناز، عين الباردة، عين الراهب، عين العجوز، عين الغارة، كفرا، مشتى عازار، مقلس، وبحزينا.

تلك نبذة موجزة عن هذه المنطقة المسيحية الجميلة من سوريا، رأينا من الضروري أن نبدأ بها مدخلاً لبحثنا.

إشاعة محاولة ضمّ الوادي إلى لبنان الكبير

أما الإشاعة التي روّجت، ولا تزال، بشأن وادي النصارى

فتقول أنه عُرض على البطريرك الحويك ضمّها إلى لبنان الكبير، فرفض بسبب أكثريتها الأرثوذكسية. ونقول إشاعة، ولا حتى حكاية أو خبرية، لأننا لم نجد أية إشارة إليها لا في الوثائق الفرنسية ولا اللبنانية التي تعود الى تلك الفترة، كما أننا لم نجد لها ذكراً في أي من المصادر والروايات التاريخية. وهذا ما سنعود الى تفصيل الحديث عنه.

ومسألة وادي النصارى وإمكانية ضمّها، لم تخطر أساساً في بال الحويك وغيره من الزعماء الموارنة، ولا في بال الفرنسيين لسبب بسيط وهو أن النهر الكبير الجنوبي الذي يفصل لبنان عن سوريا اليوم يشكّل فاصلاً وحدوداً طبيعية بين البلدين. وكلا الجانبين (الفرنسيون والموارنة) انطلقا من إرث وتصوّر ومفهوم جغرافي واضح للبنان.

فالفرنسيون استندوا إلى وثائق وخرائط وتقارير الحملة الفرنسية العسكرية على سوريا ولبنان 1860، والتي شنّت إثر المجازر التي تعرّض لها المسيحيون في لبنان ودمشق.

والبطريرك الماروني انطلق من تصوّر أسلافه، ولا سيما بولس مسعد، وكان الحويك سكرتيراً له.

وسنعرض في ما يلي لهذين التصوّرين.

خرائط الحملة الفرنسية وتقاريرها

وضع قائد الحملة الفرنسية الجنرال دو بو فور/ دوتبول[1] في 1860/02/15 تقريراً مفصّلاً عن الوضع في جبل لبنان ضمّنه مشروعاً يرمي إلى اعادة الإمارة الشهابية التي كانت قائمة قبل 1840، وبحدودها السابقة وكافة المناطق التي كانت تضمّ. وأرفق ذلك بجداول مفصّلة لأسماء القرى والمناطق وعدد سكّانها وخريطة توضيحية. وممّا جاء في تقريره بشأن الحدود. "الحدود المقترحة: لكي يمكن للحكومة التي سيعاد تشكيلها في لبنان أن توفّر لنفسها الكفاية وتؤمّن حاجاتها ودفاعها، يجب أن تضمّ كل الأماكن التي كانت خاضعة، في كل وقت، للسلطة المباشرة لأمير الجبل بميولها ومصالحها المشتركة(...)

أما حدود هذه الحكومة فيجب أن تكون كما يلي:

في الشمال: النهر الكبير.

في الشرق: قمم جبال لبنان الشرقي (أنطي لبنان) وجبل الشيخ، بحيث يتمّ الاحتفاظ بالحدود الحالية لنواحي بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا.

1 - الجنرال شارل دو بو فور دوتبول (1840- 1890) Général Charles de beaufort d'hautpoul. ولد المركيز دوتبول في مدينة تارنت الإيطالية ← 1840، ودخل مدرسة سان سير العسكرية بباريس 1820. ثم شارك في الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر 1830. وقد كلّفه المارشال سولت Soult بعد ذلك بمهمّات في مصر وسوريا بين عامَي 1834 و 1834، فكان مرافقاً لرئيس أركان إبراهيم باشا في سوريا الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي). ولما عاد الى الجزائر عمل مرافقاً للدوق دومال duc d'Aumale، رئيس أركان الجنرال بيليسييه Pélissier. رقّي دوتبول إلى رتبة عقيد colonel 1850 ثم الى رتبة عميد général de brigade عام 1854. وعيّن في شهر آب 1860 قائداً للحملة العسكرية الفرنسية على سوريا. ورقي إثر ذلك وفي 1860/08/14 إلى رتبة لواء général de division توفي في 1890/05/17.

في الجنوب: الحدود الحالية للحولة وبلاد بشارة.

في الغرب: البحر المتوسط.

على أن تضمّ بيروت وطرابلس وصيدا وضواحيها"[1]. وهذه الحدود هي نفسها التي طالب بها البطريرك الحويك في مذكّرته الى مؤتمر الصلح/ باريس كما سيلي. وهي التي اعتمدها المفوّض السامي الجنرال غورو ليرسم على شاكلتها حدود لبنان الكبير، وذلك باستثناء الحدود الجنوبية التي خضعت لمساومات جرت بين الدولتين المنتدبتين على لبنان وفلسطين فرنسا وانكلترا، وبضغوط صهيونية مكثفة، حتى رسمت على ما هي عليها اليوم.

والخلاصة ما من أيّ ذكر في التراث الجغرافي الفرنسي الخاص بلبنان لوادي النصارى. فالنهر الكبير فاصل طبيعي بين لبنان وجارته. وهذا ما سنجده في التصوّر الجغرافي الماروني للبنان.

حدود لبنان في تصوّر البطريركية المارونية

يكاد تصوّر البطريركية المارونية لحدود لبنان يتطابق مع تحديد الجنرال بوفور لها.

فالبطريرك بولس مسعد[2] وفي كتابه الدرّ المنظوم الصادر

1 - سويد، باسين (معرّب)، فرنسا والموارنة ولبنان، تقارير ومراسلات الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا (1860- 1861)، بيروت، شركة المطبوعات، ط1، 1992، ص245.

2 - البطريرك بولس مسعد (ت 1890) ولد في عشقوت/ قضاء كسروان/ لبنان وتعلّم في روما. تولّى البطريركية من 1854 إلى 1890. أي في أكثر

سنة 1863 يقول مفصّلاً الكلام في ذلك:«جبل لبنان كما يشهد علما [علماء] الجغرافية يبتدي لجهة الشمال من حدود جبال النصيرية الفاصل بينه وبينها النهر الكبير الجاري في الوادي الذي تحت دير الحميرا الواقع في صفيطه والقريبة منه عين دوريه تجري منها المياه مدة ثم تنقطع مدّة أخرى، وطول نوبة جريانها وانقطاعها يختفي بحسب اختلاف الفصول كغيرها من العيون الدورية. وهي النهر السبتي الذي أشار اليه يوسيفوس المؤرخ. وقلعة الحصن وهو المعروف قديماً بحصن الأكراد إلى الجنوب الشرقي من دير الحميرا على مسافة بضع ساعات. ويقال له حصن عكّار أيضاً. وكان مقام ولاية السلطنة قبل فتح

الفترات حرجاً في تاريخ الموارنة والمسيحيين، إذ تعرّضوا فيها لمذابح 1860. مفكّر وكاتب ومؤرّخ ومن عظماء بطاركة الموارنة عبر التاريخ. من كتبه الدر المنظوم 1863 يحوي قضايا تاريخية متعلّقة بالطوائف الشرقية ولا سيما الموارنة ودوام اتحادهم بالكنيسة الرومانية. 2 - ردّ على فتح الله مراش في حقيقة انبثاق الروح القدس 1849. 3 - كراس في شرح وحوادث سنة السنين المشؤومة تاريخ العيال اللبنانية مقالة في دخول المصريين إلى بلادنا سنة 1831 وجلائهم عنها في سنة 1840، رسالة في الملكية والمارونية، فهارس السجلات البطريركية تاريخ القرن الثامن عشر الذي يكمل تاريخ الأزمنة للدويهي بحث تاريخي قانوني عن المجمع اللبناني.
منحه السلطان العثماني عبد العزيز خان الوسام المجيدي من الطبقة الأولى 1866.ونابليون الثالث أمبراطور فرنسا وسام جوقة الشرف من الطبقة الممتازة 1866. وهو من رسم الخوري الياس الحويك مطراناً وجعله أميناً لسره.

طرابلس»[1].

حدود لبنان الشمالية واضحة هي إذاً تمام الوضوح في ذهن البطريرك مسعد وتصوّره. هذا الوضوح وهذا التحديد الدقيق للفاصل الطبيعي (النهر الكبير) وما حوله وما يجاوره من ناحية، وعلاقات البطريرك الوطيدة بالأمبراطور الفرنسي نابليون الثالث وبقائد حملته الفرنسية على لبنان وسوريا (1860-1861) كلّها أمور تجعلنا نرجّح أن الجنرال دوبوفور هو من أخذ عن البطريرك في تقريره وليس العكس.

والمهمّ أن الحدود الشمالية وفي كلا النصّين (تقرير قائد الحملة، وكتاب البطريرك) واضحة لا لبس فيها، والنهر الكبير فاصل طبيعي. ووادي النصارى بالتالي لم تدخل في حسابات لا البطريرك الماروني مسعد ولا الجنرال الفرنسي دوبوفور.

ويتابع البطريرك مسعد رسم الحدود اللبنانية كما تصوّرها «لجهة الجنوب عند مرج ابن عامر شرقي عكار(...) والجهة الشرقية الممتدّة نحو البلاد العربية مستطيلاً لتحت دمشق يسمّيها اليونان أنطيليبان، أي مقابل لبنان ومنه جبل الشيخ فوق حاصبيا (الذي ارتفاعه على مساواة البحر نحو عشرة آلاف قدم وقد سمّاه أبو الفدا جبل سنير وجبل الثلج). ويتوسّط بينهما سهل أو وادي متّسع يسمّى البقاع تسقيه جملة سواقي

---

1 - مسعد، البطريرك بولس، الدرّ المنظوم ردّاً على البطريرك مظلوم (في الدفاع عن تاريخ الموارنة)، ط2، دار مكتبة بيبلبون، 2003، ط1، دير طاميش/ لبنان، 1863، ص288.

وهو بغاية الخصب»[1] وهكذا فإننا نجد التصوّرين التاريخيين الفرنسي والماروني لحدود لبنان متطابقين ومتزامنين. ولعلّ هذا التطابق هو الذي أثمر حدوداً للبنان عند إعلان لبنان الكبير 1920 توافق التصوّر الفرنسي- الماروني شبه الموحّد للحدود والعائد إلى 1860-1863.

ولا وجود بتاتاً لوادي النصارى في هذا التصوّر كما رأينا.

الحويك يطالب بالحدور وفق التصوّر الفرنسي-الماروني

وفي مذكّرته المرفوعة إلى مؤتمر الصلح في 1919/10/25. بصفته رئيس الوفد اللبناني الثاني إليه، يطالب البطريرك الحويك بحدود لبنان التي رسمتها قيادة الحملة الفرنسية 1860، وهي مطابقة كما رأينا لتصوّر سلفه ومعلّمه البطريرك مسعد. يقول البطرك لبنان في هذه المذكّرة:«إن لبنان إذ يطلب توسيع حدوده، لا يطالب في الواقع إلا بإعادة مناطقه إليه والتي يقرّها التاريخ، وتثبتها رئاسة الأركان الفرنسية لسنوات 1860- 1862. وهذه الحدود هي التالية:

"غرباً (المتوسط، شمالاً النهر الكبير ('يلو تيروس)، شمالاً بشرق: خطّ ينطلق من هذا النهر، ويلتفّ حول سهل البقيعة والضفة الشرقية لبحيرة حمص. شرقاً قمم الجبل الشرقي (أنتي-لبنان). وقمم جبل الشيخ (جبل حرمون) جنوباً

بشرق: خطّ ينطلق من أواخر مرتفعات جبل حرمون ليلتفّ حول حوض بحيرة الحولة (ساما كونتيس)، جنوباً ينطلق من

---

1 - مسعد، م.س، ص289.

الجبال الواقعة شرقي هذه البحيرة، ثم يلتفّ حولها، لينتهي غرباً عند رأس الناقورة، تتطابق مع كيان جغرافي عرف في الماضي باسم فينيقيا، وألّف في العصور الحديثة حتى سنة 1840 الأراضي اللبنانية»[1].

ليس في الوثائق أي إشارة لوادي النصارى

وليس في الوثائق العائدة الى تلك الفترة (1918- 1926) أي إشارة من أي نوع إلى مطلب ضمّ وادي النصارى أو حتى أي جزء من الأراضي الواقعة شمال النهر الكبير إلى لبنان الكبير. ويلحظ أستاذنا وصديقنا الدكتور عصام خليفة[2]. كبير المتخصّصين في مسألة الحدود اللبنانية أن الوثائق لا تشير إلاّ إلى اعتراض واحد على حدود لبنان الشمالية وهو مطالبة عدد

---

1 - خليفة، شخصيات بارزة، م.س، ص7.

2 - عصام كمال خليفة ولد في حدتون/ البترون في 1948. يحمل دكتوراه في التاريخ من السوربون 1980. أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية (1980- 2012). أمين عام الحركة الثقافية أنطلياس (1995- 2008). رئيس رابطة الأساتذة المتفرّغين في الجامعة اللبنانية(1996- 1998). متخصّص في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر. وله نحو أربعين كتاباً أبرزها: الحدود الجنوبية للبنان 1985، في معركة القضية اللبنانية 1985، أبحاث في تاريخ شمال لبنان 1995، لبنان المياه والحدود 1914- 1975، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان 1997، لبنان 1914- 1918 من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية 2005، الحدود اللبنانية السورية بين التحديد والترسيم 2006- وثائق لبنانية من الأرشيف العثماني (1961- 1913) 2008، الحدود الجنوبية للبنان بين موقف نخب الطوائف والصراع الدولي (1908- 1936) 2009، أبحاث في تاريخ لبنان المرحلة العثمانية 2010.

من وجهاء عكّار بجزء من السهل الواقع شمال النهر الكبير. وينقل في كتابه الحدود اللبنانية- السورية خبر هذه المطالب كما يلي:«منذ مباشرة أعمال اللجنة[1] أعلم السيد Vignon قائد كتيبة ومستشار إداري لسنجق لبنان الشمالي، وممثل حكومة لبنان الكبير داخل اللجنة، هذه اللجنة بمطالبة العديد من مالكي سهل عكار بجزء من السهل الواقع شمال النهر الكبير والذي كان ضمن سنجق طرابلس سابقاً قبل تطبيق القرار 318[2] والذي ضُمّ عملياً إلى بلاد العلويين تطبيقاً لنفس القرار. هذا الجزء بحسب بكوات عكار- يجب أن يعاد الى سنجق لبنان الشمالي.

»لقد لفت رئيس اللجنة، عندئذ، انتباه الكومندان فنيون أنه بالرغم من وجود برقية في الملف الذي تسلّمه من المفوض السامي، وقّعها عدد من المعنيين بضمّ الجزء الشمالي من سهل عكار الواقع شمال سنجق طرابلس، فإن هذا الضمّ أغفله حاكم لبنان الكبير. وإنه من جرّاء ذلك انعدم وجود أيّ وثيقة تتعلّق بهذه المسألة، وصادرة عن المفوّض السامي.

»وهكذا، من جهة ثانية، فإن مجرى النهر الكبير في جزئه السفلي، يشكّل حدوداً واضحة المعالم جداً. لذلك لم يكن بالإمكان الأخذ في الاعتبار الطلب الذي أحيطت به اللجنة.

---

1 - لجنة تعيين الحدود delimitation التي أنشأها المفوض السامي غورو بموجب قرار 1159 بتاريخ 1912/12/19.

2 - قرار صادر عن الجنرال غورو في 1920/07/31 وينصّ على تعيين حدود لبنان.

»إن قائد الكتيبة Anfre المستشار الإداري لسنجق طرطوس وممثل حكومة بلاد العلويين، لفت النظر بدوره إلى أن التعليمات التي أعطاها له الجنرال Billot حاكم بلاد العلويين لم تكن تشتمل على نقاش حول الجزء من الحدود التي يشكّلها النهر الكبير، والتي تعتبر حدوداً واضحة المعالم.

»وبعد النقاش تمّ اتخاذ قرار بأن يحتكم القائد فينيون بشأن ذلك، وبواسطة الهاتف إلى حاكم لبنان الكبير.

»وخلال محادثة تلفونية بين حاكم لبنان الكبير ومندوبه أعلمه أنه يعتبر أن اللجنة ليس من مهمّتها إلا أن تعمل ضمن التعديلات التفصيلية الطفيفة في الخطّ الحدودي. وأن الحدود المكوّنة، في الجزء الأسفل من النهر الكبير يجب ألا تكون موضع بحث.

»عند ذلك اعتمدت اللجنة المجرى السفلي للنهر الكبير حدوداً بين دولتي لبنان الكبير وبلاد العلويين«[1].

نتبيّن من هذا المقطع الطويل أن الاعتراض الرسمي والجدّي الذي قدّمه بكوات عكار على اعتماد النهر الكبير خطّاً فاصلاً وحدوداً شمالية للبنان لم يكن مجدياً، ولم يؤخذ بعين الاعتبار، لسبب وجيه وبسيط في آن: فالنهر الكبير فاصل طبيعي وحدود واضحة المعالم، ولا يمكن تخطّيه وإن كان ذلك يؤثر على مصالح

---

1 - خليفة عصام كمال، الحدود اللبنانية- السورية محاولات التحديد والترسيم 1920- 2000، بيروت، مطبعة جوزيف الحاج، ط1، 2006، ص 39-40.

البكوات مالكي الأراضي شمال النهر الكبير.

وقد أعاد هؤلاء الوجهاء[1] اعتراضهم ورفعوه إلى المفوّض السامي الجنرال غورو. يروي د.خليفة استناداً إلى الوثائق:»في 1922/01/14. وأثناء مروره من طرابلس عائداً إلى بيروت تلقّى رئيس اللجنة برقية من المفوّض السامي يعلمه فيها باعتراض قدّمه بكوات عكار يتعلّق بالواقع المستحدث من جرّاء اعتماد النهر الكبير حدوداً بين لبنان وبلاد العلويين. كما يطلب في هذه البرقية أن يدرس إلى أي حدّ في الإمكان أخذ هذا الاعتراض بعين الاعتبار. وقد عبّر بكوات عكّار عن اعتراضهم هذا مراراً عديدة، ومنها أثناء الزيارة الاخيرة التي قام بها المفوّض السامي إلى طرابلس، حيث وعد بأن يطلب درس هذه المسألة (...)

»ووفقاً للمعلومات التي تفضّل بها القائد Vignon إلى رئيس اللجنة، فإن بكوات عكار يطلبون أن يتمّ التخلّي عند اعتماد مجرى النهر الكبير كحدود بين لبنان الكبير وبلاد العلويين في الجزء من هذا المجرى الواقع في قضاء عكار كما كان قديماً. وأن تعاد الحدود إلى الخطّ الشمالي القديم للقضاء، بحيث يدخل في ملكية لبنان الكبير الجزء من القضاء المذكور الواقع شمالي النهر الكبير«[2].

وقد بحثت لجنة الحدود مجدّداً مطالب بكوات عكار

---

1 - وهم من آل المرعبي السنّة كما أفادنا د.عصام خليفة في زيارته لنا الثلاثاء 2013/11/26.

2 - خليفة الحدود، م.س، ص 43.

وانتهت بعدم الأخذ بها وإسقاطها[1].

والسؤال البديهي الذي يطرح هنا: لو كان لسكان وادي النصارى أو أي فريق أو جماعة أخرى مطالب مماثلة لبكوات عكار بإلحاق وادي النصارى بلبنان الكبير، أما كنا لنجد أقلّه أثراً لها في الوثائق العائدة لتلك الفترة كما هي حال مطالب البكوات...؟ فمطالب هؤلاء، وهي أقلّ شأناً وأهمية من مسألة وادي النصارى، مذكورة بوضوح في الوثائق! فكيف تغيب كلّياً عنها مسألة بحجم قضية وادي النصارى وخطورتها؟!

ولعلّ الجواب المنطقي هو أن هذه القضية لم تكن مطروحة أساساً في تلك الفترة... وهي لا تعدو كونها مجرّد إشاعة روّجهت لاحقاً... وتناقلتها الألسن وبعض الأقلام.

لم تعرض على الحويك ولا هو رفضها

وخلاصتنا الأخيرة هذه المبنية على غياب أي إشارة إلى وادي النصارى ومسألة ضمّها إلى لبنان الكبير في الوثائق شئنا ان "نوثقها " فلا نكتفي ان نبني على ما اطّلعنا عليه أو وقع تحت أيدينا من وثائق، بل نستمزج رأي كبير المتخصّصين في الحدود اللبنانية والعاملين على أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية المتعلّق بلبنان. فطرحنا السؤال على أستاذنا وصديقنا الدكتور عصام خليفة، وكانت لنا معه جلسة حوار ونقاش في زيارة قام بها لمكتبنا يوم الثلاثاء في 2013/11/26. ومن أبرز ما قاله وأكّده لنا خلالها هو وادي النصارى لم تطرح مرة في الوثائق مسألة

1 - م.ن. ص44-45.

ضمّها إلى لبنان الكبير، لا من قبل المسيحيين اللبنانيين ولا من قبل المسيحيين السوريين.

وأضاف «خبرية وادي النصارى غير واردة في أي وثيقة عملت عليها. وكل أرشيف الكي دورسية (الخارجية الفرنسية) الذي اشتغلت عليه ليس فيه أية إشارة الى وادي النصارى ومسألة ضمّها إلى لبنان الكبير».

وخلص د . عصام خليفة إلى القول:«وادي النصارى لا هي عرضت على البطريرك الحويك، ولا هو رفضها. وهي من الأساس لم تخطر على باله لأن تصوّر البطريركية المارونية لحدود لبنان واضح منذ زمن البطريرك مسعد، وهي تعتبر النهر الكبير فاصلاً طبيعياً والحدود الشمالية للبنان».

وسألنا د. خليفة : اذا كانت مسألة ضمّ وادي النصارى لم تطرح عند انشاء لبنان الكبير 1918-1920 فهل عادت وطرحت لاحقاً برأيك ؟!

ج «لا نجد أية إشارة في الوثائق إلى ذلك. وكل ما نجده أنه قد طرحت في الثلاثينيات من القرن العشرين إمكانية ضمّ كل دولة العلويين الى لبنان، وذلك بسبب رفض هؤلاء للوحدة السورية. وكان المسيحيون يشكّلون يومها 30 % من مجموع سكان دولة العلويين، ولكن طرح هذا الضم استبعد».

تفنيد أقوال المؤرّخين عن وادي النصارى

ورغم عدم وجود أية وثيقة أو رواية تاريخية تعود الى تلك الفترة، وتشير إلى إمكانية ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير أو

حتّى أقلّه إمكانية طرح مشروع كهذا، فإننا نجد الكثير من الجرائد تتداول هذه الخبرية وتتناقلها وكأنها حقيقة تاريخية. وتبقى المصيبة أن المسألة لم تعد مقصورة على حكي الجرائد بل تناقل الرواية بعض المؤرّخين، وخبطوا فيها خبط عشواء. وسنعرض هنا لبعض أقاويل كتّاب التاريخ ونفنّدها، لننتقل بعد ذلك إلى نماذج ممّا يتداول في الجرائد .

يروي المؤرّخ د. مسعود ضاهر عن المفاوضات بين الفرنسيين والبطريرك الحويك:«وتشير تلك المفاوضات إلى أن الخلاف كان حادّاً بين البطريرك الحويك والقادة الفرنسيين حول الحدود الشمالية والجنوبية للبنان، وأن رغبات البطريرك لم تؤخذ عند التخطيط النهائي لتلك الحدود، بخاصّة في مجالي سهل الحولة جنوباً ووادي النصارى شمالاً . فبرز الخلاف الحادّ بينهما حول مسألة الحدود. لكن البطريرك كان مضطّراً للقبول بالأمر الواقع، بخاصة وأن التيار الوحدوي كان فاعلاً في سوريا ولبنان، ويهدّد أسس الانتداب الفرنسي في المشرق العربي».

هنا يقلب مسعود ضاهر الرواية، أو بالحري الإشاعة المتداولة، رأساً على عقب، فيقول إن البطريرك هو مَن طالب بضمّ وادي النصارى لكنه ووجه برفض فرنسي حاد. ولا نعلم من أين أتى ضاهر بهذه المعلومات. ولما لم يكن يملك ما يسند إليه روايته هذه أوهم أنه يرجع في ذلك إلى الدكتور عصام خليفة، فقال مردفاً «وقد حلّل الدكتور عصام خليفة ذلك الخلاف استناداً إلى وثائق الأرشيف الفرنسي في كتابه المهمّ

«الحدود الجنوبية للبنان مواقف نخب الطوائف والصراع الدولي 1936/1908 (الصادر في بيروت عام 1985) وفيه شرح وافٍ لمواقف البطريرك الحويك من مسألة حدود لبنان».

ويبدو التمويه واضحاً في كلام مسعود هنا فهو لا يحدّد لنا أين وجد في كتاب د. خليفة إشارة إلى وادي النصارى وكيف يمكنه تحديد ذلك والكتاب خالٍ من اي ذكر لها، ويدرس أساساً حدود لبنان الجنوبية لا الشمالية كما يتّضح من عنوانه.

والخلاصة إنه لمن المؤسف أن يصدر عن مؤرخ معروف كمسعود ضاهر كلام غير مسند ولا موثق، بل ومموّه يشير ومن بعيد إلى مرجع لا يتناول أساساً موضوع وادي النصارى، ورأي كاتبه (د.خليفة) واضح في هذه المسألة كما أسلفنا.

ونستغرب كذلك أن نقرأ لمؤرخ وباحث كالدكتور كمال ديب روايات غير مسندة تكرّر ما يُتداول من إشاعات فهو يقول:«فضّل الموارنة ضمّ مناطق إسلامية ورفضوا ضمّ مناطق أرثوذكسية للمحافظة على الطابع الكاثوليكي للكيان الجديد»[1] وهو بالطبع لا يذكر أي سند أو مرجع لكلامه هذا، وذلك لسبب بسيط، فما من مرجع تاريخي أو وثيقة تشير إلى خبرية كهذه. ويضيف ديب من دون ذكر أي مستند «كما أن أفكاراً لضمّ تلكلخ ووادي النصارى في سوريا إلى لبنان رُفضت لأن هؤلاء السكّان كانوا من الروم الأرثوذكس، ما يجعل الميزان

1 - ديب - كمال هذا الجسر العتيق ، سقوط لبنان المسيحي ؟ 1920-2020، بيروت دار النشر ، ط 2013 ، ص 95 .

الديموغرافي لغير صالح الموارنة»[1].

يبدو أن أرثوذكسية ديب قد طغت هنا على رصانة الباحث وميله إلى التدقيق في الأخبار وتفنيدها، فأورد الإشاعة من دون أي تمعّن.

حكي الجرائد كلام مرسل

أما كلام الجرائد في هذه المسألة فكثير، ويصعب إحصاؤه. وكثير من حكي الجرائد في أيامنا أصبح مثل حكي النسوان على الفرن أيام زمان. بل غدا مرادفاً له : ثرثرة فارغة لملء الصفحات وتسويد بياضها، وكلام مرسل لا سند له ولا مرجع. ولكنه ومع الأسف يستقرّ في كثير من الأذهان، وكأن المحرّرين يعملون بقول فولتير: اكذبوا اكذبوا يا أصدقائي، فلا بدّ أن يعلق في الأذهان شيء من كذبكم.

وسنذكر فيما يلي نماذج من أقوال الصحف ونفنّدها :

يقول سليم العقل «كانت التقسيمات قد حدّدت دولة لبنان الكبير من نهر الأوّلي حتى وادي النصارى. وعندها اتصل ذلك بعلم غبطة بطريرك الموارنة الحويك قامت قيامته لأنه لا يريد سكّان وادي النصارى من الأرثوذكس ضمن حدود دولته، وطالب بفصلها، وضمّ ما يسمّى اليوم بجنوب لبنان وصولاً الى القرى المارونية في منطقة بنت جبيل على مشارف فلسطين (رميش، إبل السقي وعين ابل ومارون الراس)[2]. إنها الراوية

---

1 - م.ن.

2 - العقل، سليم، لبنانكم ولبنانا والمصير القومي، 2011/07/19. www.ssnp.Info

الأرثوذكسية التقليدية:«فضّل الموارنة شيعة الجنوب على الروم». أما سندها فكلمات ضبابية واهية!! فما هي هذه التقسيمات التي يتحدّث عنها العقل؟! ومَن الذي حدّدها واقترحها وقام بها؟! لا جواب عنده ولا عند غيره، لأن القصّة "مفبركة" من الأساس.

وكيف قامت قيامة الحويك وما من أحد سمع بها، ولا أثر لغضبته المزعومة هذه في أية رواية تعود إلى ذلك الزمن؟!

والمؤسف أن بعض الأساتذة الجامعيين يقعون في الفخّ، ويذكرون إشاعة وادي النصارى ويستندون إليها للغمز على الموارنة بل وللنعر... والكيد. وذلك لمجرّد أن الباحثين هؤلاء من الروم. ولعلّ هذه هي حال صديقنا الأب جورج مسّوح[1] الذي يقول في مقابلة له:«إن لبنان الكبير أتى على قياس الموارنة في لبنان، ولو ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير لأصبح الأرثوذكس أكثر من الموارنة. وهذا ما رفضه الأرثوذكس أن تخلق دولة أرثوذكسية على مثال الدولة اليهودية»[2].

إنها شطحة كبيرة واضحة: لو ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير لصار هذا الأخير دولة أرثوذكسية كما إسرائيل دولة يهودية. وقد وعى الروم منذ ذلك الزمن ذاك الخطر الداهم ورفضوه.

---

1 - مسّوح، جورج مدير مركز الدراسات المسيحية- الاسلامية في جامعة البلمند.

2 - مسّوح جورج، مقابلة في يوم الجمعة 2013/09/13 على الإلكترونية اللبنانية، www. Elnashra.com

وهنا أيضاً تُقلب الخبرية/المعادلة: فالروم هم مَن رفض ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير وليس البطريرك الحويك. ولا سند ولا مصدر أو أصل لكل هذه الأخبار.

وثمّة من يتخيّل ماذا جرى في اجتماع الحويك كليمنصو فينقل إلينا محضر الجلسة هذه، ووادي النصارى كانت على رأس جدول أبحاثها، فيقول:«البطريرك الياس الحويك أخطأ في لقائه الشهير مع كليمنصو في قصر فرساي عندما رفض إلحاق وادي النصارى في سوريا بدولة لبنان الكبير حتى لا يتحوّل الأرثوذكس إلى الأكثرية»[1] واجتماع الحويك- كليمنصو لم يحصل أصلاً في فرساي. ولم يكن لرئيس الوزراء الفرنسي أي علم أو اطلاع على موقع لبنان الجغرافي أساساً، فكيف بحدوده. فظنّه بلداً لا منفذ له على البحر. ويروي الشيخ بشارة الخوري مجريات هذا الاجتماع، وممّا يقوله: "وقبل أن يباشر البطريرك عرض مطالبه التفت إليه الرئيس الفرنسي كليمنصو وبادره بقوله:«أؤكّد لغبطكم أن وطنكم لبنان سينال منفذاً إلى البحر أسوة بغيره من البلدان الصديقة التي تسعى وراء هذه الغاية». فلفته البطريرك إلى موقع لبنان وإلى كثرة الشطآن فيه... فاعتذر كليمنصو بتراكم المطالب عليه من هذا النوع، وساد المقابلة جوّ ودّي بين الرجلين الكبيرين»[2].

---

1 - البرجي، نبيه، بيسمارك وماري منيب، مقالة على موقع التجمع العربي والاسلامي لدعم خيار المقاومة، الأربعاء 2013/09/11، www.khayarolmouKawama.com

2 - الخوري، حقائق، م.ن، ج1، ص96-97.

فيا لسعة خيال هذا الصحافي... وحبل الكذب قصير يقول المثل اللبناني. وترّهات أخرى من نظم الصحافي جان عزيز وتلحينه:«يوم أسّس الحويك هذا اللبنان سنة 1920(...) حذّره غورو من التحوّل كبير في لبنان الصغير إلى صغير في لبنان الكبير. فما سمع منه. أرسل إليه دوكيه ناصحاً بإزاحة الحدود بعض الشيء شمالاً، ليستبدل شيعة عامل بنصارى الوادي، فلم يردّ»[1].

وبالطبع فلا غورو حذّر الحويك، وسبق وذكرنا أن شبل دمّوس هو صاحب هذا القول، ولا دوكيه نصحه هذه النصيحة. فوادي النصارى لم تخطر أصلاً على باله، وما من ذكر لها في أيّ من مقالاته أو تقاريره أو مذكراته، ولكن سعة خيال هذا الصحافي تفتقت على نسبة إشاعة وادي النصارى إلى دوكيه.

وهكذا تنوقلت الإشاعة من زيد إلى عمرو. ومن فرط تداولها وتكرارها ظنّها الكثيرون حقيقة تاريخية، وعلقت في الأذهان.

ومثل معبّر عن ذلك، سألنا صديقنا الأب إبراهيم سرّوج[2] عن قوله السالف الذكر:سوف يكافئ البطريرك الحويك الروم في وادي النصارى إذ رفض انضمامهم إلى لبنان الكبير يوم هندسه مع فرنسا المنتدبة»[3]. فقلنا لهذا الكاهن الأرثوذكسي:

---

1 - عزيز، جان، خطأ البكركويين وخطيئة الشتامين، مقالة في جريدة الأخبار، العدد 1590، 2011/12/2.

2 - كان ذلك خلال زيارتنا لمكتبة السائح التابعة له في طرابلس في 2013/09/30.

3 - سرّوج، نموذج فريد في العيش غريغوريوس، م.س

إلى ماذا استندت في خبرية وادي النصارى هذه؟؟ فأجاب "ولوّ" إنها قصة معروفة ومتداولة. وهكذا أصبح مجرّد تداول خبر دليلاً وبيّنة على صحته؟!!

روم وادي النصارى لم يفكّروا أصلاً بالانضمام

ولكن، حتى لو سلّمنا جدلاً أن ضمّ وادي النصارى كان مسألة مطروحة، فهل كان روم الوادي في وارد القبول بالانضمام إلى لبنان الكبير ؟!

نعرف أنهم كانوا بأكثريتهم من أنصار الوحدة السورية والحكم الفيصلي كما بطريركهم غريغوريوس، لذا لو قيّض للمسألة أن تطرح، لجاء الرفض منهم لا من البطريرك الحويك. والسوابق التاريخية تؤكّد ذلك .

ففي رسالة وجّهها الشيخ عبد الله الضاهر[1] إلى مطران طرابلس الماروني أنطون عريضة (البطريرك لاحقاً). في 1908/10/21. يظهر أن الكنيسة المارونية كانت تحاول أن تنسّق وتتعاون مع زعماء وأهالي وادي النصارى في سوريا، لكن هؤلاء رفضوا، إذ جاء في الرسالة «أهالي صافيتا وحزور ما قبلوا أن يحضروا معهم (أي أهالي عندقت والقبيات) وخابرت زخور سعادة[2] اليوم، وأطلعنا عن أفكاره وعدم امتزاجهم كلّياً مع

1 - من وجهاء بلدية القبيات - عكار / لبنان . كان من الساعين الى استقلال لبنان عن الدولة العثمانية . ألقي القبض عليه أوائل العام 1915 وأمضى سنة في سجن الساسيين في عاليه .ثم شنق في اذار 1916.

2 - م. ن.

العناقدي (أهل عندقت) وبعض القبياتية»[1].

ويعلّق، فؤاد سلوم ناشر هذه الرسالة:«لربما تلقي هذه الرسالة ضوءاً يبدّد كثيراً من الأقاويل التي ادعت أن الكنيسة المارونية هي التي رفضت توسيع حدود لبنان الكبير إلى وادي النصارى»[2].

الرسالة هذه وثيقة تاريخية تبيّن بالفعل أن مسألة وادي النصارى وضمّها هي فعلاً مجرّد أقاويل، ولو أنها طرحت فعلاً يوماً لكان موقف أهل الوادي شبيهاً بموقف أبناء ملّتهم روم مرجعيون حين عُرض عليهم الانضمام إلى متصرفية جبل لبنان، فأطلقوا شعارهم الشهير التركي ولا بكركي السالف الذكر. ورسالة الشيخ عبد الله الضاهر تؤكّد أن روم وادي النصارى كانوا في العقدين الأوّلين من القرن العشرين يتصرّفون فعلاً بذهنية هذا الشعار، وبالتالي لن يرضوا بالانضمام إلى لبنان الكبير كما رفض أسلافهم أهل مرجعيون الانضمام إلى متصرّفية الجبل.

لا الفرنسيون ولا الحويك ولا أهل الوادي فكّروا بضمّها

والخلاصة فكل ما سردنا من وقائع ووثائق تؤكّد ما يلي:

1- لم يعرض الفرنسيّون على البطريرك الماروني ولا على غيره مسألة ضمّ وادي النصارى، فمفهومهم الجغرافي للبنان يرى أن حدوده الشمالية هي النهر الكبير، وهذا أمر واضح في الوثائق

1 - أحد وجهاء الروم في وادي النصارى.

2 - نقلاً عن سلوم ، فؤاد ، وجوه قبياتية، الشيخ عبد الله الضاهر شهيد الاستقلال www.kobayat.org

الفرنسية منذ الحملة العسكرية للفرنسيين (1860- 1861).

2- البطريرك الحويك لم يفكّر بتاتاً بضمّ الوادي، ولا برفض هذا الضمّ. وكان ينطلق في مفهومه للبنان وحدوده من إرث البطريركية المارونية، وتصوّرها الذي عبّر عنه البطريرك مسعد. ويستند هذا التصوّر إلى أن النهر الكبير فاصل طبيعي وحدود واضحة المعالم للبنان.

3 - لم يفكّر روم وادي النصارى بالانضمام إلى لبنان الكبير، ولا طرحت عليهم هذه المسألة، ولا كانوا في هذا الوارد. وذهنيتهم المعادية للموارنة لم تكن تسمح لهم بالتفكير بطرح كهذا، فكيف بالموافقة عليه.

وخبرية ضمّ وادي النصارى إلى لبنان الكبير لا تعدو كونها مجرّد إشاعة أطلقت لاحقاً وأثارت كمّاً من الغبار، وذّرت الرماد في العيون ... ولا تزال تستخدم لأغراض سياسية .. وشدّ الحبال بين الأفرقاء.

باب 4

فصل 4

الحويك: ماروني أم وطني لبناني ؟!

مواضيع فصل 4 باب 4:

- بطريرك لكل اللبنانيين
- يهمّني عدل المسؤول لا مذهبه
- الحويك عاش لوطنه لا لنفسه
- الوطن: جبل وسهل ومرافئ
- كسب الأراضي وخسارة الديموغرافيا
- لبنان الملجأ في فكر الحويك
- إدارة لبنان الكبير بذهنية لبنان الصغير
- نجاح في التكتيك... وفشل في الستراتيجيا؟!

بطريرك لكل اللبنانيين

ما هي أسس سياسة البطريرك الحويك واستراتيجيته؟! هل سعى فقط إلى مصلحة طائفته في نشاطه وتحرّكاته؟ أم إلى مصلحة لبنان؟ وهل فرّق بين الانتمائين؟ وباختصار هل كان مارونياً فقط أم وطنياً لبنانياً؟! وماذا كانت كلمة وطن تعني في مفهومه؟!

قبل أن ندع بطرك الموارنة، أو بطرك لبنان، كما لقّب، يشهد لنفسه نجد في العديد في شهادات معاصريه من مؤرّخين وسياسيين ما ينصفه ويؤكّد أنه كان أباً للجميع لا لطائفته وحدها. وأكثر هؤلاء ليسوا بموارنة، وهم ممّن خالفه الرأي والموقف والمشروع السياسي.

فيوسف الحكيم الأرثوذكسي والمؤرّخ والوزير في الحكومة الفيصلية يشهد للحويك فيقول:«كان بطريرك الأكثرية المارونية في واقع الحال، اللبناني الأول بالنسبة لجميع اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، يلقى منه المسلم، مثلاً، نفس العطف الذي يلقاه الماروني، فهو المرجع الشعبي الأكبر الذي يتكلّم باسم لبنان ويدافع عن حقوقه وامتيازه، يعود الفضل في ذلك كلّه إلى الحكمة والصلاح اللذين تحلّى بهما صاحب الغبطة البطريرك الياس الحويك والعلم والإخلاص المتوفّرين في

حاشيته»[1].

وتشير الوقائع والأحداث إلى أن الحويك كان بالفعل يرعى مصالح كل اللبنانيين ويدافع عنها دون تمييز بين ماروني أو غيره. وقد روى لمترجمه الأب حرفوش كيف استشفع للمنفيين اللبنانيين عند السفّاح جمال باشا:«طلبت إليه في شأن بعض المنفيين عن لبنان إلى الشام والقدس الذين لم يكن أرجعهم كلّهم من منفاهم، فأجابني جمال:«هؤلاء ليسوا كلّهم من قومك وطائفتك». وكان من جملتهم مصطفى بك العماد الدرزي. فأجبته هذا الأمر لا طائفية فيه. هؤلاء كلّهم من لبنان، فلا يجمل أن يعود البعض، ويبقى البعض الآخر منفيّاً. فأصدر أمراً في الحال بعودتهم»[2].

تبيّن لنا هذه الواقعة عقلية الحويك وذهنيته وثوابت عمله. فهو لم يكن يميّز بين لبناني وآخر. كلّهم عنده سواسية لا تؤمّن مصلحة واحد إلا بتأمين مصلحة الآخر. وهي تشعرنا كذلك أنه كان لبنانياً أكثر ممّا هو ماروني. وقد أكّد الحويك نفسه ذلك في مختلف مراحل حياته وشتى العهود السياسية. فها هو يقول للجنرال سراي المندوب السامي:«قد اشتغلت دائماً للسلام في قولي وعملي. ومع أني بطرك الموارنة، فقد انتدبني أبناء لبنان كلّهم لأطلب لهم استقلال بلادهم. إذاً أنا لكل واحد منهم، لا للموارنة فقط»[3].

1 - الحكيم، بيروت ولبنان، م. س، ص 56.

2 - حرفوش، م. س، ص 544.

3 - حرفوش، م. س، ص 657-658.

ويقول المؤرّخ د. عصام خليفة عن الحويك البطريرك الوطني:«لقد أكّد البطريرك باستمرار أنه لا يعمل للموارنة بقدر ما يعمل للبنان الوطن والدولة. وقد كانت المؤسّسات التي ساهم في قيامها بمتناول جميع اللبنانيين وخدمتهم. ولئن بدر منه بعض المراسلات الديبلوماسية التي تدلّ على اهتمامه بطائفته في المقام الأول، فإن هناك مراسلات أخرى تدلّ على اهتمامه بأبناء كل الطوائف اللبنانية»[1].

ولم يكتفِ الحويك بأن يعمل هو لكلّ اللبنانيين، بل دعا أبناء طائفته وسائر الطوائف أن يفعلوا ذلك. فهو في أول رسالة رعائية له، بعد خلع نير بني عثمان عن لبنان[2]، يقول لأبنائه:«إن الوطنية والدين كليهما يوجبان عليكم احترام ومحبة كلّ فرد مهما كانت عقيدته. والعقل نفسه يأبى عليكم إلا مؤاخاة من تضمّكم وإياهم سماء واحدة، وتأويكم وإيّاهم أرض واحدة، وقد تحمّلوا ما تحمّلتم في الدور السابق من المصائب والمحن ما حمل المسلمين منهم أنفسهم على أن يتمنّوا مثلكم تقلّص ظل الأتراك من البلاد»[3].

وعند وصوله من باريس بعد أن ترأس الوفد الثاني إلى مؤتمر

1 - خليفة، شخصيات، م. س، ص 11.

2 - هي الرسالة الثامنة عشرة من رسائله عنوانها:"الشكر لله على نهاية الحرب الكونية". صدرت في 1918/12/08.

3 - الحويك، البطريرك الياس، الذخائر السنية، مجموعة رسائل البطريرك إلى الموارنة، جمعها الأب فيليب السمراني، جونيه/لبنان، مطبعة المرسلين اللبنانيين، ص 501-502.

الصلح نجده، وفي حضرة الجنرال غورو الذي خفّ لاستقباله، يقول (1919/12/26):«ولكن كلّنا شعب واحد بدون تمييز بين المذاهب والطوائف (...) ويجب على الشعب أن يحبّ وطنه بعد الله»[1].

وفي أيار 1926، وعند زيارة أعضاء المجلس النيابي اللبناني ورئيسهم موسى نمّور له في بكركي، نسمعه يقول لهم:«يعزّيني أن أراكم على مصلحة لبنان متفقين، عارفين أنه لا يوجد في لبنان طوائف بل طائفة واحدة أدعوها لبنانية تريد مصلحة لبنان»[2].

يهمّني عدل المسؤول لا مذهبه

ونستغرب اليوم أن بطرك الموارنة لم يبدِ اهتماماً يومها بطائفية الوظائف وتولّي أبناء طائفته هذا المركز أو ذاك وتكريسه لهم، رغم أنه هو في الحقيقة صانع لبنان الكبير والمحافظ عليه كما رأينا. وقد اشتهر عنه قول ومبدأ تذكّره اللبنانيون طويلاً وإن لم يعملوا به:«يهمّني في من يتولّى مصالح البلاد عدله ونزاهته لا مذهبه»[3].

وقد قرن بطرك لبنان قوله هذا بالفعل. فلم يرفض اختيار شارل دبّاس الأرثوذكسي أول رئيس للجمهورية اللبنانية كما

---

1 - حرفوش، م. س، ص 605.

2 - م. ن، ص 659.

3 - عواد، الخوري منصور، البطريرك اللبناني الياس الحويك، سلسلة مقالات في مجلة المشرق، السنة الثلاثون، 1932، ص 929.

سبق وذكرنا، بل عاد وبارك هذا الاختيار.

الحويك عاش لوطنه لا لنفسه

كان لبنان، ولبنان الكبير خصوصاً، هاجس الحويك الأول بل والأوحد. استقلاله، استمراريته كلّها كانت قضية حياته. وهذا ما قاله عنه خصومه قبل أصدقائه. يقول يوسف الحكيم مثلاً: «كان [الحويك] مثال الحرص على استقلال لبنان، يدافع عنه بكل قواه، ولا يرضى عنه بديلاً»[1]. ويضيف الحكيم العارف بأخبار الإدارة والموظّفين في العهود العثمانية والفيصلية والانتدابية أن الحويك لم يسعَ يوماً إلى مصلحة خاصة، ولم يطلب من أي مسؤول إلا الأمانة لمصلحة الوطن:«ولما كان الشعب بقلوبه وعيونه ملتفّاً حوله، تمّت له المنزلة السامية لدى أولياء الأمر من الحاكم حتى أصغر موظّف، ولكنه مع ذلك لم يتقدّم بطلب خاصّ إلى أحد منهم، بل يكتفي منهم بأن يكونوا أمناء على وظائفهم وحقوق لبنان»[2].

ويخلص الحكيم في إبداء رأي وإطلاق حكم في بطرك الموارنة فيقول:«وصل هذا المقام العالي في عهد البطريرك الحويك إلى قمّة المجد من ناحيتيه الدينية والمدنية (...) ولا شك بأن الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى حكمة البطريرك ونزاهته في العمل»[3].

---

1 - الحكيم، بيروت، م. س، ص 101.

2 - م. ن.

3 - م. ن.

والأمير شكيب أرسلان[1] القومي العربي المعارض للحويك وسياسته ومشروعه في لبنان الكبير، وصف هذا البطريرك «بالقائد رأس الحربة الذي أخذ بين يديه المستقبل السياسي لشعبه»[2].

وهكذا، فقد أقرّ له بالوطنية البعيدة عن الطائفية الخصوم قبل المؤيدين.

أما هو فيقول في الرسالة الأخيرة له وعنوانها محبة الوطن (بتاريخ 1930/12/08) والتي كانت بمثابة وصيته:«هذا الوطن العزيز الذي أحببناه، ويمكننا القول إننا لم نعش لذاتنا، بل لخدمة الكنيسة وخدمته»[3]. والكلمة هذه تلخّص بحق سيرة الحويك ومسيرته: عاش لوطنه لا لذاته.

ولنلاحظ أن آخر ما تحدّث عنه بطرك لبنان وكتب فيه هو الوطن ومحبة الوطن. فقد أراد أن يستودع اللبنانيين هذه الوصية. كان ضنيناً بأبرز إنجازات حياته ونضاله: لبنان الكبير أن يضيع، وقد سعى إليه طيلة الحقبة الأولى من بطريركيته

1 - الأمير شكيب أرسلان (1869-1946) سياسي وكاتب لقّب بـ"أمير البيان" ولد في الشويفات/عاليه. نائب في مجلس المبعوثان العثماني. من أركان الحكم الفيصلي. عيّن حاكماً لجبل لبنان في الحكومة الفيصلية ثم مساعداً إدارياً لحاكم سوريا العسكري فمستشاراً سياسياً للملك فيصل. ووزيراً للمعارف سنة 1946. رئيس المجمع العلمي-دمشق 1937. من مؤلفاته: خلاصة تاريخ الأندلس، لماذا تأخر المسلمون وغيرها.

2- Zamir, op. cit, p.70.

3 - الحويك، الذخائر، م. س، ص 834.

(1899-1920)، وعمل جهده وما بوسعه للحفاظ عليه وعلى كامل ترابه في الحقبة الثانية (1920-1931).

الوطن: جبل وسهل ومرافئ

ولكن كيف فهم البطريرك هذا الوطن ومكوّناته وأسسه وسبل بقائه؟!

الوطن الذي أراده الحويك يمكن اختصاره بالعبارات الثلاث التالية: جبل وسهل ومنافذ على البحر. وهذا تحديداً ما سعى إلى تحقيقه في لبنان الكبير؛ وهو الثلاثي الذي تقوم عليه جغرافية لبنان الحالي.

الياس الحويك هو في الأساس إبن الجبل، إبن قرية صغيرة وادعة (حلتا/البترون). وقد نشأ نشأة ريفية جعلته يتشبّث بالأرض والجبل. يقول في منشوره/الوصية محبة الوطن:«نرعى في أرضنا وفي الشمس التي تنيرها والأنهار التي تسقيها والجبال التي تحميها والبحر المتوسط المنبسط أمامها»[1].

لكأنه هنا يصف لنا طفولته في الريف. ويتابع بطرك لبنان وصفه للحياة في جبل لبنان وميّزاتها وقربها من النمط الصحّي والطبيعي للعيش:«هذه الأرض التي كانت على نحو ما أمّنا تغذّي أولادها من الأعشاب التي تنبتها، والحيوانات التي تعيش على سطحها. فتقدّم لنا الأغذية الملائمة مزاجنا وصحّتنا، والهواء العليل الذي يهبّ عليها هو الهواء الذي تتطلّبه رئتنا. والنور الذي ينيرها هو ما يأخذ بمجامع أبصارنا وقلوبنا، فلا يلذّ لنا

1 - الحويك، الذخائر، م. س، ص 798.

سواه»[1].

نراه هنا سبّاقاً في ميدان الطب الطبيعي وأساليب المعالجة الحديثة بالعودة إلى الطبيعة Naturopathie. ولكن الحويك بحسّه الجيوبوليتيكي، وبتجربته المريرة في الحرب، يدرك أن الجبال غير قادرة على تأمين ما يحتاج أهلها من غذاء، ولاسيما القمح. سبق وأشرنا إلى أن المجاعة في الحرب الكونية أودت بحياة نحو مئة ألف لبناني. وشبحها لم يكن ليغيب عن مخيّلة البطريرك الذي شاهد بأمّ عينه أبناءه يموتون جوعاً. فلا بدّ للجبل من سهل يؤمّن معيشة أهله. يقول الباحث المؤرخ د. جورج قرم شارحاً أهمية هذا العامل في خيار الحويك للوطن: «في الواقع شهد جبل لبنان وبيروت مجاعة قاسية خلال الحرب العالمية الأولى دبّرها العثمانيون. فقد كانت معظم زراعة الحبوب محصورة في البقاع وفي عكار. لذلك كان من السهل التسبّب بمجاعة في جبل لبنان، ذي الغالبية المسيحية، بمنع وصول القمح من هاتين المنطقتين. وهذا ما يفسّر موقف البطريرك الذي طالب باستعادة هاتين المنطقتين، حتى لو كان الثمن إضعاف الأغلبية الديموغرافية التي كان الموارنة يتمتّعون بها في المتصرفية»[2].

لا بدّ من سهول، ولا بدّ من شواطئ ومنافذ على البحر:

1 - م. ن.

2 - قرم، جورج، لبنان المعاصر تاريخ ومجتمع، ترجمة حسان قبيسي، بيروت، المكتبة الشرقية، ط1، ص 87.

بيروت وصيدا وطرابلس. فهل كان الحويك واعياً للخطر الكامن في أن هذه المدن عوض أن تكون تابعة للجبل ستجعله تابعاً لها، وخزّاناً بشرياً يقذف بأبنائه إليها؟!

ويدرك البطريرك أهمية الاكتفاء الذاتيّ والسعي إلى أن تفي منتوجات البلد حاجات أبنائه:«والوطني الصميم يقتصد في مأكله ومشربه وملبسه وأثاثه وترفه لمساعدة المصلحة العامة. وإذا أردنا وطناً حقيقيّاً فلنتعلّم الاقتصاد قبل كل شيء تاركين البذخ جانباً، ومستعملين محصولات بلادنا أولاً، وعند الاضطرار نعود إلى محصولات وبضائع الأجانب»[1].

إنه حسّ اقتصادي مالي سليم. فأساس الاستقلال السياسي الابتعاد عن التبعية الاقتصادية.

شاء الحويك وطناً قادراً، بمحاصيله وبمرافئه، أن يستغني، ما أمكنه ذلك، عن جيرانه. فلا يقع في المشاكل التي وقعت فيها المتصرفية.

ولا يغفل الحويك المسألة اللغوية:«لا يمكن أن نحبّ الوطن بمعزل عن حبنا للغتنا»[2]. فلغة لبنان هي العربية. ولكنه لا ينسى السريانية:«اللغة عند اللبنانيين هي اللغة العربية، وعند الموارنة هي اللغة العربية بالإضافة إلى اللغة الطقسية أي اللغة السريانية»[3].

1 - الحويك، الذخائر، م. س، ص 816.

2 - م. ن، ص 800.

3 - م. ن، ص 806.

كسب الجغرافيا وخسارة الديموغرافيا

وهكذا يبدو أن المحور الأساسي في فكر الحويك السياسي هو الوطن. والوطن عنده هو دولة لبنان الكبير المستقلّة. كان لا بدّ عنده من تكبير هذا اللبنان ليقوى على الصمود والاستمرار. أما المسائل الأخرى: صداقة فرنسا وتعاونها، الدستور، استقلال السلطة الكنسية عن السلطة المدنية، فتأتي كلّها لترفد هذا المحور الأساسي وتعضده.

ولكن هل فطن الحويك إلى حقيقة العواقب التي ستترتّب على خياره؟ وأولها وأبرزها أن الموارنة لن يعودوا أغلبية في اللبنان الكبير الذي أراد؟ هل وعى أن ما كسبه من الأرض سيخسره مع الزمن في المعادلة الديموغرافيّة؟!

يرى بعض من درس فكره السياسي أنه أغفل التعدّدية المذهبية والطائفية التي نتجت عن خيار لبنان الكبير. يقول د. ناصيف نصّار:«ومن أبرز سمات هذا الفكر [فكر الحويك السياسي] تغييبه شبه التام لمشكلة التعدّد الطائفي في الدولة الجديدة الناشئة. فكأن المشكلة بالنسبة إليه هي مشكلة تنظيم العلاقة بين الزعامة أو السلطة السياسية والسلطة الدينية في مجتمع لا يوجد فيه سوى سلطة دينية واحدة»[1].

وبالمقابل نجد في أقوال بطرك الموارنة ممّا نقلنا في هذا

1 - نصّار، ناصيف، من المتصرفية إلى لبنان الكبير، مدخل إلى دراسة اتجاهات الفكر السياسي عند الموارنة في المائة سنة الأخيرة بحث ضمن مجلة المشرق، بيروت، السنة 65، 1991، ص 164.

الفصل إدراكاً للواقع الطائفي الجديد الذي فرضه لبنان الكبير. «أنا لكل اللبنانيين، لا للموارنة فقط» قال للمندوب السامي الجنرال سراي كما أسلفنا.

لبنان الملجأ في فكر الحويك

تبقى الإشكالية البارزة التي يمكن طرحها هنا: هل استمرّ الحويك في لبنان الكبير يفكّر بذهنية لبنان الصغير؟! وهل استوعب هذا التغيّر الديموغرافي وتمثّله جيّداً ووعى أنه سيكون له في الكيان الجديد الذي استشرس في المطالبة به والمحافظة عليه موقعاً آخر وحجماً آخر؟!

ثمّة وثيقة بالغة الأهمّية تحمل إلينا أجوبة قاطعة على الإشكاليات البارزة هذه. إنها رسالة البطريرك الحويك إلى رئيس الحكومة/وزير الخارجية الفرنسي أريستيد بريان Briand والمؤرّخة في 1926/07/15: أي في ذروة الثورة السورية الكبرى. وعندما أثيرت مسألة ضمّ طرابلس إلى سوريا كحلّ لإرضاء الثوّار. يقول الحويك في رسالته ردّاً على هذا الطرح، ما ترجمته:«المسألة المطروحة اليوم، هي بتر لبنان المسيحي لمصلحة سوريا المسلمة. وذلك بذريعة الرغبة في منح سوريا منفذاً إلى البحر. وأن المنطقة المزمع فصلها منطقة مسلمة»[1].

1 - الخوري، الخوري إسطفان إبراهيم، وثائق البطريرك الحويك السياسية، صادرة عنه ومختارة من ملفاته المصنفة سياسياً في أرشيف البطريركية المارونية في بكركي، ذوق مصبح/لبنان، المركز الماروني للتوثيق، ط1، 2013، ص 243.

لنتوقف بداية عند بعض تعابير الحويك البالغة الدلالة: فهو يتحدّث عن لبنان المسيحي مقابل سوريا المسلمة. لبنان بمفهومه إذاً وطن مسيحي.

ولنتابع معه ردّه على مشاريع فصل طرابلس عن لبنان، ومن أي منطلق يأتي رفضه لها:«من بين 85000 نسمة هو مجموع سكّان طرابس وعكار ثمّة نحو 40000 (أربعون ألف) مسيحي سيغرقون في الأكثرية المسلمة الساحقة في سوريا»[1].

ويضيف الحويك:«في حين أن ضاحية طرابلس وخلفيتها بأكملها تبقى لبنانية، أي أن هناك ستّون ألفاً من السكّان وهم بأجمعهم من المسيحيين وهم مع بقائهم لبنانيين، فعليهم أن يستمرّوا بالتموّن من طرابلس: إنها مجموعة منافع لسوريا تحرم منها مالية لبنان»[2].

ينظر الحويك إلى طروحات فصل طرابلس عن لبنان وضمّها إلى سوريا من زاويتين: مذهبية واقتصادية. فنصف سكان طرابلس وعكار المزمع ضمّهما مسيحيون، في حين أن هذا الضمّ سيجعل من محيط طرابلس المسيحي تابعاً اقتصادياً وتموينياً لها. وبالتالي فالمصلحة المسيحية هي الحافز الأساسي لرفض فصل طرابلس.

ويتابع الحويك في رسالته الخطيرة هذه يقول:«الفكرة الأساسية التي قادت إلى إنشاء دولة لبنان كانت تأسيس دولة،

---

1 - م. ن.

2 - م. ن.

ملجأ لكل مسيحيي الشرق»[1] وفي هذه الجملة البسيطة يكمن جوهر فكره السياسي ومفهومه للبنان الكبير: البلد/الملجأ.

وهنا يدعو الحويك إلى عملية تبادل سكّان بين لبنان وسوريا في سبيل لبنان موطناً متجانساً، فيقول:«أي ضير إجراء عملية تبادل للسكّان بين جبل الدروز والمنطقة الجنوبية-الشرقية من لبنان من ناحية، هذا فيما يختصّ بلبنان، وبين المسلمين والمسيحيين في مناطق أخرى معيّنة من ناحية أخرى»[2].

وما يهمّنا هنا من طرح الحويك هذا ليس قابليته للتطبيق بل بالحريّ دلالته. لقد أدرك، وإن متأخراً، خطورة عدم التجانس بين سكّان لبنان الكبير. ولكنه، مع ذلك، بقي متشبّثاً بكل المكتسبات الجغرافيّة التي حصل عليها في لبنان الكبير. ورأى الحلّ في عملية مقايضة بالسكان: تهجير دروز حاصبيا وراشيا ومرجعيون، وهو يذكر هذه المناطق بالإسم في رسالته[3]، مقابل استقدام مسيحيين من سوريا. كما اقترح عملية مقايضة مماثلة بين مسلمي بعض المناطق اللبنانية (لم يحدّدها) ومسيحيي سوريا.

ولكن مَن هو القادر، لا بل حتى المستعدّ، لتنفيذ مشروع كهذا؟! وأين هذه الطروحات من الواقعية، لا بل من الوطنية التي تعلو المذاهب؟! أليس ما يقترح الحويك نمطاً من التطهير

---

1 - م. ن، ص 244.

2 - م. ن.

3 - م. س، ص 244.

العرقي الذي يناقض أبسط حقوق الإنسان، وترفضه الخُلقية الدولية المعاصرة؟ Ethique internationale.

أسئلة تحتاج إلى مزيد من التفحّص والبحث للإجابة عنها.

والخلاصة لا يمكن أن نفقه مفهوم الحويك للبنان وفكره السياسي عموماً بمعزل عن هذه الرسالة.

إدارة لبنان الكبير بذهنية لبنان الصغير

استمرّ العديد من زعماء الإكليروس الماروني في لبنان الكبير يفكّرون بذهنية لبنان الصغير والمتصرّفية. والمثال البارز على ذلك مطران بيروت إغناطيوس مبارك[1] أسقف بيروت وأحد المقرّبين إلى الحويك ومرافقه إلى مؤتمر الصلح في باريس. فقد بقي هذا الحبر يتحدّث عن «الرجوع بلبنان الكبير إلى مثل النظام الذي كان في لبنان القديم، بحكومة وطنية مصغّرة ومجلس وطني مصغّر (...) مع بعض تحويرات ضرورية يقتضيها التوسيع الذي طرأ على حدود لبنان القديم»[2].

---

1 - المطران إغناطيوس مبارك. تولّى مطرانية بيروت من 1919 إلى 1952. تلميذ مدرسة الحكمة وسان سولبيس في باريس. علم من أعلام الخطابة في المشرق. رافق سلفه المطران بطرس شبلي (1908-1917) الذي نفاه جمال باشا 1917 إلى المنفى. عرف بنشاطاته العمرانية إذ جدّد مدارس الحكمة وبنى الكنائس والمدارس ونظّم رعايا أبرشيته. اشتهر بعظاته النارية. استقال من الأبرشية 1952 إثر خلاف حادّ مع الرئيس بشارة الخوري. توفي سنة 1952.

2 - مبارك، المطران إغناطيوس مبارك، الثمر المبارك، من خطبة سنة 1933، نقلاً عن نصّار، ناصيف، م. س، ص 165.

ويتحدّث المطران مبارك عن «استعادة لبنان القديم في لبنان الكبير باختصار إدارته وتخفيف ضرائبه»[1].

وعن العمل على «دستور جديد للبلاد، لا يبتعد عن نظام المتصرّفية، إلا بقدر ما يقتضيه تكبير المتصرّفية»[2] وأن «أبناء الولايات التي انضمّت إلى لبنان ترضى بالعودة إلى نظام لبنان الصغير. ولدرس هذا النظام وتطبيقه على لبنان بعد تكبيره»[3].

وباختصار أراد مبارك أن يلبس لبنان الكبير عباءة لبنان الصغير بعد توسيعها وترقيعها لتناسب المقاس.

وأين الواقعية في كل ذلك؟!

والمطران مبارك نموذج معبّر يؤكّد أن الإكليروس الماروني لم يكن قد استوعب بعد كامل التغيّرات الجذرية التي عناها الانتقال من لبنان الصغير إلى الكبير، وأبرزها تغيّر هوية الكيان نفسه. فلبنان 1920 لم يعد وطناً مسيحياً كما كانت المتصرّفية. والتغيير الديموغرافي الجذري أوجب البحث عن هوية جديدة للكيان. ولم يسهل على الموارنة ولا سيما إكليروسهم وبطريركهم الذين استشرسوا في سبيل تكبير لبنان الاعتراف بطابع جديد وهوية أخرى. ولعلّهم لم يصحوا من غفلتهم إلا ليجدوا أنفسهم مرة أخرى أقلية عددية ضمن الأكثرية السابقة.

---

1 - م. ن.

2 - م. ن، ص 166.

3 - م. ن، ص 166.

نجاح في التكتيك... وفشل في الستراتيجيا؟!

وفي المحصّلة نقول لا نستشفّ من أقوال الحويك ولا من كتاباته إدراكاً حقيقياً لعمق التغيّرات الجذرية في الكيان هوية وطابعاً وانتماءً والتي عناها الانتقال من لبنان المتصرفية إلى لبنان الكبير. وهو لم يحفل بتحذيرات سليمان البستاني وروبير دو كيه وغيرهما من تبعات خياره، واستمرّ متشبّثاً بلبنان الكبير بكامل حدوده. ولعلّه هنا، وفي هذه النقطة، تكمن الفجوة الأساسية في منطقه واستراتيجيته.

هل يمكن أن نكرّر فيه ما قاله بعضهم عنه: نجح في التكتيك، وفشل في الستراتيجيا؟!

نجاحه في التكتيك كان باهراً، إذ حصل من الفرنسيين على أبرز ما سعى إليه: إستقلال لبنان وتكبير حدوده.

فهل كان نجاحه في الستراتيجيا مماثلاً؟ طبعاً لا. ولن ننجرف إلى حدّ القول إنه كان فاشلاً في هذا المجال. فالأيام كفيلة بالحكم على لبنان الكبير الذي شاءه الحويك وكرّس حياته للسعي إليه، وصونه.

الحويك بلا ريب رجل فاضل ومحنّك، بل من كبار عظماء تاريخ لبنان والموارنة. ولعلّه ولياً وقدّيساً كما يقول أبناؤه وراهباته. ولكنه، بالتأكيد، لم يكن معصوماً عن الخطأ، لا سيما في المجال السياسي والستراتيجيا.

باب 4

فصل 5

إميل إده يطلب العودة إلى لبنان المسيحي

مواضيع فصل 5 باب 4:

وثيقة إدّه غير الموقّعة

- نصّ مذكرة إدّه

ملاحظة بشأن لبنان

- ظروف المذكّرة

إحصاء 1932 أظهر أكثرية مسيحية هشّة

أسباب دعم إدّه لترشيح الجسر

- الوثيقة ونسبتها إلى إميل إده

إده ودو كيه

إده ودوجوفنيل

إدّه يؤيّد فصل طرابلس عن لبنان

إده يعاود الكرّة مع المفوض بونسو

لبنان أصغر من الكبير وأكبر من الصغير

إده والوطن القومي المسيحي بعد الاستقلال

- قراءة نقدية لوثيقة إدّه

تقاطع المصالح اللبنانية والفرنسية

خسارة الجغرافيا لكسب الديموغرافيا

وثيقة إدّه غير الموقّعة

بقي البطريرك الحويك، كما أسلفنا، مصرّاً على لبنان الكبير بكامل ترابه، وتصدّى لكل محاولات الفرنسيين فصل طرابلس أو غيرها عنه. هل كان بطرك لبنان واعياً ومدركاً تمام الإدراك لتداعيات تشبّثه هذا؟ وأية هوية وأي طابع أراده لوطنه؟!

رأينا في الفصل السابق أنه وعى متأخراً وإثر الثورة السورية الكبرى 1926 خطورة عدم التجانس بين سكّان لبنان الكبير على بقاء الكيان واستمراره، فكان الحلّ، بالنسبة إليه، تبادل سكّاني مسيحي-إسلامي بين لبنان وسوريا. ولكن مطلبه هذا لا هو كان واقعياً، ولا وجد مَن يجرؤ على تنفيذه ولا حتى الجهر به.

بالمقابل نجد بعض الزعماء الموارنة قد جرؤوا على التنازل عمّا اعتبره الحويك مكسباً وتشبّث به، أي بعض الأراضي اللبنانية، وذلك في سبيل إعادة الطابع المسيحي إلى لبنان وجعل سكّانه بأكثريّتهم الساحقة مسيحيين.

سبق وأشرنا إلى مخاوف المطران عوّاد رئيس أساقفة قبرص الماروني من أن يكون المسيحيون أقلّية في لبنان. ولا نملك المزيد من الوثائق عن موقف هذا الأسقف.

أما الموقف الأهمّ فيبقى لأبرز زعماء الموارنة في تلك الحقبة. إنه عضو الوفدين الأول والثالث إلى مؤتمر الصلح الرئيس إميل

إدّه[1]. وسيكون موقفه موضوعنا في هذا الفصل.

---

1 - إميل إده (1884-1949) من قرية إدة/جبيل. ولد في دمشق في 1884/05/06 حيث كان والده إبراهيم يعمل ترجماناً في القنصلية الفرنسية. أنهى دراسته الثانوية في كلية القديس يوسف للآباء اليوسوعيين 1900. ثم سافر إلى فرنسا، فدرس الحقوق في جامعة إكس وتخرج منها 1905.

عاد إلى بيروت وتدرّج في مكتب المحامي نقولا شوشاني، كما عيّن محامياً للقنصلية الفرنسية في بيروت 1912-1914.

ولما أعلنت الحرب الكونية هرب إلى الإسكندرية، فحُكم عليه غيابياً بالإعدام. عاد إلى لبنان بعد الحرب على متن بارجة فرنسيّة، فاختير عضواً في الوفد اللبناني الأول إلى مؤتمر الصلح، وكذلك في الوفد الثالث، وساهم في قيام دولة لبنان الكبير.

ساهم في تأسيس جمعية بيروت اللبنانية، كما ساهم في تأسيس حزب الترقي 1920. وترأس نقابة المحامين 1922. عيّن عضواً في اللجنة الإدارية 1920، ثم انتخب نائباً عن بيروت 1922. وفي سنة 1926 عيّن عضواً في مجلس الشيوخ عن جبل لبنان، ثم صار عضواً في المجلس النيابي بعد إلغاء مجلس الشيوخ ودمجه بالمجلس النيابي 1927. ثم أعيد تعيينه سنة 1929 وسنة 1934. وانتخب نائباً سنة 1943.

انتخب رئيساً لمجلس النواب 1924. عيّن رئيساً للحكومة ووزيراً للداخلية والصحة 1929.

انتخب رئيساً للجمهورية في كانون الثاني 1936 وبقي حتى 1941. في عهده وضعت المعاهدة اللبنانية الفرنسية وأقرّها مجلس النواب اللبناني، لكن البرلمان الفرنسي لم يقرّها. عيّنه المفوض السامي هللو رئيساً للدولة في 1943/11/10 أثناء اعتقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري وعدد من الوزراء في قلعة راشيا، لكنه لم يستطع تشكيل حكومة ولم يمارس الحكم. ثم أسقط البرلمان نيابته في 1944/03/31. تأهل من السيدة لودي سرسق

في الخارجية الفرنسية مذكّرة تعود إلى العام 1932 غير موقّعة ولا مؤرّخة، ولكنها مرفقة بملاحظة مؤرّخة في 1932/09/15 تبيّن أن كاتب المذكّرة ومقدّمها هو السيد إده Mr Eddé نائب لبناني. ويقدّم إده نفسه من خلال توصية من السيناتور هنري دوجوفنيل[1]. ويطالب إده في هذه المذكرة بفصل طرابلس وجنوب لبنان عن لبنان الكبير. وقد شكّك البعض بصحّة نسبة هذه المذكرة إلى إدّه، وحجّتهم في ذلك أنها غير موقّعة. ولكن الباحث مائير زامير، وهو أول من نشرها، يؤكّد نسبتها إلى السياسي المذكور استناداً إلى قرائن عديدة أبرزها الملاحظة المرفقة بالمذكّرة[2]. وقبل أن نبيّن نحن صحّة هذه النسبة ونقدّم البراهين على ذلك سنعمد إلى تقديم ترجمة أمينة لنصّها ونعرض لظروف وضعها ونناقش طروحاتها

→ وأنجب: ريمون وبيار وأندريه. توفي في صوفر 1949/09/27.

عرف إميل إده بنزعته اللبنانية المتشدّدة وبولائه لفرنسا ومراهنته على دورها في مساعدة لبنان. سيطرت المنافسة بينه وبين بشارة الخوري للوصول إلى رئاسة الجمهورية على مجريات السياسة اللبنانية منذ أواخر العشرينات وحتى 1943.

1 - هنري دوجوفنيل Henry de Jouvenel مفوّض سامي فرنسي في لبنان وسوريا (1925-1926). في أيامه وضع الدستور اللبناني. بقي على علاقة طيبة مع عدد من السياسيين اللبنانيين بعد رحيله، حيث كان عضواً بارزاً وذا تأثير في مجلس الشيوخ. وكان هؤلاء يتّصلون به عند زيارتهم لفرنسا ويلقون دعمه.

2- Zamir, Meir, Emile Eddé and the Territorial integrity of Lebanon, in Middle eastern Studies, London, Taylor & Francis, Vol 14. N°May 1978, p. 232-233.

وأفكارها ومطابقة ذلك لآراء الرئيس اللبناني الأسبق.

نصّ مذكرة إدّه

ملاحظة بشأن لبنان

«لفرنسا المصلحة الاقتصادية والسياسية الكبرى في ترسيخ وضعها أقلّه على الساحل السوري. ومصلحتها الاقتصادية تكمن، بصورة أساسية، في أن هذا الساحل يشكّل المرفأ المتوسّطي والمنفذ الأقرب إلى بلاد الرافدين وفارس والهند. أما مصلحتها السياسية فتكمن خصوصاً في أن الساحل المذكور يؤمّن لها المرصد الوحيد لمراقبة وضبط التحكّم بعقل الإسلام وقلبه والموجودين في العالم العربي.

وللتوصّل إلى هذا الترسيخ يجب الحفاظ على الإدارة الفرنسية في الإسكندرونة وبلاد العلويين وتنميتها والعمل من دون تأخير على تصغير أرض لبنان لتمكين هذه الدولة من أن تكون لها أكثرية مسيحية أكثر صلابة.

وهذا ما يستدعي أن تكون طرابلس، التي تملك مرفأ وستكون مصبّاً لأنابيب النفط، مدينة حرّة توضع تحت إدارة فرنسية مباشرة. فيحصل سكّان هذه المدينة المسيحيون على الجنسية اللبنانية، في حين يحصل سكّانها المسلمون على الجنسية السورية. وبهذه الطريقة ينقص تعداد المسلمين في لبنان 55 ألفاً. وهي نتيجة أولى مهمّة.

وثمّة داعٍ كذلك في جعل منطقة جنوب لبنان، بأكملها

وبأكثريتها المسلمة الشيعية الساحقة، دولة تتمتّع بحكم ذاتي على رأسها حاكم فرنسي كما في الإسكندرونة وبلاد العلويين وطرابلس.

وبنتيجة عملية البتر الثانية هذه يتخلّص لبنان من 140 ألف مسلم شيعي وسنّي، فيستعيد أكثرية مسيحية تساوي نحو 80% من مجموع سكّانه.

وفي الوقت الحالي فلبنان يعدّ نحو 405 آلاف محمّدي (سنّة وشيعة ودروز) مقابل 425 ألف مسيحي فقط. إنها أكثرية مسيحية أضعف من أن تواجه ضغوطات الوحدة مع سوريا التي يتعرّض لها لبنان. وإذا لم نتحسّب لذلك، فلن يمرّ وقت طويل قبل أن يطلب لبنان نفسه الوحدة مع جارته.

إضافة إلى ذلك، فالأحداث التي وقعت بمناسبة انتخاب رئيس للجمهورية تشكّل إنذاراً جدّياً على هذا الصعيد. إذ رشّح مسلم نفسه لهذا المنصب الكبير، وأمام حظوظه الكبيرة بالنجاح انتهى الأمر بسلطات الانتداب إلى تعليق الدستور.

وبتبنّي الصيغة المقترحة هنا يتمّ استبعاد أي خطر مماثل في المستقبل، ولبنان الذي يصير بذلك متجانساً يستطيع أن يتابع تطوّره الحقيقي وأن يقدّم لفرنسا، وعلى جميع الأصعدة، دعماً بالغ الأهمية. وفي الوقت الذي تبدو فيه فرنسا تضحّي لتتجنب كارثة في سوريا فينبغي عليها أن تتحصّن أكثر فأكثر في لبنان

وعلى طول الساحل»[1].

ظروف المذكّرة

في حزيران 1932 شكّل هريو حكومة جديدة في فرنسا. وفي العشرين من الشهر المذكور غادر هنري بونسو المفوّض السامي في لبنان وسوريا بيروت متوجّهاً إلى باريس للمشاركة في مناقشات الكي دورسيه (وزارة الخارجية) الهادفة إلى رسم سياسة فرنسية جديدة في الشرق. ويرجّح أن إده قدّم مذكرته هذه في وقت ما بين تموز وآب أثناء انعقاد جلسات هذه المناقشات[2].

وتشير الوثيقة نفسها إلى الظروف التي قدّمت فيها. فهي تذكر حدثين أساسيين عرفتهما الساحة اللبنانية في تلك الفترة: الإحصاء، وانتخابات رئاسة الجمهورية. وهما حدثان مرتبطان، وسنعرض في ما يلي لما كان لهما من حيثيّات وتداعيات وذيول وانعكاسات على موقف إميل إده في هذه الوثيقة.

إحصاء 1932 أظهر أكثرية مسيحية هشّة

إحصاء عام 1932 لا يزال إلى اليوم آخر إحصاء للسكّان

1- AE (Archive du Ministère des affaires Etrangères, Note du Sous-Secretaire d'Etat à la Direction politique (Afrique-Levant). E 4132, série 801, N°801, N° 149, Paris 29 Aout 1932.

2- Zamir, op. cit, p.232.

أجري في الجمهورية اللبنانية. وكان الشيخ محمد الجسر[1] رئيس المجلس النيابي والمرشح لرئاسة الجمهورية على رأس المطالبين بهذا الإحصاء والعاملين على إجرائه. يروي الشيخ بشارة الخوري، وكان أبرز المرشحين للرئاسة يومها، عن ظروف الإحصاء وترشيح الجسر في مذكّراته ما يلي:«أخذت الفكرة تتجسّم في رأس الشيخ محمد الجسر، وبدأ يعدّ لها العدّة، فطلع بمشروع قانون بإجراء إحصاء عامّ على الفور بعدما أمّن لهذا

1 - الشيخ محمد حسين الجسر (1881-1934) ولد في حيّ الحدادين في طرابلس. درس العلوم الشرعية في الأزهر في مصر. ثم زار الأستانة برفقة والده وقابل السلطان عبد الحميد. ولبس العمامة والجبة وهو في سنّ الرابعة عشرة. انتخب عضواً في مجلس المبعوثان العثماني عن مدينة طرابلس 1912-1915، ونائب رئيس مجلس ولاية بيروت 1915-1919، ومفتشاً للمعارف، ومسؤولاً للإعاشة في الولاية 1915-1918. ترأس محكمة الإستئناف سنة 1920 ومحكمة الجنايات 1921. كما عيّن سنة 1922 مدّعياً عاماً للتمييز، ثم ناظراً للداخلية 1922-1924. اعترف الشيخ محمد الجسر بالكيان اللبناني مخالفاً بذلك التيار الوحدوي المسيطر في مدينة طرابلس، كما رفض التعاون مع الحركة العربية الفيصلية. وفي 1924/07/05 عيّن مندوباً للحكومة في المجلس التمثيلي الأول. وبعد صدور الدستور اللبناني في 1926/05/23، عيّن محمد الجسر عضواً في مجلس الشيوخ، ثم انتخب رئيساً لهذا المجلس في 1926/05/25. وإثر التعديل الدستوري 1927 الذي قضى بإلغاء مجلس الشيوخ ودمجه بمجلس النواب عيّن محمد الجسر رئيساً للمجلس النيابي، واستمرّ رئيساً له حتى 1932/05/09 حين علّق المفوض السامي الدستور وحلّ المجلس للحؤول دون وصول الشيخ الجسر إلى رئاسة الجمهورية. فاعتزل السياسة وما لبث أن توفي في 1934/11/11.

المشروع في الكواليس الأكثرية المطلوبة، فوافقت عليه. [...] فأجري الإحصاء في 1932/01/13، ولم يعطِ النتيجة التي توخّاها الشيخ محمد، ولكن رئيس المجلس لم يحجم عن السير بترشيح نفسه للمقام الأول ونزل إلى الميدان»[1].

كانت غاية الجسر إذاً من الإحصاء إظهار أن المسلمين هم نصف سكّان لبنان أو أكثر، ولهم الحق بالتالي بمنصب رئاسة الجمهورية. ويؤكّد ذلك:«البرقيات التي أرسلت باسم المسلمين إلى رئيس الجمهورية الفرنسية دومير Doumer وإلى رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وإلى عصبة الأمم في جنيف وقد جاء فيها:«بما أننا نشكّل نصف سكّان الجمهورية اللبنانية لنا الحق في الوصول إلى سدّة الرئاسة الأولى، لأن لبنان اليوم ليس لبنان ما قبل الحرب، أي لبنان الوطن القومي المسيحي». وجاء في البرقية المرسلة إلى رئاسة الوزراء الفرنسية:«إن المسلمين في لبنان يشكّلون نصف السكّان ويمتلكون ثلاثة أرباع الثروة الوطنية فيه، لذا يعتبر المسلمون في لبنان أن الترشيح لرئاسة الجمهورية هو من أبسط حقوقهم الطبيعية والمشروعة ... فالمسلمون يحتجّون بشدّة على المداخلات الرامية إلى قطع الطريق أمام المرشح المسلم لفرض مرشح مسيحي»[2].

1 - الخوري، حقائق، م. س، ج1، ص 176.
2 - حلاق، حسّان، دراسات في تاريخ لبنان المعاصر 1913-1943، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1985، ص 135-136.

أسباب دعم إدّه لترشيح الجسر

ولكن إذا كان الجسر يصوّب من خلال الإحصاء نحو رئاسة الجمهورية، فإلى ماذا كان يهدف إميل إده في دعمه للجسر في المعركة؟ بل ودفعه إلى الترشح بوجه الشيخ بشارة الخوري؟

رأى إده يومها أن حظوظه في الرئاسة بوجه الخوري ضعيفة، فلعب لعبة الجسر صديق الخوري الحميم ليسدّ على هذا الأخير الطريق إلى الرئاسة. وفي ذلك يروي الخوري في مذكّراته: «لقد رسم [إدّه] وأعوانه خطّة محكمة للإيقاع بيني وبين الشيخ محمد الجسر، وسعوا مع الشيخ لكي تكون الرئاسة له نفسه، فلقيت المداورة قبولاً لديه، وعرض الفكرة على بعض من يريدون تعكير الوضع اللبناني، فرحّبوا بها»[1].

وعبارة بشارة الخوري الأخيرة:"تعكير الوضع اللبناني" بالغة الدلالة. فالشيخ محمد الجسر لم يكن مرشّحاً عادياً لرئاسة الجمهورية، وكانت حظوظه جدّية بالوصول إليها، لكن سلطات الانتداب لم تكن في وارد أن تفسح المجال لمسلم في تولّي المنصب الأول في الجمهورية اللبنانية. وكانت حازمة في رفض التفاوض أو المساومة في هذا المجال، وانتهى الأمر بهنري بونسو المندوب السامي إلى تعليق الدستور وحلّ المجلس النيابي لمنع انتخاب الجسر. وهذا كلّه أدّى إلى تعكير فعلي للوضع في لبنان.

ومن قرائتنا المتأنّية لوثيقة إده موضوع بحثنا في هذا الفصل يلوح لنا أنه أراد من دفع الشيخ محمد الجسر إلى الترشح

1 - الخوري، حقائق، م. س، ج1، ص 175-176.

للرئاسة أن يصيب عصفورين بحجر واحد: الأول أن يسدّ الطريق على خصمه بشارة الخوري، وهو ما سبق وذكرناه. ولكن الهدف الإستراتيجي والأساسي كان ما يذكره إده تحديداً في هذه الوثيقة: أي مطالبة سلطات الانتداب الفرنسي بفصل طرابلس والجنوب عن لبنان لتجنب أي خطر مماثل [رئيس مسلم ودولة ذات أكثرية إسلامية] في المستقبل.

وهكذا فالإحصاء وانتخابات الرئاسة كانا لإده جرسي إنذار قرعهما على مسامع الفرنسيين في هذه الوثيقة محذّراً من الآتي، إذا استمرّ لبنان "الكبير" في هذه الصيغة ذات الأكثرية المسيحية الواهية.

الوثيقة ونسبتها إلى إميل إده

شكّك بعض السياسيين من زعماء الكتلة الوطنية (حزب إميل إدّه) في نسبة هذه الوثيقة إلى الرئيس اللبناني الأسبق. والحجّة الأساسية في ذلك غياب أي توقيع له عنها.

ولكن غياب التوقيع ليس بالحجّة الكافية، لا سيما وأن له مبرّراته المقنعة. والمذكّرة وإن لم تكن موقعة فهي مرفقة، كما ألمعنا، بملاحظة واضحة في الأرشيف الفرنسي تبيّن هوية كاتبها (السيد إده نائب لبناني) والمعرَّف عنه (السيناتور هنري دوجوفنيل).

لِمَ أغفل إده توقيع مذكّرته؟! كان رئيس الجمهورية اللاحق مدركاً أن أكثرية المسيحيين ولاسيما الموارنة سيتصدّون لأي مسّ بأراضي لبنان الكبير، وسينظرون إلى ذلك كخيانة عظمى. وكان

يخوض منافسة كبرى مع بشارة الخوري على رئاسة الجمهورية، ويحاول الحصول على أكبر دعم ممكن من المسيحيين وخصوصاً الموارنة. لذا أحجم عن التصريح العلني بهذه الآراء. ولكنه شرحها في مجالس خاصة ولاسيما للمسؤولين الفرنسيين.

وقد يكون أحجم عن توقيع المذكّرة ليتنصّل من مضمونها إذا حُشر، فلا يأخذها أخصامه مَمسكاً عليه إذا عرفوا بها.

ولكن كانت لهذا السياسي اللبناني المحنّك مواقف سابقة ولاحقة تتوافق مع مطالبه في هذه المذكّرة، وتسلّط المزيد من الأضواء على هذه المطالب وخلفياتها ودوافعها.

إده ودو كيه

ارتبط إميل إده بعلاقة وثيقة باثنين من السياسيين الفرنسيين، وكانا من أشدّ المعارضين لضمّ طرابلس وحتى بيروت إلى لبنان الكبير. إنهما روبير دوكيه السابق الذكر، والمندوب السامي هنري دوجوفنيل الذي عرّف عن إده عند تقديم مذكّرته.

وقد استفضنا في ذكر معارضة دوكيه لضمّ بيروت وخصوصاً طرابلس إلى لبنان. وما يهمّنا الإشارة إليه هنا العلاقة الوطيدة التي جمعت بين دو كيه وإده. يقول الصحافي وليد عوض راوي سيرة إدّه:«كان إميل إدّه على صداقة قوية بالقاضي الفرنسي روبير دو كيه الذي كان مدير أعمال المفوضية. وكلمة دو كيه كانت في الدوائر اللبنانية مثل خاتم سليمان، بل إن مدام دو كيه زوجته الشقراء، كانت دائماً في جلسات إميل إده داخل

فندق صوفر الكبير»[1].

ولا نستبعد أن يكون إده قد تأثر، إلى حدّ ما، بآراء صديقه دو كيه. وعلاقة الرجلين تعود إلى زمن وجودهما في باريس. وكان إميل إده، كما سبق وذكرنا، عضواً في الوفدين اللبنانيين الأول والثالث إلى مؤتمر الصلح.

وفي مجريات مباحثات الوفد الثالث ومفاوضاته مع السياسيين يلفتنا حدث بارز قد يكون مهّد لقناعة إميل إده اللاحقة هذه. فصديق إده وزميله في الوفدين الأول والثالث الصيدلي الشيخ يوسف بشير الجميّل (1874-1943)[2] اقتنع

1 - عوض، وليد، أصحاب الفخامة رؤساء لبنان، بيروت، الأهلية للنشر، ط1، 1977، ص 151.

2 - الشيخ يوسف بشير الجميل ولد في بكفيا 1874. درس في مدرسة عينطورة حتى 1890. وتخرّج 1894 صيدلانياً من الجامعة اليسوعية/بيروت. وتابع 1895 دروسه في الكيمياء في باريس، وانضمّ إلى جمعية الكيمياء الصناعية. وكان أول من استعمل المازوت لشيّ الآنية الخزفية، وعرف مشعاله بمشعال الجميّل Bruleur à Mazout. عاد سنة 1897 إلى لبنان وفتح صيدلية في بيروت في الشارع الذي سمّي لاحقاً شارع غورو. أسس عام 1912 معملاً للسجاير. هرب إلى مصر 1914 بسبب اضطهاد الأتراك، وعاد إلى لبنان بدعوة من المفوّض السامي جورج بيكو أواخر 1918. سافر 1919 إلى باريس في عداد الوفد اللبناني الأول وسنة 1920 في عداد الوفد اللبناني الثالث، وعيّن 1920 عضواً في اللجنة الإدارية ثم استقال. ورفض العديد من المناصب النيابية والوظائف العليا. عرض عليه المفوض السامي سنة 1940 رئاسة الجمهورية فاعتذر لعدم قبول هذا الأخير بشروطه، لكن المفوّض عمل بنصيحته وعيّن ألفرد نقاش رئيساً. توفي في 1943/03/08.

بآراء روبير دو كيه الداعية إلى عدم ضمّ بيروت وطرابلس إلى لبنان. ويروي المطران عبدالله خوري، رئيس الوفد الثالث كيف تأثر الجميّل بآراء دو كيه، فيقول في مفكّرته:«يوم الأحد 25 تموز 1920 زرنا مع فؤاد خليل بك الخوري الشيخ يوسف الجميل في منزله الجديد [...] وفي أثناء الحديث، فتحنا مسألة بيروت ولزوم ضمّها إلى لبنان، فرأينا أنه قد عاد إلى اعتقاده من حيث الضرر على لبنان من ضمّ بيروت إليه من الوجهة الأدبية، ولحظنا أنه يتخابر مع روبير دو كيه بهذا الخصوص. لأننا فهمنا منه كيفية إلحاق حكومات بيروت وطرابلس وجبل عامل والنصيرية وحوران بجبل لبنان. ولدى دخولنا إليه رأيناه يدرس الخارطة اللبنانية، فقلنا إن عدم إلحاق بيروت بلبنان مضرّ بالجبل، وأننا نستعدّ لعمل درس، وبه نبيّن ضرورة ذلك لنقدّمه، فغضب الرجل، وقال أنت لست لوحدك، بل يلزم عرضه على بقية الأعضاء. فقلنا متى تمّ الدرس طبعاً نعرضه على الأعضاء. وهنا غيّرنا الحديث إلى أمور غير هذه. ولكن، أسفنا كثيراً لهذا الانقسام في الرأي، مع كوننا نعتقد أن الشيخ يوسف هو من أحسن الناس. ولكنّ ادّعاءه وانقياده إلى رأي روبير دو كيه وغيره من ذوي الحسب (شيخ أمير) لا يقف عنده حاجز»[1].

فهل امتدّت عدوى الاقتناع بآراء دو كيه من الشيخ يوسف

1 - خوري، المطران عبدالله، مفكرة ويوميات إبّان المفاوضات من أجل لبنان الكبير 1920، تحقيق سامي سلامه، لبنان، منشورات جامعة سيدة اللويزة، ط1، 2001، ص 80.

الجميل إلى صديقه إميل إده[1]؟! لم يظهر من إميل بوادر تأثر بآراء دو كيه وبصديقه الشيخ الجميل عندما كان عضواً في الوفد الثالث في باريس. لكن تقرّبه اللاحق من الدبلوماسي الفرنسي بعد انتقال هذا الأخير إلى بيروت كان من شأنه، على ما يبدو، نقل العدوى.

إده ودوجوفنيل

ولا نلمح تحوّلاً واضحاً في خيارات إميل إده وقناعاته بشأن الكيان اللبناني، إلا مع عهد المفوض السامي السناتور هنري دوجوفنيل. (1925/11/10-1926/09/2) وهذا الأخير كان من مدرسة دو كيه. يروي المؤرّخ مائير زامير:«ومثل دو كيه رأى دوجوفنيل أن اقتطاع طرابلس من لبنان، وضمّها إلى سوريا له الأولوية الكبرى. وفور وصوله إلى بيروت بدأ المسؤولون الفرنسيون يؤكّدون على ضرورة هذه الخطوة في نقاشاتهم مع المسيحيين اللبنانيين. وفي لقاء عقد في 1925/12 مع وفد ماروني من زغرتا جاء يطالب بإعادة مركز إدارة سنجق الشمال إلى بلدتهم، أعلن دوجوفنيل:«أنه شخصياً لا يعارض إلحاق طرابلس بسوريا، وأنه مستعد لإجابة مطالبهم إذا قدّمت إليه عن طريق البطريرك الماروني. وكان دوجوفنيل يعلم مدى معارضة الكنيسة المارونية لسلخ طرابلس عن لبنان. ولكنه كان يأمل في أن تغيّر

1 - كان الشيخ يوسف الجميّل صديقاً حميماً لإبراهيم والد إميل إده. وهو من هرّب الشاب إميل إلى فرنسا العام 1900 بطلب من والده إبراهيم بعد حادثة صيد في البقاع الغربي (عوض، وليد، أصحاب الفخامة، م. س، ص 125-126).

الكنيسة من موقفها على ضوء نتائج الثورة، والاضطرابات التي عمّت المدينة»[1].

وتروي المؤرّخة تمارا الشلبي:«كان هنري دوجوفنيل، أوّل مندوب سامي مدني، وقد ساند روبير دو كيه في مذهبه حول لبنان صغيراً وأكثر مسيحية. فاعتبر أن السياسة الحكيمة تقتضي اختزال الأراضي اللبنانية، وإعادتها إلى نواتها المسيحية، وإلحاق طرابلس وعكّار بسوريا»[2].

ولن نتوسّع في عرض آراء دوجوفنيل وذكر محاولاته المتكرّرة والحثيثة لإرضاء زعماء الثورة السورية من خلال ضمّ طرابلس إلى سوريا، ولكن ما يهمّنا هنا هو موقف إميل إده من ذلك ودوره.

إدّه يؤيّد فصل طرابلس عن لبنان

يروي أمين سعيد مؤرّخ الثورة العربية:«ودارت مفاوضات بين المسيو دوجوفنيل وبين الحكومة [السورية] الجديدة [برئاسة الداماد أحمد نامي بك] للاتفاق على قضية الوحدة والمشكلات الأخرى امتدّت نحو أسبوعين [...] وسلّم المندوب السامي [رئيس الحكومة] الداماد رسالتين كتبهما بخطّ يده، ووجّههما إليه اعترف في الأولى بحقّ سوريا في الحصول على مرفأ بحري، وتعهّد بإعطائها طرابلس مع عكّار على طول خط السكّة

1- Zamir, The formation, p. 186.

2 - الشلبي، تمارا، شيعة جبل عامل ونشوء الدولة اللبنانية 1918-1943، ترجمة عايدة سركيس، بيروت، دار النهار، ط1، 2010، ص 195.

الحديد إلى بعلبك، فتتصل بدمشق مباشرة من دون أن تمرّ السكة بأراضٍ لبنانية (...). والرسالتان مكتوبتان في أواخر شهر إبريل 1926. وهما محفوظتان عند الداماد أحمد نامي ولم تنشرا»[1].

وبشأن دور إميل إده في ذلك، يروي أمين سعيد:«وكان بعض زعماء الطائفة المارونية، وفي مقدّمتهم البطريرك وإميل إدّه على علم بما جرى. وقد تعهّد الأخير بإقناع أبناء طائفته بالموافقة على إعطاء طرابلس لسوريا. وإشعاراً بذلك، وقّع بخطّ يده على الوثيقة الخاصّة بقضية الوحدة»[2].

ولن نفنّد هنا رواية أمين سعيد وقصّة الوثيقتين وتوقيع إميل إده على واحدة منهما، لاسيما وأنه لا يبرز ما يتحدّث عنه من وثائق. ولكن ما يقوله عن موافقة إده على إعطاء طرابلس لسوريا يبدو قريباً من الواقع، وتؤيّده الأحداث والمواقف اللاحقة.

وعن تأييد إميل إده لسياسة دوجوفنيل يقول المؤرخ مائير زامير:«أما التأييد اللبناني الأساسي لسياسة دوجوفنيل فقد جاء من إميل إده الذي صار لاحقاً رئيساً للجمهورية. وكان يعتقد، مع أقلية إلى جانبه، أن الوسيلة الفضلى للحفاظ على خصوصيّة لبنان المسيحية تكمن في سلخ المناطق ذات الأغلبية الإسلامية

---

1 - سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2، (ط1، 1933)، ج3، ص 427-428.

2 - م. ن، ج3، ص 428.

عن كيانه العتيد»[1].

وبقي هذا التناغم والانسجام بين آراء دوجوفنيل وإميل إده حتى بعد رحيل الأول عن لبنان. فنراه وهو السناتور المؤثر في السياسة الفرنسية يقدّم النائب اللبناني ورئيس الحكومة السابق إلى دوائر الخارجية الفرنسية ويعرّف عنه، كما جرى عند تقديم إده لمذكّرته إلى الخارجية.

ولم تنجح مساعي دوجوفنيل ومحاولاته لأسباب عديدة أبرزها معارضة البطريرك الماروني الشديدة لها، وسقوط الحكومة الفرنسية (برئاسة أريستيد بريان) المؤيدة له، وتشكيل حكومة جديدة محافظة برئاسة بوانكاريه معارضة لتوجّهات المندوب السامي دوجوفنيل[2]. فاستقال هذا الأخير، وأنهت استقالته آخر محاولة فرنسية لاقتطاع أجزاء من لبنان كانت قد ضمّت إليه سنة 1920[3].

إده يعاود الكرّة مع المفوض بونسو

ولكن فشل دوجوفنيل ونهاية عهده لم يغيّرا من رأي إميل إده على ما يبدو. ففي عهد خلفه هنري بونسو Ponsot (1926/09/03- 1933/07/15)[4] وهو أطول عهد لمندوب سامٍ

1- Zamir, Meir, Smaller and Greater Lebanon, the Squaring of a circle? in Jerusalem Quarterly, vol 23, 1982, p. 34-53.

2- Zamir, The formation, op. cit, p. 198.

3- Ibid, p. 199.

4 - هنري بونسو (1877 - 1963) Henri Ponsot دبلوماسي فرنسي ولد في بولونيا. دخل السلك الدبلوماسي 1903 وعمل في سيام وبرلين وكندا. تمّ ←

فرنسي. نجد في الخارجية الفرنسية وثيقة أخرى تؤكّد موقف إدّه. إنها رسالة من المندوب بونسو إلى رئيس الحكومة ووزير الخارجية أرستيد بريان يشرح فيها موقف إدّه من حدود لبنان والأكثرية المسيحية الضرورية. ففي نيسان 1930 وبعد مضيّ ثلاثة أسابيع على سقوط الحكومة التي ترأسها إدّه، وذلك بنتيجة المعارضة الإسلامية، قابل هذا الأخير المفوض السامي هنري بونسو، وعبّر له، كما كتب المندوب إلى رئيسه بريان:«عن مخاوفه من أن يؤول استقلال لبنان وسوريا إلى مطالبة مسلمي لبنان بالوحدة مع سوريا. وشرح [إدّه] أنه لهذا السبب كان دوماً مؤيّداً للبنان المقتصر على الحدود الضرورية والذي يحوي أكثرية فعلية من المسيحيين. فبذلك فقط يستطيع لبنان الوطن المسيحي أن يعيش في ظل الحماية الفرنسية»[1]. وفي قول إدّه هذا إشارة إلى أنه كان مقتنعاً بآراء دو كيه منذ كان عضواً في الوفد الثالث وزميلاً ومرافقاً لصديقه يوسف الجميل.

→ تعيينه سكرتيراً عاماً للحكومة التونسية 1922. تولّى مهام مديرية الشؤون الفرعية الإفريقية في فرنسا. تفاوض مع إسبانيا للوصول إلى اتفاقية للعمل المشترك في المغرب/أيار 1925. عين مفوّضاً سامياً لفرنسا في سوريا ولبنان في آب 1926 واستمرّ حتى تمّوز 1933، حلّ المجلس النيابي 1932، وبقي المجلس منحلاً حتى مجيء أوبوار رئيساً للدولة الفرنسية 1933. كما أصدر قراراً بتعليق العمل بالدستور وحلّ الحكومة في لبنان، وكلّف شارل دبّاس شؤون رئاسة الحكومة إلى جانب شؤون رئاسة الجمهورية. شغل منصب سفير فرنسا في تركيا من آذار 1936 إلى تشرين الأوّل 1938.

1- Archive du Ministère des affaires Etrangères. Ponsot à Briand, E 412, Série 761. Despatch no 275, Beyrouth 22 Avril 1930. Appendice datée 12/04/1930.

لبنان أصغر من الكبير وأكبر من الصغير

ومواقف إميل إده المتكرّرة وغير المعلنة هذه لم تكن لتخفى على معاصريه من أخصامه وحلفائه في آن. ولنا في شهادة خصمه الأكبر الرئيس بشارة الخوري ما يؤكّد أن العميد اللاحق للكتلة الوطنية كان يدعو إلى لبنان ذي أكثرية مسيحية واضحة، وبالتالي فصل بعض المناطق الإسلامية عنه. يقول الخوري في مذكّراته:«إن إدّه كان ضيّق الإيمان بالاستقلال التامّ الناجز، وبديمومة الميثاق الوطني. ضعيف الثقة بدنيا العرب. ولو انقادت إليه الأمور وأصبح في مقدوره تحويل مجرى الحادثات، لأنشأ لبناناً أصغر من الكبير، وأكبر من الصغير، يضمّ بيروت قاعدة له والبقاع الغربي مدى حيوياً، ولأحاطه بسياج من الوصاية الفرنسية، ولجعل من لبنان هذا موطناً ترجح فيه كفّة على كفّة رجحاناً بيّناً»[1].

لكأن الخوري كتب كلماته هذه وهو يقرأ في وثيقة إده موضوع بحثنا. فهذا تحديداً ما تهدف إليه هذه الأخيرة: لبنان أصغر من الكبير، وأكبر من الصغير، يحوي بيروت والبقاع ويتمتّع بالحماية الفرنسية. ولكن هل أنصف الشيخ بشارة إده من حيث أراد إدانته؟! فأي الخيارين كان الأقرب إلى السلام والاستقرار والواقعية وبعد الرؤية: خيار الخوري أم خيار إده؟!

1 - الخوري، حقائق، م. س، ج2، ص 84.

إده والوطن القومي المسيحي بعد الاستقلال

وفي كلام الخوري إشارة إلى أن إده بقي زمناً طويلاً، وحتى وفاته ربّما، على رأيه هذا. فقد كان ضيّق الإيمان بالميثاق الوطني. ويؤكّد ذلك عدد من الأحداث والوثائق اللاحقة.

تنقل الباحثة نجلاء سعيد مكاوي عن أرشيفي وزارتي الخارجية البريطانية والمصرية، ما جرى من اتصالات العام 1946 بين ملك الأردن عبدالله بن الحسين بشأن مشروع سوريا الكبرى وإقامة وطن قومي مسيحي، فتروي:«حاول الملك عبدالله استخدام رغبة بعض الموارنة في إقامة وطن قومي مسيحي، لكسب تأييدهم لمشروع "سوريا الكبرى"، مقابل إقامة هذا الوطن ضمن إطار المشروع.

وجرت عدّة اتصالات بين الملك وإميل إده، رئيس الجمهورية اللبنانية السابق من جهة، وبين إده والبريطانيين من جهة أخرى، في سبيل تحقيق ذلك. فحاول إده أثناء وجوده في باريس الاتصال بالبريطانيين الموجودين هناك، وانتشرت الشائعات أنه اجتمع بوزير الخارجية البريطاني بيفن في باريس للبحث في موضوع "سورية الكبرى"، وإقامة وطن قومي مسيحي»[1].

وتنقل مكاوي عن وثائق الخارجية المصرية:«أن ثمّة اتصالات

1 - مكاوي، نجلاء سعيد، مشروع سورية الكبرى، دراسة في أحد مشروعات الوحدة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2010، ص 180 نقلاً عن أرشيف الخارجية البريطانية (F.O 371/52499, Shone to F.O(28 May 1946.

بين البريطانيين الموجودين في دمشق وبيروت وخاصّة سترلينغ وإده طوال العام 1946. بل إن سترلينغ سعى لدى بعض الزعماء المسلمين إلى تأييد إده في مشروعه. كما أن رجال المفوضية البريطانية في دمشق أكّدوا أن فكرة رجوع لبنان إلى حدوده القديمة (...) هي محلّ دراسة»[1].

ولسنا هنا، بالطبع، في وارد الخوض في تفاصيل هذه المشاريع والاتصالات ونتائجها. فكل ما يهمّنا هو الإشارة إلى أن هذه المعطيات بمجملها تؤكّد أن مشروع لبنان الوطن ذي الأكثرية المسيحية كان من ثوابت أفكار الرئيس إميل إده وأهدافه.

ولا يشكّك أستاذنا الدكتور عبدالرؤوف سنّو في نسبة الوثيقة إلى إدّة ولا في مطالبته بوطن مسيحي مستقرّ ومتوازن فيقول:«إن الخوف من الزيادة الديموغرافية للمسلمين، جعل إميل إدّه يطالب في أثناء الانتداب الفرنسي على البلاد، بلبنان مسيحي صغير مفصول عن سوريا، على أن يضاف إليه البقاع وعكار وبيروت، خشية أن يتحوّل لبنان الكبير إلى دولة إسلامية، باعتبار أن إنشاء لبنان مسيحي هو الذي يؤمن للمسيحيين توازناً استراتيجياً مع المحيط العربي-الإسلامي وخصوصاً مع سوريا»[2].

1 - مكاوي، م. س، ص 180. نقلاً وثائق وزارة الخارجية المصرية، أرشيف الدولة (سورية) محفظة 23، ملف 1/7/288، ج2 من الوزير المفوض إلى وزير الخارجية 1946/11/1.

2 - سنّو، لبنان الطوائف، م. س، ص 44.

قراءة نقدية لوثيقة إدّه

بعد هذا العرض المطوّل لظروف وثيقة إده، وللأدلة على صحّة نسبتها. بقي أن نتناولها في قراءة نقدية لأبرز طروحاتها.

تقاطع المصالح اللبنانية والفرنسية

تبدأ الوثيقة بعرض مفصّل واضح للمصالح الفرنسية في لبنان والمشرق. فيلوح لقرّائها، وللوهلة الولى، أن الكاتب ينظر أولاً وأساساً إلى مصلحة فرنسا لا إلى مصلحة لبنان. فهل كان الرئيس اللبناني الأسبق وعميد الكتلة الوطنية فرنسياً أكثر ممّا هو لبناني كما اتهمه أخصامه؟!

لا يغربنّ عن بالنا هنا أن الرئيس إدّه يتوجّه أساساً وحصراً إلى المسؤولين الفرنسيين، وينتظر منهم تحرّكاً يئس من حصوله من الجانب اللبناني. فطبيعي أن يثير فيهم الحماس لمشروعه واقتراحه إنطلاقاً من مصالحهم لا من مصلحة لبنان. ولا مشكلة عند "عميد الكتلة" في ذلك فالمصلحتان "اللبنانية والفرنسية" تتقاطعان وتتلاقيان تماماً في عرفه ومفهومه. فمن ثوابت السياسة الإدّية أن مصلحة لبنان تكمن دوماً في التحالف مع فرنسا وطلب حمايتها. ولبنان هو المرصد الفرنسي الوحيد للعالمين العربي والإسلامي كما يوضح إده في وثيقته. وهو يعتبر وطنه الحجر الأساسي على رقعة الشطرنج الفرنسية، وينبّه المسؤولين الفرنسيين إلى الأهمية المركزية لموقع الوطن الصغير. أما لبنانية الرئيس إدّه، فلا مجال البتّة للتشكيك فيها أو المزايدة عليها، وإن لم يرَ قطّ تناقضاً بينها وبين مصلحة فرنسا. يروي

وليد عوض عن حبّ إده للبنان وإيمانه بالدور الفرنسي في آن: «كان إميل إدّه يتصرّف على أساس أن التعاون مع الفرنسيين وسيلة وليس غاية (...) وهكذا كان إيمان أولاده الثلاثة: ريمون المولود 1913 وأندريه المولودة 1917 وبيار المولود 1921. وكان يقول لهم إن في بيتهم وبيوت كل الناس مولوداً آخر يساويهم أهمّية، بل يتقدّمهم، إسمه لبنان الجديد الذي كانت ولادته عسيرة جداً، وتحتاج إلى عملية قيصرية تجنّدت لها قوى كثيرة (...) وبلغ من خوف إميل إده على هذا المولود أنه تحالف مع هاجس لازمه طوال حياته، وهو أن فرنسا التي كان لها فضل إبراز هذا المولود إلى النور، هي بمثابة الأمّ الحنون القادرة على حمايته في كل لحظة من الأخطار عثمانية كانت ... أم عربية»[1].

ماذا الآن عن طروحات إده في الوثيقة؟!

خسارة الجغرافيا لكسب الديموغرافيا

إنها تندرج في سياق ما سبق وصرّح به للمفوّض السامي هنري بونسو: لبنان المقتصر على الحدود الضرورية والذي يحوي أكثرية فعلية من المسيحيين.

ويبدو إده عملانياً براغماتياً. فهو يتمسّك ببيروت والبقاع لضرورات المنفذ الساحلي البحري والسهل الداخلي لبقاء لبنان واستمراره. فمأساة الحرب الكونية ومجاعتها وحصار الجبل لما تزل ماثلة في وجدانه.

---

1 - عوض، م. س، ص 144-145.

ولا يتناول مبضعه سوى منطقتين. وهنا تبدو المسألة السكّانية/الديموغرافية همّه الأول وهاجسه. لا حياة للبنان ولا بقاء إذا فقد طابعه المسيحي: وهذا ما يبحث عنه العميد إده في عمليات البتر التي يقترح.

ويستوقفنا طرحه بشأن طرابلس المرفأ الساحلي ذي الغالبية السنّية. فهو لا يدعو إلى إلحاقها كلّياً بسوريا، بل إلى أن تكون مدينة حرّة مفتوحة. يستفيد لبنان من سكّانها المسيحيين فيعطيهم جنسيته، وتستفيد سوريا منها كمرفأ ساحلي لها. ويتخلّص لبنان بعملية البتر الأولى هذه من 55 ألف مسلم. لا شكّ أن أصولية طرابلس التي كانت، ولا تزال إلى اليوم، تصف نفسها بـ "قلعة المسلمين" كانت تخيف عميد الكتلة وتثير هواجسه بشأن مستقبل الوطن الصغير، فأراد أن يخلّصه من هذا العبء الأصولي، مع الحفاظ على ما يمكن أن تحمل المدينة الشمالية له من فوائد.

لا شك أن إده هنا متأثر بأفكار دو كيه ودوجوفنيل، وقد وعى مثلهما أن عاصمة الشمال عبء على لبنان تفوق تبعاته فوائده. وفي هذا الموقف من طرابلس يختلف إده مع سائر الموارنة ولاسيما البطرك والإكليروس الذين استمرّوا متشبّثين بتبعيّة المدينة للبنان.

أما المنطقة الثانية التي يطالها مشرط إده، فهو لا يختلف في موقفه منها عن غالبية الموارنة. سبق وذكرنا أنه لم تكن لهؤلاء رغبة في ضمّ جنوب لبنان إلى الكيان المزمع إقامته. وقد عبّر

المطران عبدالله خوري رئيس الوفد اللبناني الثالث عن ذلك بقوله: «إننا لا حاجة لنا بجنوبي لبنان مثل صور وصيدا وجبل عامل، بما أن الشعب هناك غير مسيحي، والبلاد جبلية لا نفع لنا منها إذا كانوا ينوون إعطاءنا إياها»[1].

ولم يكن دو كيه هو الآخر متحمّساً لضمّ الجنوب إلى لبنان: «فاقترح في بادئ الأمر، إقامة دولة للمتاولة، مستقلّة على غرار الدويلات السورية التي أنشئت أواخر العام 1920»[2].

ولكن دو كيه وسائر المسؤولين الفرنسيين: «كانوا في الوقت عينه يعون التعقيدات على الحدود مع الانتداب البريطاني ومع الصهيونيين»[3]. وهذا ما حدا بالانتداب إلى ضمّ جبل عامل وصور وصيدا إلى لبنان الكبير كما سبق وأسلفنا.

كان الجنوب بنظر إميل إده وغيره من الساسة ورجال الدين المسيحيين ملحقاً عديم الفائدة، عبء احتماله في الدولة أكثر من محمولاته إليها»[4].

ويتحدّث إده في وثيقته إحصائياً وبالأرقام عن هذا العبء. فهو يضمّ 140 ألف مسلم شيعي وسني، أي أكثر من ثلث سكان لبنان الكبير المسلمين. إنه فعلاً قنبلة موقوته تهدّد بانفجار سكّاني. وهذا ما حصل؛ هذا بالإضافة إلى العبء الجغرافي/الستراتيجي بمجاورته لفلسطين والمستعمرات

---

1 - خوري، مفكرة، م. س، ص 53.
2 - الشلبي، م. س، ص 191.
3 - الشلبي، م. س، ص 192.
4 - الشلبي، م. س، ص 197.

الصهيونية التي كانت قد ازدهرت يومها. أراد إده إذاً أن ينجّي لبنان من خطرين رآهما داهمين: أكثرية سنّية وأكثرية شيعية ستقلبان هويّته وتُغيّرانها. وهذا ما حدث. ومنذ ذاك الزمن وإلى اليوم لا تزال هاتان المنطقتان (طرابلس والجنوب) بؤرتا الاضطراب الأساسية في لبنان، وأكثر الأحداث والحروب اشتعلت شرارتها من واحدة منهما. فهل كان إميل إده رؤيوياً يحدس بما سيحدث؟!

لعلّ أبرز ما يمكن أن نقيّم به وثيقة إدّه وطروحاته قول المثل المأثور:«الرجل الحكيم هو مَن يقبل أن يخسر نصف ثروته كي لا يخسرها كلّها».

لقد قبل إدّه بمبدأ خسارة الأرض، في سبيل كسب الديموغرافيا وإنقاذ لبنان في طابعه المسيحي وهويّته، في حين رفض الحويّك ذلك، ودعا إلى مقايضة في السكان بين لبنان وسوريا، ومعادلته كانت الحفاظ على المكاسب الجغرافية إلى جانب إعادة المعادلة الديموغرافية إلى ما كانت عليه في لبنان الصغير.

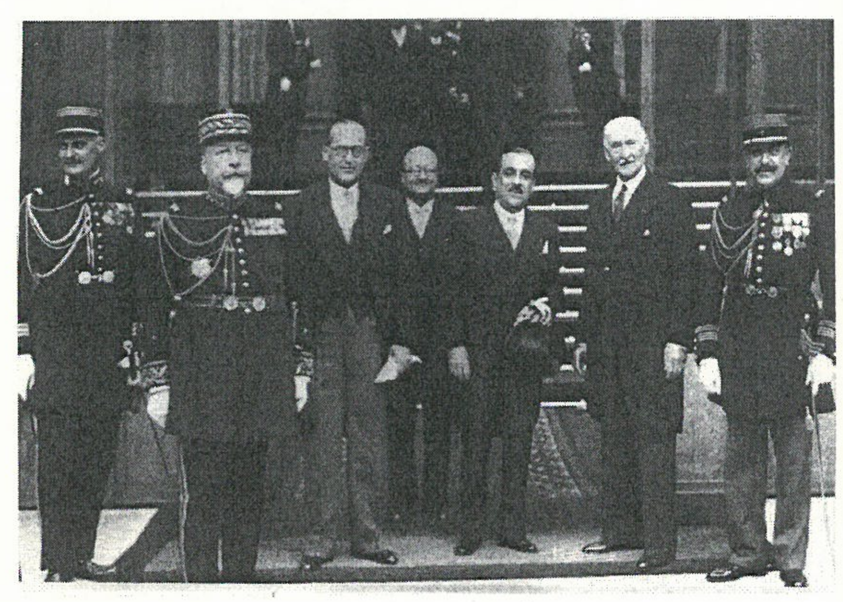
قَبِل إدّه أن يدفع الخمسة ليربح العشرة كما يقول المثل اللبناني، في حين رفض الحويك أن يدفع هذا الثمن، فأيّهما كان الأكثر حنكة وحكمة وبعد نظر؟!.

يبقى أن وثيقة إدّه جاءت صرخة في واد، ولم تنفع في تغيير مسار الأحداث ولا حتى التأثير عليها. فلا الموارنة ورؤساؤهم كانوا في وارد الإصغاء إلى نصائحه، ولا الفرنسيون كانوا بقادرين

لوحدهم على تنفيذ رغباته ومقترحاته.

وتؤكّد لنا الوثيقة أن بعض زعماء الموارنة لم يجاروا بطريركهم في طروحاته وقناعاته. وشعروا بما لم يشعر هو به من خطر داهم. ولكنهم لم يجرؤوا على التعبير عن مخاوفهم صراحة خشية أن يفقدوا الدعم الماروني الشعبي.

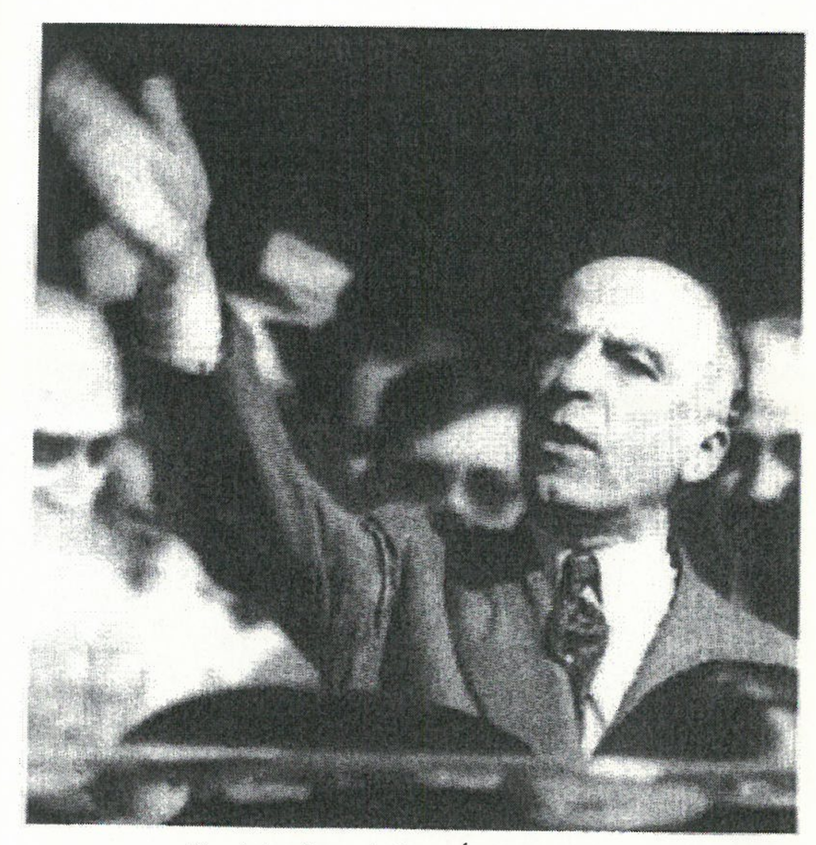
الشيخ يوسف الجميل والرئيس إميل إدّه وقبلهما سليمان البستاني، طيور غرّدت خارج السرب الماروني، ولكن لم يكن من شأنها تغيير مساره.



الرئيس إميل إدّه وحبيب أبو شهلا في قصر الإليزيه – تموز 1938

خاتمة

نظرة إلى يومنا
على ضوء الأمس



يوسف السودا، من أبرز الساعين إلى لبنان الكبير

مواضيع الخاتمة:

السنّة والروم: تقاطع مواقف ومصالح

- الرؤية الواضحة عند الموارنة جعلتهم يكسبون

- التماهي بين الهويّتين اللبنانية والمارونية

تقديس الأشخاص والحدود مصيبة

شراهة الموارنة أوقعتهم في عسر هضم

مصيبة الموارنة: ذهنية الاستقواء وفقدان التضامن

زوال المسيحيين مصيبة للمسلمين

لبنان وخطر العرقنة

ماذا بعد هذه الجولة الطويلة في الماضي وخفاياه ووثائقه وأحداثه ... وحيثياته؟!

لعلّ أوّل أمر يفرض نفسه هو الإضاءة على الحاضر مستعينين بما سلّطنا من أضواء على الماضي. وهذا ما سننهي به هذه الخاتمة.

السنّة والروم: تقاطع مواقف ومصالح

سبق وذكرنا أننا لا نسعى في هذا البحث إلى دراسة نشأة الكيان الحالي: لبنان الكبير من كافة الجوانب، وعرض كل المواقف منه وتغيّرها وتبدّلها مع الزمن. وإنما نقصر اهتمامنا في التركيز على مواقف فئتين ومشاريعهما وطموحاتهما وهما الموارنة والروم الأرثوذكس. ورأينا أن الأخيرين لم يكونوا الوحيدين مِمَّن قال: لبنان خطأ تاريخي، وإن كانوا من أوائل مَن أطلق هذا الشعار. فرأس حربة معارضة لبنان الكبير، بل ورفضه، كان سنّة المدن الساحليّة وسائر المناطق المضمومة. وفي ذلك يقول الباحث المؤرّخ د. كمال ديب:«كان إعلان لبنان الكبير مناسبة سعيدة للموارنة، ويوماً مشؤوماً للمسلمين»[1].

ويردف معقّباً، ومشيراً إلى موقع الروم ودورهم في ذلك:

---

1 - ديب، هذا الجسر، م.س، ص 91.

«السنّة والأرثوذكس كانوا الخاسر الأكبر في لبنان الكبير»[1].

وكانت المعارضة السنّية الشرسة للكيان الناشئ تلقى غالباً دعم الروم وتعاطفهم، ويلخّص المؤرّخ كمال الصليبي هذا الموقف بقوله:«فما أن أعلن لبنان الكبير حتى هبّ المسلمون {السنة} في بيروت والبقاع ومناطق طرابلس وصيدا وصور إلى المعارضة، فأعلنوا مقاومتهم وطالبوا بإلحاق مناطقهم بسوريا. ووجد المسلمون، في موقفهم هذا بعض التأييد من الروم الأرثوذكس»[2] ويتحدّث المؤرّخ مائير زامير عن تجمّعات مبعثرة {أي في مناطق متعدّدة} مثل الروم الأرثوذكس الذين لم يطالبوا بحق المصير، بل أرادوا تأمين مراكزهم ومصالحهم في أي دولة عربية مستقبلية يسيطر عليها السنّة»[3].

وبقي الكثيرون من الروم يؤيّدون التيارات الوحدوية مع سوريا، فعندما انعقد مؤتمر الساحل الثاني 1936 بدعوة من سليم علي سلام وطالب مجدّداً بالوحدة مع سوريا شارك فيه الروم الأرثوذكس بقوّة[4]. ولسنا في هذه الخاتمة في وارد تكرار ما سبق وعرضنا من مواقف، ونكتفي بهذه الإلماعات على سبيل التذكير. ولعلّ السؤال البديهي الأوّل الذي يخطر على البال: في ظلّ هذه المعارضة الشرسة والمتعدّدة الأطراف، كيف أتيح للبنان الكبير أن ينشأ أولاً، وأن يستمرّ، وإلى اليوم، تالياً؟!

---

1 - م.ن.

2 - الصليبي، تاريخ لبنان، م.س، ص 2014.

3- Zamir, formation, op. cit, p 8.

4 - ديب، م.س، ص 96.

لا بدّ أن نتذكّر هنا أن لبنان الكبير أعلن بعد أسابيع قليلة من معركة ميسلون واندحار الجيش فيصل وسقوط حكومته، فعامل الترضية فيه للحلفاء (الموارنة) كان واضحاً.

الرؤية الواضحة عند الموارنة جعلتهم يكسبون

وفي ذلك يقول المؤرّخ مائير زامير، «التنافس الذي ساد بعد الحرب بين فرنسا من جهة، وإنكلترا والحركة القومية بقيادة فيصل من جهة أخرى، ساهم في تحسين ظروف أتاحت للموارنة تحقيق أهدافهم. فلكي تحمي فرنسا مصالحها في المنطقة، والتي هدّدتها بريطانيا والحركة القومية العربية، كانت مجبرة على الاعتماد على المسيحيين. واستغلّ الموارنة هذا الأمر إلى أقصى حدّ»[1]. ولكن ذلك لم يكن العامل الوحيد، ولا الأساسي. فالرؤية الواضحة عند الموارنة، مقابل اللبس والارتباك في رؤى الآخرين لعبت دوراً مهمّاً لصالحهم. يقول المؤرّخ الصليبي في ذلك:«واتخذ الفرنسيون في أراضي انتدابهم المواقف نفسها التي اتّخذها البريطانيون. فقد كانوا مستعدّين للإصغاء إلى مطالب ملموسة تقدّمها أطراف لها رؤية سياسية واضحة وتعرف ما تريد، ولكن لم يكن لديهم صبر على غير هذا النوع من المطالب، مهما بلغت حدّته. وكانت فرنسا ترى أن الموارنة وحدهم، من بين أهالي المناطق الخاضعة لانتدابهم، هم الفريق الذي يعرف تماماً ما يريد. ولذلك أبدى الفرنسيون الاستعداد الكامل

1- Zamir, op.Cit, n. 217.

للتجاوب مع مطالبهم، وليس مع مطالب غيرهم»[1].

ومقولة الصليبي هذه تثبتها الوثائق التي عرضنا بعضها، وسننقل نصوص عدد منها في كتابنا التالي: ولادة وطن. ولكن الوثائق المذكورة تشترط أن تكون الرؤية الواضحة متلازمة ومتوافقة مع المصالح الفرنسية. لذا يمكننا أن نضيف على ما قال كمال الصليبي: لقد وجد الفرنسيون أن الموارنة من بين أهالي المناطق الخاضعة لهم، هم الفريق الذي يعرف ماذا يريد، ولا يتنافى مطلبه مع مصالحهم. لذلك أبدوا الاستعداد للتجاوب معهم لا مع غيرهم. ومطلب الموارنة كان إنشاء لبنان الكبير وجعلهم الفريق الأكثر نفوذاً وسيطرة في هذه الدولة المنفصلة والمستقلّة تماماً عن جوارها.

هل كان هذا اللبنان خياراً صائباً؟! ولِمَ استشرسوا واستمرّوا متشبّثين بهذا الخيار؟! أسئلة تبدو بديهية، وتصعب الإجابة عنها، ولا سيما عن السؤال الأول من دون قراءة الماضي على ضوء الحاضر، أو أقلّة ما استجدّ منذ إعلان لبنان الكبير من أحداث.

ولنبدأ بمحاولة الإجابة عن السؤال الثاني: لِمَ تمسّك الموارنة، وعلى رأسهم بطريركهم الحويك، بخيار لبنان الكبير وساروا فيه إلى النهاية، ولم يتراجعوا رغم ما بدى لاحقاً من عدم تجانس في سكّان هذا الكيان يؤشر إلى انفجار؟!

كان الحويك يستند إلى إرث ماروني في النظر إلى لبنان

1 - الصليبي، بيت بمنازل، م.ص، ص42.

وحدوده عبّر عنه معلّمه وسلفه البطريرك بولس مسعد، كما سبق وذكرنا (فصل وادي النصارى). وهذا الإرث ينظر إلى الإمارة الشهابية في تحوّلها إلى المارونية مع بشير الكبير وسلفه الأمير يوسف كمثال ونموذج للبنان الواجب السعي إليه وإعادته إلى حدوده. ولا نغالي! إذا قلنا إن الحويك كان أسير هذه النظرة وهي التي جعلته المؤسّس الحقيقي والفعلي للبنان الكبير. وبقي أسيراً لها بعد إعلان الكيان، رغم ما بدا من صعوبات كان هذا اللبنان يتعثر أمامها ويعجز عن اجتيازها. ويتحدّث مائير زامير عن «الإيمان الماروني العميق الجذور والصوفي بأن هذه الأراضي (لبنان الكبير) هي الحدود التاريخية والطبيعية لبلادهم»[1].

التماهي بين الهويّتين اللبنانية والمارونية

ولا نراه يبتعد عن واقع الأمور في مقولته هذه. وثمّة حقيقة لا يمكن أن نغفلها هنا. وهي أن الموارنة، ومن بين جميع الطوائف الأخرى في لبنان والتي يصل عددها إلى 18 مجموعة دينيّة، هم الوحيدون الذين ليس لهم وجود حقيقي إلاّ في لبنان. فكلّ الجماعات الأخرى لها إخوة وأشقاء وامتدادات في البلدان المحيطة: سوريا وفلسطين والعراق والأردن إلاّ الموارنة. ومن هنا يمكن فهم مقولتهم أن لبنان هو بلدهم أوّلاً.

وهذا الإيمان الصوفي بلبنان بهذه الحدود كان عاملاً أساسياً

1- Zamir, op. Cit. p. 119.

في نشأة القومية المارونية. والقومية اللبنانية:«جاءت أساساً كتطوّر للقوميّة المارونيّة، كذلك جاء انبعاث لبنان الحديث تتويجاً لطموحات الموارنة منذ أجيال طويلة. لذلك يبدو من المستحيل فصل تاريخ الموارنة عن تاريخ لبنان»[1].

هذا الاندماج بل وحتى التماهي بين الهوية المارونية والهوية اللبنانية، وتاريخ الموارنة وتاريخ لبنان، حقيقة لا يمكن التغاضي عنها. وتبقى ثابتة أقلّه لحقبة الثلاثينات من القرن الماضي، وتوثقها المقولة الفرنسية الرائجة أيام الانتداب:«لولا الموارنة، لما كان هناك من سبب لا جغرافي ولا عرقي ولا سياسي، لأن يكون لبنان دولة مستقلّة عن البلدان السورية والفلسطينية المجاورة له»[2].

ويبقى السؤال الأول يفرض نفسه بإلحاح: هل كان لبنان الكبير خياراً صائباً؟!

لا شك أن من شأن الجواب أن يثير الكثير من الحساسيات، وليس آخرها أو أقلّها شأناً ما يمكن أن يستنتج من الجواب: مَن كان من المسيحيين محقّاً وعلى صواب: الموارنة أم الروم؟!

وبغضّ النظر عن هذه الحساسية ومثيلاتها، فالواقعية تفرض علينا أن نقول: لا مش ماشي الحال. ولبنان الكبير لم يكن الخيار الصائب والمناسب والصحيح. ولكن الواقعية عينها تقول:كانت فرصة وضاعت، وما كان متاحاً للمسيحيين يومها

1- Ibid, p 216.

2 - الرياشي، الأيام، م.س، ص 484.

من خيارات ليس اليوم بمتاح. فحتى لبنان الصغير لم يعد لهم، وقد باعوا أكثر أراضيهم وهاجروا... وهربوا. وانقساماتهم أدخلتهم في المأزق الكبير.

تسعون سنة من الصراعات والحرب والأزمات إلخ...

تؤكّد أن لبنان الكبير لم يكن خياراً مناسباً. ولكنه اليوم أمراً واقعاً فرضه المسيحيّون لا سيما الموارنة واستشرسوا في الدفاع عنه. وها هم اليوم يودّون التفلّت منه ولا يقدرون.

ويلوح للباحث أن استراتيجية الموارنة تركّزت يومها (بعد الحرب الكونيّة) على الانقضاض على الفرصة المتاحة وضمّ أكثر ما يمكن من أراضٍ ومدن. فكان الهاجس إعلان لبنان الكبير، وبعدها تحوّل الهاجس إلى تأمين أكثرية مسيحية في هذا اللبنان المعلن. وهذا ما نراه في السعي لاستقبال الأرمن وتجنيسهم[1] وفي المطالبة الدائمة بإدخال المغتربين في الإحصاء وتعداد سكان لبنان.

وكذلك في مطالبة البطريرك الحويك العام 1926 بتبادل سكّاني بين لبنان وسوريا يرحّل قسماً من الدروز والسنّة إلى سوريا ويستقدم مكانهم بعضاً من المسيحيين السوريين كما سبق وعرضنا في باب4/فصل4.

---

1 - رحّب الموارنة بالقرار الفرنسي القاضي باستقبال أعداد كبيرة من اللاجئين الأرمن في لبنان، بل وسعوا اليه. وقد هرب هؤلاء من الاضطهاد الذي تعرّضوا اليه في تركيا ‘إثر الانتصارات الباهرة التي حققها كمال أتاتورك (1919-1923). وفي سنة 1922 قدّر عدد اللاجئين الأرمن في لبنان بنحو 33 ألفاً.منحوا الجنسية اللبنانية (هاشم، الانتداب، م.س، ص 310).

ولكن هل كان الموارنة واعين لِما يترتّب على خطف المدن الساحلية، لا سيما منها طرابلس، من نتائج وتداعيات؟! نشعر عند الحويك، وكأن هذه المدن وسائر الأراضي المضمومة مكتسبات وملك لا يمكن التنازل عنها. ولا نلمح عنده فهماً واقعياً لما يمكن أن يترتّب على الاحتفاظ بهذه المدن والمناطق من نتائج تقلب معادلة لبنان/ المتصرّفية رأساً على عقب.

فهل في الأمر قصر نظر، كما اتّهمه روبير دوكيه ممّا سبق وأسلفنا؟!

تثبت الوثائق الفرنسية العائدة إلى العقد الأول من عهد الانتداب (1920- 1930) أن السعي الفرنسي إلى إعادة بعض المدن ولا سيما طرابلس إلى سوريا لم تكن الرغبة في إرضاء السوريين دافعه الأول. بل نشأ عن قناعة فعلية في أن يبقى لبنان ذا أكثرية مسيحية واضحة وغير معرّضة للتغيّر والتبدّل في المدى المنظور.

تقديس الأشخاص والحدود مصيبة

فهل استشعر الموارنة بهذا الخطر الحقيقي والداهم؟! لا يبدو أن الحويك أحسّ بالخطر، أما إميل إدّه فبلى، وموقفه في وثيقته 1932 علامة فارقة: لبنان لا يمكن أن يستمرّ بهذه التركيبة، وهذه الحدود دون تعديل. أما بشارة الخوري فراهن على نقيض ذلك: التقرّب من العرب والميثاق الوطني مع مَن كان سابقاً من دعاة الوحدة مع سوريا. أعن قناعة فعل ذلك؟!، أم عن مصلحة وللوصول إلى الرئاسة؟! الجواب عن هذا السؤال

لا يتعلّق أمره بموضوعنا. ولكننا نستطيع أن نجزم أن رهانه هو وشقيق زوجته ميشال شيحا أن الزمن كفيل بخلق هوية لبنانية جديدة لكل الطوائف، تقوم على العيش المشترك في دولة تعدّدية، ومع الأسف الشديد، قد أخفق. تبقى مسألة لا مفرّ من ذكرها: إنها مشكلة قضية التقديس: تقديس الأشخاص والأشياء والأفكار. ولسنا في هذا البحث في وارد تقديس أية شخصية دينية أو سياسية ولا التبخير لها. فلكلّ نجاحاته وعثراته. ولعلّ عناد الحويك وتمسّكه بما كسب من أراض هما عثرته الكبرى. وكما سبق وذكرنا فقد يكون هذا البطريرك العظيم رجلاً بارّاً بل وقدّيساً، ولكنه لم يكن معصوماً عن الخطأ ولا سيما في المجال السياسي والخيارات الكبرى.

تقديس الأشخاص قلنا... والأشياء، فما أن أعلنت حدود لبنان الكبير حتى غدت أمراً مقدّساً لا يجوز المساس به... ولا التعدّي على حبة تراب من الكيان المركّب.

أفلم يدفع اللاحقون، وغالياً، ثمن تعنّت السابقين وتشبّثهم في ما تصوّروا من حدود... وحدّدوا ؟!

شراهة الموارنة أوقعتهم في عسر هضم

وهل نستطيع التغاضي عن الحديث عن جشع ماروني وشراهة سبّبا سوء هضم؟! فهل استطاعوا هضم هذه المدن التي خطفت؟ وبالتالي استيعاب أكثريّتها السكّانية المغايرة وذات التوجّهات المختلفة بل والمناقضة؟!

لقد ابتلعوا كل ما تيسّر وأتيح لهم من مدن، فوقعوا فريسة

عسر الهضم الذي لم تتأخر عوارضه عن الظهور. والمثل اللبناني القديم يقول: إذا الأكل مش إلك، بطنك مش إلك ؟! وإذا أتيح لك أن تلتهم كل هذه الكمّية، أفلا تحسب حساب القدرة على الهضم والاستيعاب... وبالتالي خطر البطنة؟! ليتهم ذكروا اثنتين من الوصايا العشر التي يردّدونها كل يوم: لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته مقتنى غيرك.

وفي نظر المؤرّخ زامير، فمحاولة إميل إده تصغير لبنان كانت فرصة ضائعة، ولو نجحت لجنّبت لبنان الكثير من الأزمات والويلات.

«ويجب على المسيحيين اللبنانيين الندم لمقاومتهم محاولات الفرنسيين تقليص حدود لبنان، واقتطاع الأجزاء ذات الأكثرية المسلمة منه. وكان يجب عليهم إنشاء كيان أصغر مساحة ذي أكثرية مسيحية مطلقة، والاستغناء عن طرابلس وعكّار وأجزاء كبيرة من البقاع، هكذا دولة كان يمكن لها الصمود في وجه المعارضة الإسلامية. ولكن ظروفاً تاريخية ونفسية واقتصادية مع عوامل الطمع والشعور المبالغ به بالثقة بالنفس أدّت بالموارنة وقيادتهم الكنسية للمطالبة بحدود أكبر. والنتيجة كانت مجتمعاً بالغ التقسيم والشرذمة، أحاط بالخطر مكتسبات الموارنة القومية»[1].

أما مقولة أن الموارنة لم يردوا يومها كياناً مسيحيّاً يكون معادياً لمحيطه، فهي، على الأرجح، غير صحيحة، ومحاولة

1- Zamir. Op cit, p 218- 219.

واضحة لإخفاء الحسرة وتمويه الندم، وهي عملية إسقاط للحاضر على الماضي وقراءة استذكارية retrospective له. ويؤكّد ذلك ما كتبه المطران عبدالله خوري أقرب المقرّبين للحويك ورئيس الوفد الثالث:«لقد أنشئ لبنان بحدوده الحاضرة بموافقة فرنسا، على أن يكون وطناً للمسيحيين اللبنانيين، وأن يصبح ملجأ لكل المسيحيين في الأراضي المجاورة إذا ما اضطهدهم جيرانهم المسلمون. ومن المؤكّد أن التطوّرات الحالية دليل على وجود تطلّعات لإلغاء طبيعة لبنان، آخر ترس من تروس النصرانية في المشرق، ووضعه تحت نير الإسلام»[1].

ولكن فشل المشروع الماروني لا يعود فقط إلى خطأ في الخيار الأساسي، بل ثمّة عوامل أخرى ساهمت في إفشاله، وبالتالي دخول لبنان دوّامة العنف. وسنذكر منها إثنين:

مصيبة الموارنة: ذهنية الاستقواء وفقدان التضامن

1 - ذهنية الاحتماء بفرنسا والاستقواء بها مثلما كان السنة يحتمون بالدولة العثمانية. ونعود هنا إلى ما سبق وأوردناه عن فؤاد إفرام البستاني (باب2/فصل1) من أن البطريرك الحويك:«كان واثقاً من ديمومة صداقة فرنسا وحمايتها»[2].

وذهنية الاستقواء أدمن عليها كل الفرقاء في لبنان وباتت جزءاً لا يتجزأ من شخصيتهم الأساسية personnallité de base. فالروم ضاعوا عند سقوط الحكم الفيصلي بديلاً عن

1- Zamir. Op cit, p 218- 219.

2- Boustani, op. it, p.36.

العثمانيين المندحرين.

وذهنية الاستقواء هذه جعلت هذا البلد لا يعيش بسلام إلاّ إذا وقع تحت الهيمنة أو الانتداب.فأكثر الحقبات هدوءاً كانت فترة الانتداب الفرنسي (1918-1943) وللأسف حقبة الهيمنة السورية (1990- 2005). وكأن اللبنانيين بحاجة دائمة إلى من يسوس لهم أمورهم ويملي عليهم ما يفعلون، ويحكم بينهم ويحكمهم.

وقد أثبتت الأحداث والوقائع التاريخية، ومنذ بداية القرن العشرين، أن مقولة الغرب الحامي لمسيحيي المشرق مجرّد وهم. إذ سبق للغرب أن حرّض الأرمن المسيحيين للانقضاض على تركيا أثناء الحرب الكونيّة وبعدها، فوقعت أكبر مجزرة بحقهم وبحق السريان في تاريخ المنطقة، ولم يحرك الغرب ساكناً. وكانت نتيجة الاحتلال الأميركي للعراق كارثة على المسيحيين فيه وما تعرّضوا له من مذابح وتهجير لا يزال ماثلاً في الأذهان، وكل ذلك واجهه المحتلّ الغربي بلا مبالاة تامّة.

فهل وعى المسيحيون عقم ذهنية الاستقواء والاحتماء؟!.

2 - والعامل الثاني لا يقلّ خطراً عن الأوّل بل يفوقه. ويرتبط به، فقد برهن المسيحيون وباستمرار ومنذ نحو قرن أنهم لم يعرفوا أن يحكموا أنفسهم. والحدّ الأدنى من التضامن مفقود بينهم. وعبّر البطريرك عريضة، خليفة الحويك عن هذه الحقيقة التاريخية باعترافه للمفوّض السامي هنري بونسو:

"المرض فينا"[1]. وللعميد ريمون إدّه ابن الرئيس إميل إدّه مقولة شهيرة تؤكّد أن الزعماء الموارنة خرّبوا لبنان. ويضيف:«شارل حلو جاء باتفاق القاهرة وبالتالي بالفلسطيني وبيار الجميل بالسوري وكميل شمعون بالإسرائيلي»[2] إنها سياسة الاستقواء عينها.

الحدّ الأدنى من التضامن مفقود عند المسيحيين قلنا، والبنى التحتية للمجتمع من طبابة وتدريس وغيرها لا تؤمّن إلاّ بأغلى الأسعار... فيطفش المواطن ويهاجر. وباختصار «التلم الأعوج من الثور الكبير» يقول المثل اللبناني. إنهم الزعماء من سياسيين وروحيين فكلاهما قاما بدور كارثي.

هذه العوامل وغيرها تجعل الوجود المسيحي في المشرق لا سيما في لبنان مهدّداً، وللمرّة الأولى في التاريخ، بخطر زوال وأمّحاء جدّي.

زوال المسيحيين مصيبة للمسلمين

وكان العميد ريمون إدّه قد تنبّأ وقبل وفاته (أيار 2000): «بعد عشرين سنة ماراح يبقى ولا مسيحي بلبنان»[3].

ويتحدّث بعض الباحثين في الديموغرافيا (علم السكان) عن احتمال الأمحّاء التام للوجود المسيحي في المشرق بحلول العام

1 - حلاق، تاريخ لبنان، م.س، ص 137.

2 - ديب، م.س، ص 469-471.

3 - ديب، م.س، ص 8.

2050 بفعل الهجرة والاضطهاد وتدنّي معدّلات الولادة وغيرها[1].

ولكن ما لا يعيه المسلمون، ولا الغرب، تماماً هو أن زوال المسيحيين في الشرق خسارة كبرى للعالم العربي وللغرب معاً، فطالما كانوا همزة وصل بين الشرق والغرب، وبين العالمين المسيحي والاسلامي. وغياب المسيحيين عن لبنان وسوريا والعراق يفقد الإسلام صورته المنفتحة على العالم، ويشوّه صورة الغرب الذي يصطدم بالإسلام في الشرق وعلى أرضه ولا يكترث بالمقابل بالوجود المسيحي في بقعة نشأت فيها المسيحية. ولم يكن المسيحيون همزة وصل بين الشرق والغرب فحسب، بل وبين المسلمين أنفسهم، ولكن الخطر اليوم يكمن في أنهم يتحوّلون بإرادتهم ومن دونها إلى وقود للصدام السنّي- الشيعي الشرس والمتمادي.

ومهما قيل عن الموارنة وتفرنسهم وتغرّبهم، فقد أثبتوا عبر تاريخهم أنهم عاشوا بسلام مع كل المجموعات الأخرى. يشهد د. كمال ديب:«وحتى داخل لبنان مثّل المسيحيون نسغ الجغرافية في عروق البلاد، فهم، وخاصة الموارنة، كانوا منتشرين في سائر المحافظات، وفي قرى وبلدات مختلطة مع الشيعة والسنة والدروز من عكار شمالاً إلى عين إبل جنوباً. في حين يصعب تسمية قرية يعيش فيها سنّة وشيعة ودروز جنباً إلى جنب»[2].

1 - م.ن، ص 558.

2 - ديب، م.س، ص410.

وهذا ما جعل الباحث وضّاح شرارة يصف الانتشار المسيحي في أرجاء لبنان بأنه يوضح صفة لبنان كموزاييك طوائف يمثل فيه المسيحيون الإسمنت الذي يلصق الكل»[1].

فإذا زال المسيحيون وغادروا ماذا يحصل لهذا الموزاييك؟! أفلا يتفاقم الصراع المثلّث السنّي - الشيعي- الدرزي.

لقد نجح المسيحيون ولا سيما الموارنة، في أن يكونوا بمثابة الملح الذي يتحدّث عنه معلّمهم:«أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فأي شي يملّحه».

وكانوا بمثابة منطقة عازلة zone tampon وصمّام أمان حتى بين الجماعات الإسلامية نفسها.

في تقرير رفعه قائد جيوش الشرق الفرنسي الجنرال هاملان Hamlin إلى رئيس الوزراء الفرنسي ووزيرَي الحربية والخارجية (1919/11/14)، ورد عن السنة والشيعة في لبنان «ويعتبر المتاولة أنفسهم أنهم المسلمون الحقيقيون، وهم يبغضون السنّة وهؤلاء يحتقرون المتاولة، ويفضّلون التعاطي مع المسيحيين على التعاطى معهم»[2].

لبنان وخطر العرقنة

ألا يثبت هذا ما نقول؟! أفلم تزدَد الحال الذي تحدث عنها الجنرال هاملان اليوم تفاقماً؟! ولعلّ في تعاليم الإنجيل في التشديد على حب الصديق والعدو في آن ما ساعد المسيحيين

1 - م.ن.

2 - كوثراني، م.س، ص202.

والموارنة على لعب هذا الدور والنجاح فيه.

وإذا كان المسلمون قد اعتبروا، ومنذ ما بعد الحرب الكونية، أن الانضمام إلى لبنان شرّ وشؤم، فقد كان شرّاً حمل إليهم الخير، "ولا تكرهوا شراً علّه خير لكم" يقول المثل العربي «فلو اتّحد المسلمون مع غير لبنان لخسروا، إذا لا يجدون خارج لبنان الازدهار الذي وجدوه في لبنان»[1].

ولسنا بصدد حلّ للمسألة العويصة بل للمعضلة اللبنانية، وبعضهم يقول إن مشكلة لبنان إنه رُكّب، ومنذ البداية، على السنّ الأعوج. وماذا يجدي اليوم أن نحكم على هذا بأنه أخطأ وذاك بأنه أصاب؟! فلبنان غدا أمراً واقعاً، وكياناً نهائياً عند الكثيرين. وطالما قلنا وكرّرنا في أمر كهذا المهمّ ليس ما حدث ولكن ما نتج.

L'important ce n'est pas ce qui s'est passé mais ce qui s'est produit.

والمثل الشعبي يقول:

اللي فات مات، واحنا أولاد النهار ده.

لقد فشل الأميركيون في كل شيء في العراق ما عدا في أمر واحد لا يعترفون هم بنجاحهم فيه. وهو تقسيم هذه البلاد وتفتيتها إلى قوى متناحرة ثلاث: الأكراد والشيعة والسُنّة. والحرب الطاحنة الدائرة في سوريا تنذر بتفتيت مماثل... وما سيحصل في سوريا مرشح للامتداد بسهولة إلى لبنان، وتقسيم

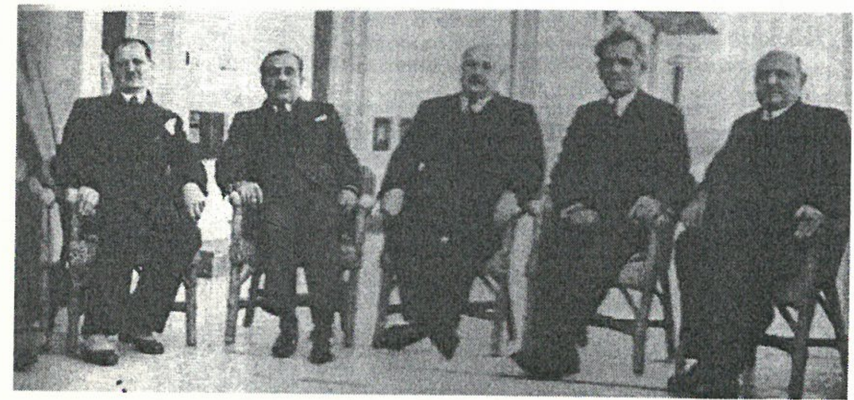
1 - ديب، م.س، ص 443.

سوريا سينعكس تقسيماً للبنان، والخرائط كلها موضوعة تحت مجهر الدرس والتمحيص والتجزئة. ما يتطلّب وعياً وتنبّهاً من الجميع. ويتحدّثون عن عرقنة لبنان، وكأنها أمر واقع. وها هي حدود لبنان ... مرّة أخرى ومن جديد موضع بحث رغماً، أو أقلّه بغضّ النظر، عن رغبة أهله وأمانيهم.

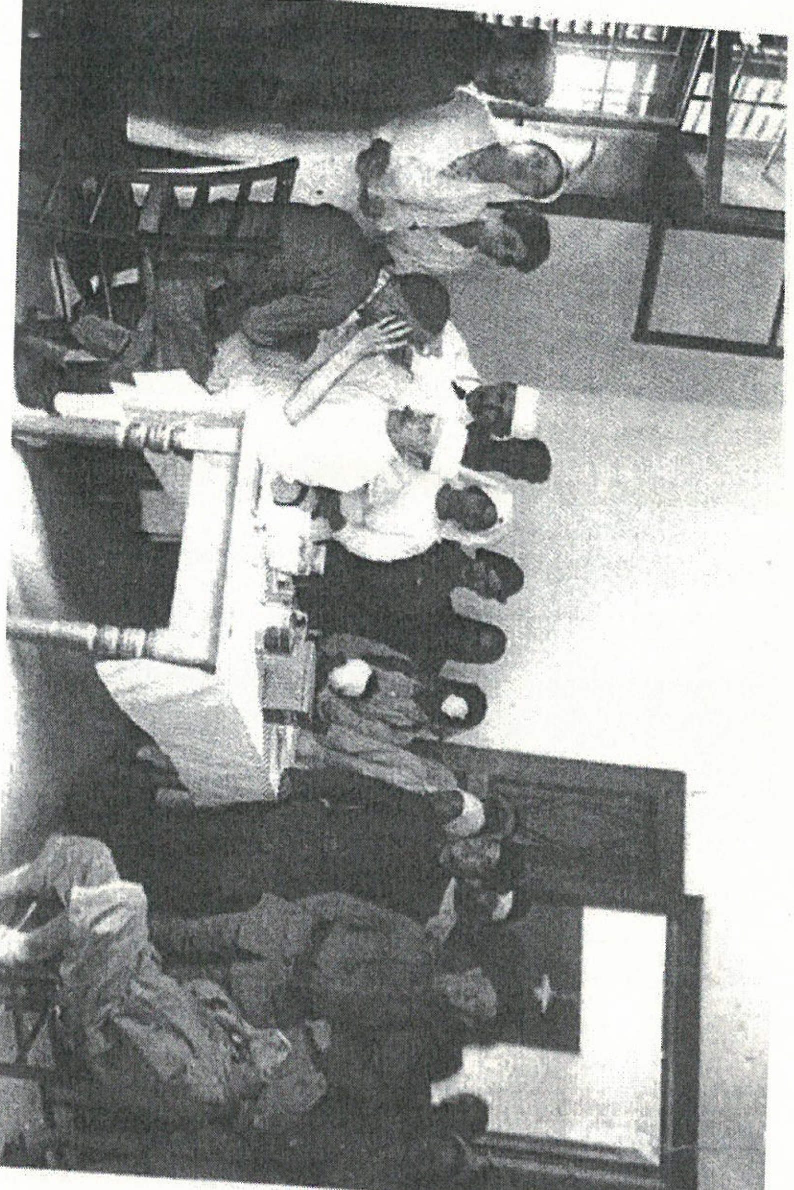
فهل نستيقظ، ونجبه الخطر الداهم؟!.

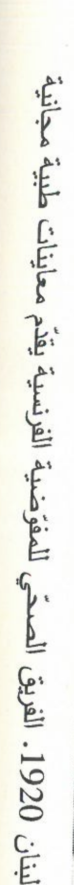
ل. ص. Q.J.C.S.T.B

جبيل في 2014/01/25



صورة نادرة من اليمين: الشيخ بشارة الخوري، أيوب تابت، المفوّض السامي دومارتيل، الرئيس إميل إدّه، الأمير خالد شهاب





لبنان 1920. الفريق الصحّي للمفوضية الفرنسية يقدّم معاينات طبية مجانية

ذيـــل

د. لويس صليبا

أستاذ وباحث في الأديان المقارنة

باريس ولبنان

جبيل

مدينة السِلم الأهلي والتنوّع الثقافي ـ الديني

مداخلة في ندوة العيش المشترك في

جبيل

تنظيم جمعية معاً نعيد البناء

أنطش مار يوحنا مرقس-جبيل

الأحد 2014/09/14

س. 12:30 ب ظ

عناوين المحاضرة:

- جبيل مدينة السلم الأهلي والتنوّعِ الثقافي والديني
- أولاً: جبيل المدينة المقدّسة في العصور القديمة
  جبيل مكّة الفينيقيين وكعبتُهم
  جبيل بيت إيل
  التعدّدية الدينية والثقافية
  أثر موقع جبيل في تنوّعها الثقافي
  تعدّد اللغات في جبيل
- ثانياً: جبيل حاضرة مزدهرة في عصر الصليبيين
  استقرار أمني وازدهار
  تنوّع النسيج السكاني
  جبيل مدينة العلم واللغات
  الرحّالة يصفون جبيل
  المماليك يدمّرون جبيل
- ثالثاً: جبيل في العصر الحديث
  مسيحيّو جبيل يحمون مسلميها عام 1860
  مارون عبود: أبو محمد
  الشاعر عقل الجرّ رائد المحذرين من الطائفية
- السِلم والتنوّع أبرز ثوابت تاريخ جبيل

لو شئت أن ألخّصَ رأيي في جبيل، في عبارةٍ واحدة، وأنا ابنُها المولود فيها وفيها يعيش، لقلت:

جبيل مدينة السلم الأهلي والتنوّعِ الثقافي والديني

وهذا البحثُ الموجز، عن هذه المدينة وبلادِها، لا يهدفُ إلاّ إلى أن يبيّنَ أن هاتين الصفتين من ثوابتِ تاريخها عبر العصور وألوفِ السنين، رافقاها مُذ وجدت، ولا يزالان من أبرزِ ميِّزاتها.

ولا نستطيعُ في عجالة كهذه، أن نتوسّع في إظهار ميزتَي جبيل هاتين ومرافقتِهما لها منذُ العصورِ القديمة إلى اليوم. لذا سنكتفي بإضاءاتٍ سريعة، ولكن بالغة الدلالة، عبر الأزمنة الثلاثة من تاريخ هذه المدينة العريق:

1 - العصر القديم (الفينيقي). والإغريقي-الروماني
2 - العصر الوسيط لا سيما في الحروب الصليبية.
3 - والزمن الحديث والمعاصر.

أولاً: جبيل المدينة المقدّسة في العصور القديمة

جبيل مكّة الفينيقيين وكعبتُهم

هكذا سمّاها المستشرق والمؤرّخ الأب هنري لامنس[1].

---

1 - لامنس اليسوعي، الأب هنري، تسريح الأبصار، فيما يحتوي لبنان من الآثار، بيروت، دار الرائد اللبناني، ط2، 1982، ص 60/1.

يقول:«كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدّسة، يحجّون إليها كما يُحَجّ إلى المزاراتِ الشهيرة»[1].

ويقولُ العالِم المؤرّخ جورج كونتونو في ذلك:«أهمُّ المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية كانت جبال (جبيل) مركزُ العبادة الفينيقية المقدّس»[2].

ويقول المؤرّخ جواد بولس:«كانت جبيل والمنطقة المجاورة لها من أكبر مراكز العبادة في الشرق جميعاً»[3].

وقد سمّاها فراعنةُ مصر:"أرضُ الله وهضبةُ الأرز". جاء في حفريةٍ للفرعون تحوتمس الثاني (1520 - 1504 ق.م):«أمرتُ ببناء سفن عديدة من خشبِ الأرز والصنوبر الموجودة فوق جبال أرض الله بجوار سيدة جبيل»[4].

وما يهمّنا هنا من هذا الطابع الديني المقدّس والواضح، أنه ساهمَ، ومنذُ البدء، في إرساء سلامٍ فعليّ نعمت به المدينة زمناً طويلاً. فالمدينة المقدّسة "حُرم" وِفقَ التقاليد الساميّة، أي أن لها حُرمة، والحربُ فيها حرام.

جبيل بيت إيل

ما الذي جعل من جبيل مدينةً مقدّسةً؟! لعلّ في اسمها

1 - م. ن.
2 - جبر، د. جميل، جبيل في التاريخ، بيروت، مطبعة رعيدي، ط1، 2001، ص 21.
3 - بولس، جواد، لبنان والبلدان المجاورة، بيروت، مؤسسة بدران، ط2، د. ت، ص 208.
4 - جبر، م. س، ص 49.

دلالةٌ على ذلك. فهو، على الأرجح، مشتقّ من "جبّ إيل". أي بيت إيل.

إيل: من إيلوتو وتعني إله. وهي الصفة التي عُرف بها إله جبيل واشتهر. وإليه تَنْسُبُ الأسطورة بناء جبيل. وقد نقل هذه الأسطورة المؤلّف فيلون الجبيلي (قرن 1 م)[1].

واشتهر عن إيل قولُهُ:«الحربُ ضدّ إرادتي، فأبذروا في الناس المحبّة، وصبّوا السلام في كَبِد الأرض»[2].

إله جبيل وبانيها، إله حب وسلام إذاً. وفي ذلك ينشد سعيد عقل:

الحبُّ نحن شرعنا الحسنُ نحن بَدَعْنا
البُغضُ نحن قطعنا أنه العدمُ
جبيلُ قالت بقاءُ النفسِ واكتشفت
ربّاً أبى لقضاء السيفِ يحتكمُ
الليل لولا سُراها غربةٌ قتلت
والشمسُ لولا هواها وهمُ مَن وهموا[3]

ومن نعوت إيل: الرؤوف أو الكلّي القُدرة.

1 - صليبا، د. لويس، الديانات الإبراهيمية بين العنف والجدل والحوار، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2012، ص 233.
2 - صليبا، م. س، ص 234.
3 - عقل، سعيد، كما الأعمدة، شعر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974، ص 174.

وإله الحب هذا، تبنّته المسيحية، فإنجيل متى (23/1)، ينقلُ عن سِفر أشعيا (14/7) نبوءته:«ها هي العذراء تحبلُ فتلدُ ابناً يدعى عمانوئيل».

ويضيف متى:«أي إلهُنا معنا».

وعلى الصليب صرخ يسوع:«إيلي إيلي لِما شبقتاني أي إلهي إلهي لماذا تركتني» (متى 46/27).

وإيل الجبيلي إلهٌ عادلٌ ورحوم، يحاورُ البشر، ويتعاطفُ معهم، ويشاركُهم همومَهم ويعالجُها، ويخاطب الأبطال عن طريق الحلم، ويوحي إليهم بمشيئته»[1].

وقد تمثّله الجبيليون برأس وأربع أعين، ليشمل بنظره وجهات المعمور الأربع، تأكيداً على وحدة الكون، وتساوي المناطق، وشمولية النظرة الدينية وانفتاحِها.

التعدّدية الدينية والثقافية

ومع تقديسها لإيل، فقد عرفت جبيل التعدّدية الدينية، منذ أقدمِ عصورها. فانقسمَ فينيقيّوها بين أنصارٍ للإله إيل، وأنصارٍ للإله بعل[2]، والذي صار لاحقاً أدونيس.

وفي أحدِ هياكل جبيل، نلاحظُ إلهةً مصرية بجانبِ إله جبيل المحلّي السابق للكنعانيين[3].

وكانت جبيل دوماً منفتحة على أديان الشعوب المجاورة أو

1 - جبر، م. س، ص 57.

2 - بولس، م. س، ص 98.

3 - بولس، م. س، ص 43.

التي مرّت على أرضها. ففي عام 1903، عُثر في جبيل في أملاك الرهبان اللبنانيين على تمثالٍ عظيم للإله نبتون إله البحر عند الرومان[1][2].

واكتشف الأب رنزقال في جبيل العام 1908 تمثالاً لجوبيتر الأعظم. كما ورد في كتابة يونانية تحته، وكان الجبيليّون يعبدونه ويعتبرونه بمثابة إلههم ملوخ، إلاّ أنهم أخرجوه في زيّ يوناني روماني»[3].

يقول الأب لويس شيخو (1859 - 1927) شارحاً هذه الظاهرة اللافتة:«الفينيقيون رضوا بأن يمزجوا نوعاً بين آلهتهم وآلهة اليونان والرومان واعتبروها جميعَها كالآلهة عينِها لا تختلفُ جوهراً بل عَرَضاً. فدعوا البعل باسم جوبيتر (المشتري)، وعشتروت باسم ڤانوس(الزهرة)، إلى غير ذلك من الأسماء التي يخالف ظاهرُها باطنَها. واستمرَّ الفينيقيون على مألوف عاداتهم الدينية الوطنية، لم يغيّروا في مناسكهم شيئاً في عباداتهم الملّية. وعلى هذا المنوال، ترى المعبدَ الواحد، في لبنان وجبيل خصوصاً، مكرّماً من اليونان والفينيقيين. يزعمُ كلٌّ منهم أن فيه

1 - كتب عنه الأب رنزقال مقالة في مجلة المشرق. وهو تمثال متقن النحت، ويرجّح أنه كان يزيّن أحد الهياكل التي أقامها الرومان في جبيل، وقد نقل التمثال إلى متحف اسطنبول.

2 - شيخو، الأب لويس، الآثار القديمة في لبنان، ضمن لبنان مباحث علمية واجتماعية، نشره إسماعيل حقي، بيروت، دار لحد خاطر، ط3، 1993، ص 142/1.

3 - شيخو، م. س، ص 142/2.

يكرّم معبودَه الخاص، دون أن يكترث الوطني برأي الأجنبي. وكانوا إذا كتبوا على تلك المعابد أو التماثيل كتابةً يونانية، لا يصرّحون باسم الإله، بل يدعونه بالإله العظيم، كما ورد في هيكل بلاط/جبيل، فيفهم كل من العابدين ما يشاء، بحسب عنصره الأصلي»[1].

إنه درس بليغ في الانفتاح الديني، والمرونة الفكرية، والروحية، يأتينا من عمق تاريخ جبيل. وعسانا نتعلّم منه ليومِنا هذا.

أثر موقع جبيل في تنوّعها الثقافي

وقد ساهم موقعُ جبيل الجغرافي الذي كان يتوسّطُ المسافة بين أعظمِ أمبراطوريتين في التاريخ القديم، بلاد الرافدَين ووادي النيل في التعدّدية الدينية والتنوّع الثقافي اللذين نلمحهما بوضوحٍ في تاريخها القديم. وهما لا يزالان من أبرز سماتها إلى اليوم. وفي ذلك يقول المؤرّخ ألكسندر موره:«كانت بيبلوس، وهي أهمّ مركز مزدهر للتبادل التجاري في العهود القديمة، البوتقة التي كانت تنصهر فيها الأساطير، والشعائر الدينية المصرية والآسيوية، وفيها تلتقي التفاعلات في حقول الفن والسياسة»[2].

ويقول جوليان هكسلي مدير عام الأونيسكو السابق عن غنى جبيل الثقافي وأصالة فكرها الديني:«لمدينة جبيل أهمية

---

1 - شيخو، الآثار القديمة، لبنان مباحث، م. س، ص 135/1.

2 - جبر، م. س، ص 8.

فكرية تعادل أهمّيتها الجغرافية. فقد كانت طوال قرون أفضل بوابة لدخول المنطقة المحيطة بها، والخروج منها للوصول إلى دول كثيرة، والاتصال بثقافات شتّى. وكانت جبيل نافذة تطلّ على الأزمنة البعيدة، حين استثمر الإنسان، للمرّة الأولى، خصوبة الأرض لخدمته، فتسنى له فكرياً وعملياً أن يقبضَ على زمامِ قوى الحياة والموت وتجدّد الحياة»[1].

هذا الانفتاح الثقافي، والتنوّع الحضاري، كان لموقع جبيل على منتصف الطريق بين جبّاري العالم القديم مصر والرافدَين دورٌ أساسيٌّ فيه.

فعلاقات جبيل الوثيقة مع بلاد ما بين النهرين، تعودُ إلى الألف الرابع ق. م، كما تظهر الحفريات[2]. في حين ترقى علاقات جبيل بمصر إلى زمن السلالة الفرعونية الثانية (3100 - 2995 ق. م) كما تشهد أسطورة إزيس وأزوريس[3].

يقول المؤرّخ موريه Moret الآنف الذكر:«كانت جبيل باباً مفتوحاً على أسواق آسيا والبلاد العربية ومصر»[4].

وهذا الموقع الجغرافي الوسطي لجبيل، ساهم في بلورةِ توازنٍ سياسيّ وثقافيّ فينيقي بين الجبّارين: مصر والرافدَين.

يؤكّد المؤرّخ والعالِم الأركيلوجي موريس دونان، أن أقدمَ معبد في جبيل، مع باحتِه المركزية والغرفِ المحيطةِ بها بشكل

---

1 - جبر، م. س، ص 9.

2 - جبر، م. س، ص 17.

3 - جبر، م. س، ص 72 - 73.

4 - بولس، م. س، ص 67.

دائري، مبنيٌّ وفق تصميمٍ مشابهٍ لمعابدِ بلاد كِلدة»[1].

وبالمقابل اكتشفَ الأركيولوجيّون في معبد جبيل تقدِمات لفراعنة مصر تعود إلى عهد مملكة منف (2895 – 2390 ق.م)[2].

تعدّد اللغات في جبيل

ومن وجوهِ التنوّع الثقافي في جبيل تعدّدِ اللغات التي أتقنها أهلُها. فقد اكتشف موريس دونان في حفرياته في المدينة لوحَ طينٍ يعودُ إلى ما بين 2300 و 2200 ق. م. عليه تمرينٌ مدرسي يُظهرُ أن اللغة الآكادية كانت تدرّس في مدارس جبيل. ويضيف هذا العالِم:«فالمصرية والأكادية وربما السومرية أيضاً كانت لغاتٍ مألوفةً في جبيل وفينيقيا، لا سيما عند الذين تربُطهم علاقاتُهم الخارجية ببلاد هذه اللغات»[3].

ومدارسُ جبيل تعود أقلّه إلى القرن 23 ق. م. وفي مغامرات سنوحي المصري (نحو 1970 ق. م) أن هذا الأخير فرّ من مصر هرباً من الفرعون سينوسريت الأوّل. واحتمى بملك جبيل إنشي ابن عمو، فقال له هذا الأخير عند استقباله: ستجد عندي مَن

1 - Dunand, Maurice, Byblos son histoire, ses ruines, Paris Adrien-Maisonneuve, 1968, p 22.

2 - بولس، م. س، ص 68.

3 - Dunand, Maurice, Byblos Grammata, Paris, Adrien-Maisonneuve pp. 9 – 10.

يتكلّم اللغة المصرية[1].

وزمن الرومان، شاعت اللغة اليونانية في جميع طبقات الشعب، بعد أن كانت محصورة في عصر خلفاء الإسكندر بالدوائر الرسمية، وذلك على حساب اللغتين الفينيقية والآرامية. وكانت هذه الأخيرة لغة معظم بلدان الشرق الأوسط، واستَخدمت الدوائرُ الرسمية اللغة اللاتينية، وكتبَ فيلون الجبيليّ (42 – 117 م) مؤلّفاتِه باليونانية[2].

وقد تميّزت جبيل من الناحية الأركيولوجية بتراكم الطبقات الأثرية المتتالية فيها: من فينيقية ومصرية وبابلية وفارسية ويونانية ورومانية وعربية وصليبية وغيرها في موقع واحد. وهي ميزة تفرّدت بها عن سائر المدن القديمة، ما يدلّ على عمق التفاعل الثقافي لهذه الشعوب والفاتحين فيها. والذي وسم حضارتَها بالانفتاح والتنوّع وصهر المؤثرات الثقافية والحضارية المتباينة في بوتقة واحدة. وجعل لأبنائها شخصية أساسية Personnallité de base تميّزت بالمقدرة على فهم الآخر، في فكره وثقافته وتجربته، والإفادة منها للتطوّر الذاتي.

وإذا كانت جبيل، أقدمُ مدينة في العالم، استمرّت مأهولة دون انقطاعٍ حتى عصرنا الحالي، فأحدُ أبرزِ أسبابِ ذلك يعودُ إلى انفتاحِ أهلها وقبولهم الآخر المختلف، وأخذِهم عنه. وفي ذلك يقول عالِم الاجتماع الفرنسي روجيه كايوا (1913 –

1 - جبر، م، س، ص 77.

2 - جبر، م. س، ص 118 – 121.

1978):«إن القدرةَ على استيعابِ اختبارِ الغير تجعلُ الشعوبَ تتطوّرُ نحو الأفضل. لأن بناء الحضارات ليس لعبة حظّ، بل هو عملُ عقلٍ نيّرٍ واعٍ، يبحثُ وينقّب، ويسعى إلى الأخذِ بأسبابِ المعرفة أينما وُجدت»[1].

ثانياً: جبيل حاضرة مزدهرة في عصر الصليبيين

استقرار أمني وازدهار

بقيت جبيل تحتَ حُكمِ الصليبيين قُرابةَ القرنين (1104 – 1292). ويكاد وضعها في تلك الحقبة المضطربة المزدحمة بالحروب والقلاقل يحاكي وضعها زمن الحرب اللبنانية (1975 – 1990).

تقول المؤرّخة المصرية د. سامية عامر التي وضعت أطروحةَ دكتوراه عن جبيل في تلك الحقبة في خلاصةِ بحثها:«تمتّعت جبيل في الحقبة الصليبية بقدرٍ كبير من الاستقرار الاقتصاديّ والازدهار، لم تشهدْه أيُّ مدينةٍ إفرنجية أخرى في الأراضي المقدّسة في ذلك العصر. وأصبحَ لها مكانة مرموقة، وثقلاً عظيماً. واستمرّت هذه المدينة على هذا الوضع حتى نهاية الوجودِ الصليبي فيها»[2].

ولم تتعرّض جبيل خلال تلك الحقبة، وحتى موقعة حطين

1 - جبر، م. س، ص 89.

2 - عامر، د. سامية، الصليبيون في فلسطين، جبيل/لبنان، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط1، 2002، ص 148.

1187، لأي هجوم إسلامي مباشر يهدفُ إلى الاستيلاء عليها. وذلك خلافاً لأكثرِ مدن الساحل الشاميّ التابعة للفرنج[1] .

وزمن الحكم الصليبي سك حكّام جبيل: هوغ أمبرياكوس وذرّيته النقود وكُتب عليها: جبيل المدينة المقدّسة[2].

ما يعني أنهم استعادوا النظرة القديمة: الفينيقية والإغريقية الرومانية إلى جبيل فاعتبروها كما أسلافهم مدينة مقدّسة.

وكان السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدوني الذين حكموا جبيل قد سكّوا نقوداً في جبيل حملت اسم "جبيل المقدّسة"[3].

تنوّع النسيج السكاني

ومن أبرز أسباب الاستقرار والازدهار اللذين تمتّعت بهما جبيل في تلك الحقبة كان تنوّعُ نسيجها السكانيّ، والذي كان من ثوابت تاريخها، على ما يبدو عبر العصور.

فكان سكّانُها يتألّفون من مختلفِ الأجناس والديانات:«فإلى جانبِ الموارنة والمسلمين من سكّانها الأصليين، سكنها الفرنجة من أهل جنوى. كما سكنتها أعدادٌ كبيرة من اليهود الذين بدأوا باستيطانها منذ أن كانت جبيل تابعة لإمارة طرابلس تحت حكم ابن عمّار. وساهمَ هؤلاء في الانتعاشِ الاقتصادي الذي عرفته المدينة في تلك الحقبة»[4].

1 - عامر، م. س، ص 62.

2 - جبر، م. س، ص 134.

3 - جبر، م. س، ص 115.

4 - عامر، م. س، ص 38 – 39.

وعام 1115 بنى حكّامها من آل أمبوياشي كاتدرائية مار يوحنا مرقس التي لا تزال إلى اليوم[1]، كما بنوا قلعتها[2].

وقد تبادلت جبيل شتّى أنواع المعاملات التجارية في تلك الحقبة مع مسلمي مصر والشام. وساعد في ذلك ميناؤها الواسع.

جبيل مدينة العلم واللغات

وإلى الازدهار الاقتصاديّ، عرفت جبيل تطوّراً علمياً ملحوظاً. فشُيّدت فيها دور العِلم وخزائن الكتب، وكانت تجتذبُ العلماء والباحثين. وقدِم إلى مراكزها العلمية القادةُ والمحاربون الفرنج الساعون إلى الإلمام باللغة العربية[3]. وهكذا نجدُها تُواصلُ ما اتسمت به في العصور القديمة من تنوّع ثقافي، وإتقان للغات العالمية Polyglotisme السائدة في زمنها.

الرحّالة يصفون جبيل

وقد أحبّ جبيل كل مَن زارها في تلك الحقبة من الرحّالة العرب والأجانب، وذلك نظراً لما سادها من ازدهار واستقرار، ولِما عرفَتْه من تنوّعٍ وانفتاح.

يقول عنها الحاخام اليهودي الرحّالة بنيامين التطيلي الذي زارها بين 1160 و 1173م:«جبيل Byblus هي بلدة جبال

1 - م. ن، ص 38.

2 - م. ن، ص 152.

3 - Enchyclopédie de l'Islam, (EI2), T.5, p. 1057.

الواردة في التوراة، يحكم هذه المدينة سبعةٌ من أمراء جنوى، يرأسهم الأمير أميرياكو. وفيها أطلالُ معابدَ قديمة، وصنم على عرش من حجارة. وأمامه مذبح لإحراق البخور والأضاحي.

«وفي المدينة نحو مائتي يهودي من أعيانهم الرابيون منير ويعقوب وسمحة»[1].

ويصفها الرحّالة الفارسي المسلم ناصر خسرو (ت1061 م) كما يلي:«فيها شتى أنواعِ الأطعمةِ والمأكولات الشهيّة التي لا يوجدُ مثيلاً لها في بلدانِ المسلمين. وفيها الأصباغُ القرمزية والمنسوجاتُ الحريرية وصناعةُ الورق والأسواق والجسور والعمائر»[2].

وقد نوّه أكثرُ الرحّالة بالعيش السلمي بين مختلف الطوائف والمذاهب في جبيل في تلك الحقبة[3].

المماليك يدمّرون جبيل

وكان لزمن الرخاء والعيش المشترك هذا أن ينتهي بعد أن غزا جبيل المماليك، وعلى رأسِهم السلطانُ بيبرس 1292. فدمّرها، وذبحَ سكّانَها، وهدمَ كنائسَها. ولم تفرّق حملاتُ

1 - بنيامين التطيلي، رحلة الرابي بنيامين التطيلي وفيها وصف لأوضاع اليهود في مختلف البلدان (1160 - 1173 م)، ترجمة عزرا حدّاد، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008، ص 179 - 180.

2 - ناصر خسرو علوي أبو معين الدين (ت 453هـ/1061)، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشّاب، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1971، ص 12.

3 - جبر، م. س، ص 136.

المماليك بين الموارنة والشيعة، فتعاون هؤلاء لصدّهم في معارك عديدة دون جدوى[1].

وزارَ جبيل الرحّالة الغربيّ الأب سوريانو بعد نحو قرنٍ من اجتياحِ المماليك لها، فوصفها كما يلي:«ولهذه المدينة جبيل مرفأٌ حسن. وازدهرت في عهد أمراء جنوى. ولكنها الآن خَرِبة مهجورة (...) وفي هذه المدينة شاهدتُ كنائسَ عظيمة متهدّمة تماماً»[2].

مدينةٌ خَرِبَة، لأن مَن نجا من أهلها من مذبحة المماليك، هُجِّروا إلى قبرص، ولا تزال قبرص إلى اليوم تضمُّ موارنةً متحدّرين منهم.

ومن فرط ما حلّ بقلعة جبيل وسائر مبانيها وسكّانها من مصائب فهدمت وأعيد إعمارها مراراً أصبحت مضرباً للمثل فقيل:«أكثر الناس بتصيبها متل ما صاب قلعة جبيل»[3].

ثالثاً: جبيل في العصر الحديث

وجبيل، مدينةً وقضاء، في زمنِنا الحاضر، مثلٌ نموذجيٌّ للسلمِ الأهلي، والتنوّعِ الثقافي والديني، والعيش المشترك. وهي بين

1 - جبر، م. س، ص 140.

2 - أبي عبدالله، عبدالله إبراهيم، ملف القضية اللبنانية من خلال جبيل والبترون والشمال في التاريخ، بيروت، مطبعة دكاش، ط1، 1987، ص 147.

3 - حنين، رياض، أسماء، قرى ومدن وأماكن لبنانية في روايات شعبية، بييروت، دار لحد خاطر، د. ط، 1986، ص 64.

سائر مدنِ لبنان ومناطقه الوحيدة التي حافظت على تنوّعها الدينيّ، فلم تطلها مآسي التهجير ولا نارُ الحربِ الأهلية التي أشعلت لبنان طيلة سبعة عشر عاماً (1975 - 1990)، ونعِمت بهدوء وأمن وسلام، لم تعرفها سائر المناطق اللبنانية في الحقبة الأخيرة الشديدة الاضطراب (2005 - 2014).

أذكرُ أنني كنت يوماً أحدّث أستاذي البروفسور روبير الكفوري المتخصّص في أديان الهند وفلسفات الشرق الأقصى ولغاته عن ميزة السِلم والأمن والاستقرار التي نعمت بها جبيل طيلة الحرب الأهلية الطويلة، دون سائر المدن والمناطق، ففاجأني بجوابٍ مختصرٍ معبّر حاول أن يشرح فيه سبب هذه الظاهرة فقال:

C'est grace au Silence et a la transcendance de St Charbel.

كل ذلك بنعمة صمت القديس شربل واستغراقه.

وبالفعل، فجبيل مدينةً وقضاء، مدينةٌ بالكثير إلى هذا الوليّ/الشفيع الذي عاش سحابة نصفِ قرنٍ على تلّةٍ من تلالها تشرفُ على أكثر ربوعها، حياةَ صمتٍ وتأمّلٍ وصلاة، وسكينتُه هذه عمّت سلماً وسكوناً في هذه المنطقة.

شربل، بفوحِ عبيرِ قداسته، أعادَ إلى جبيل بعضاً ممّا امتازت به في عصورها القديمة: أرضُ الله، كما سمّاها الفراعنة، ومدينةُ المقدّس والقداسة التي يؤمُّها الحجّاج من مختلف الأقطار.

وقداسة شربل في حياته، وبعد مماته، كانت عابرةً للطوائف

والأديان. فهو جارُ الشيعة، يباركُ أراضيهم، ويشفي مرضاهم. شهد معاصرُه شبلي فياض شبلي فقال:«أما اعتقاد أهلِ الشيعة في تلك المنطقة بقداسته فكان عجيباً. إن المَحبسة لم تفرغ من الزوّار من جميع الجهات، وبالأخصّ من أبناء الشيعة المجاورين الدير الذين كانوا يأتونها للتبرّك من مشاهدته ولطلب بركته»[1].

شربل ظاهرة بحدّ ذاته في تحفيز العيش المشترك من خلال تفاعل العبادات والطقوس. وهو إرث عامّ وبركة لكل اللبنانيين. وفي ذلك يقول الرئيس رياض الصلح:«إن الأب شربل مخلوف ليس هو للموارنة فحسب، بل هو للبنان أجمع، ولجميع الطوائف على اختلاف نزعاتهم ونحلهم ومذاهبهم»[2].

ولو شئت التوقفَ عند مختلف جوانب العيش المشترك في جبيل وقضائها ووجوهه في الزمن المعاصر، لاحتجتُ إلى تسطيرِ بحثٍ مستقل، يفوقُ بحثي هذا حجماً. لذا أكتفي ببضعة مشاهد معبّرة منه.

مسيحيّو جبيل يحمون مسلميها عام 1860

والمشهد الأول من مذبحة سنة 1860 والتي ضُرب فيها المثل اللبناني القائل:

سنةِ الستين يا معين.

فإثر المجازر التي تعرّض لها المسيحيّون في جبل لبنان وزحلة

1 - صليبا، د. لويس، شربل رفيقنا الصامت، حكاية قداسة عنوانها الصمت، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط3، 2014، ص 211.

2 - صليبا، م. س، ص 212 – 213.

ودمشق وغيرها، وصل إلى المسلمين في جبيل يومها، وجُلّهم من أهل السنّة، خبرٌ مفادُه أن بعض أهالي إحدى البلدات الكسروانية الساحلية "البوار" يتّجهون إلى جبيل للقضاء على مسلميها. فهمّ المسلمون بالهرب، فمنَعَهُم أهلُهم المسيحيّون، وتعهّدوا لهم بحمايتهم من المعتدين. وبالفعل، فعندما وصلَ هؤلاء ردّوهم على أعقابهم، ولم يسمحوا لهم بأذيّة أحد من أهل المدينة.

هذه الحادثة المؤثرة رواها لي إمامُ مدينة جبيل السابق فضيلة الشيخ صبحي الحسامي نقلاً عن جدّه عن جدّه في رسالة بتاريخ 2014/08/31 والحادثة محفوظة في مأثوراتِ العائلة. وقد عقَّب عليها بما يلي: هذه الأخلاق والمواقف المشرّفة ليست غريبة على أهل المنطقة، بل هي متأصّلة فيهم.

وبالمقابل فلآل الحسامي مآثرُ في مساعدة الرهبان في استعادة كنيسة مار يوحنا مرقس تجدونها مدوّنة على لوحةٍ داخل هذه الكنيسة.

مارون عبود: أبو محمد

أبرزُ وجوه بلادِ جبيل الثقافية والأدبية، في زمننا المعاصر، يبقى شيخ النقّاد العرب مارون عبود (1886 – 1962). وقد كرّمته المدينة بإقامة نصب له، ترونه اليوم شامخاً في ساحتها.

عندما سمّى مارون عبود ابنه البكر المولود عام 1926 محمداً أحدثَ بهذه التسمية صدمةً هزّت معاقلَ الطائفية. ويومها قال ردّاً عمّن تساءلَ بشأنِ تدبيره الغريب هذا:«كرهتُ،

حتى الاشمئزاز، أن تكونَ أسماؤنا مثل تذاكِرِنا»[1].

هل كان أبو محمد، برؤياه وحدسه، يخشى أن يوقف اللبناني يوماً على الحواجز، ويُخطف بموجب اسمه، وما سُجّل على هويته؟! ليت تدبيره الوقائي الاستباقي هذا نفع، فحذا عدد من مواطنيه حذوه.

ويضيف شيخ النقّاد:«نعم كرهت أن يكونَ اسم ابني طائفياً كاسمي، فرأيت أن أمزج الاثنين».

ويردف عبود، في إشارة لافتة إلى تأثير الإسم على الشخص ومحيطه، قائلاً:«وفي اسمه كلُّ التأثير عليه وعلى إخوته، وعلى البيت، وعلى الضيعة، وعلى المحيط»[2].

أجل لو اجتمع في بيوت اللبنانيين محمد ومارون لشهدت النزعة الطائفية انحساراً ملحوظاً. وهذا ما شاءه مارون عبود من هذه التسمية. ولكنه عبّر لاحقاً (1960) عن خيبة أمل لأنه لم يجد لبنانياً سار على خطاه. فقال:«سمّيت ابني محمداً نكاية بالطائفيين، لأبرهنَ لهم أن المسلم والمسيحيّ يجب أن يعيشا تحت سقف واحد، وكالأبناء، فأنا الوالد مارون وابني محمد، وكم تمنّيت أن يغار مني رجلٌ ثان»[3].

وعبّود، وإن اختلف في السياسة مع نائب منطقته العميد ريمون إدّه، فقد اتفق معه في الدعوة إلى الزواج المختلط

1 - عبود، مارون، المجموعة الكاملة، بيروت، دار الثقافة، د. ت، ج 10، ص 31.

2 - م. ن.

3 - عبود، م. س، ج10، ص 272.

والزواج المدني. ففيهما رأى صهراً لفئات المجتمع وأطيافه، في بوتقة واحدة، تُسقط الحدود والجدران التي بنتها الطوائف. يقول:«وكم تمنّيت أن يزوّج رجلٌ ابنته المسيحية مثلاً من رجل مسلم، أو بالعكس، لتزول الطائفية البغيضة نهائياً من القلوب»[1].

وأبرزُ من طربَ لتدبير شيخِ النقّاد، ووعى بنفاذِ بصيرته عمقَ دلالاته وتأثيرِه، كان صديقه فيلسوف الفريكة أمين الريحاني، فكتب إليه في 1926/11/11:«أهنئك وهذا الوطنَ الغنيَّ بالأديان، الفقيرَ بين الأوطان. أحسنت يا مارون أحسنت وخيرُ الآباء أنت.

«وحبّذا في المسلمين، وفي الدروز، وفي اليهود، مَن يقتدون بك، فيسمّون أبناءهم بأسماءِ أبنائنا القدّيسين، ونسمّي أبناءنا بأسماء أبنائهم الأولياء، فينشأُ في هذه البلاد جيلٌ جديد من الإخوان والأخوات الحقيقيين، الذين لا يُعرفون من أسمائهم أنهم لأحمد أو لموسى أو للمسيح، بل لا يعرفون خارجَ المعابد أنهم مسيحيون أو مسلمون، أو موسَوِيّون»[2][3].

هل كان الريحاني وعبود ليصدّقا أن اللبنانيين يُعرفون اليوم في طوائفهم وانتماءاتهم ليس من أسمائهم وحسب، بل ومن لباسهم، وحتى من سيّاراتهم وما عليها من شعارات وتعاويذ؟!

1 - م. ن، ص 272.

2 - عبود، م. س، ج 10، ص 26 – 27.

3 - الريحاني، أمين، رسائل أمين الريحاني، تحقيق ألبرت الريحان، بيروت، دار الجيل، ط2، 1991، ص220.

الشاعر عقل الجرّ رائد المحذرين من الطائفية

ووجه ثقافي أدبي آخر من جبيل، قضى العمر يحنّ إلى موطنه، ويحذّر أهله من آفات الطائفية والتعصّب. إنه شاعر الحنين الاغترابي عقل الجرّ (1885 - 1945) الذي ولد في جبيل، وهو اليوم يرتاح في ترابها بعد أن استقدم شقيقه الشاعر شكرالله الجرّ (1905 - 1975) رفاته من المهجر عام 1966 عملاً بوصية أخيه.

يُنشد عقل الجرّ مؤثراً ضلالة المنفتح على عبادة المتعصّب فيقول:

دعـوى الـدعيّ لدينـه وبـلاده
مـردودة إن لم تقـم بالشـاهدِ
ولـربّ ضـلّة شـاعر متسـاهل
أقنى وأنفع من تعصّب عابدِ[1]

ويبكي عقل الجرّ من مهجره تشرذم مواطنيه، فيوجس خيفة من مغبّة ذلك:
ذكرتـك يـا لبنـانَ والقلـب واجـد
وجـيش الرزايـا في ربوعـكَ سـائدُ

1 - صليبا، د. لويس، الاغتراب اللبناني ملحمة ومأساة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014، ص 108.

وشعبك يا للحيف شـعب تضـاربتْ
مراميه واستعصى عليه التعاضدُ[1]

وينادي الجرّ مواطنيه ويذكّرهم أن تعصّبهم بالأمس كان الطريق إلى استعبادهم، وتحكّم نير الأجنبي برقابهم:

بني وطني كم أحكـمَ النيرُ فـيكمُ
تعصّـبكم للـدين والأمـس شـاهدُ
تخاصـمتم باسـم المسيح وأحمـدٍ
عـلى حـين أن الله للنـاس واحـدُ[2]

ويحذّر الجرّ أهله، في رؤى شاعرية، أنهم إذا بقوا على طائفيتهم أباحوا وطنهم مرّة أخرى للغرباء. وماذا ينفعهم عندها كنيسة تعصّبوا لها أم مسجد؟!

إذا لم تزودوا عن سـماكم وأرضـكم
وتلقـوا الـردى مـن دونهـا وتجاهـدوا
أبحـتم لشـذّاذ الشـعوب ديـارَكم
وهيهـات يُغنـي هيكـلٌ ومسـاجدُ[3]

1 - الجرّ، عقل، ديوان عقل الجرّ، تحقيق وتقديم شكرالله الجرّ، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1964، ص 75.

2 - الجرّ، م. س، ص 57.

3 - صليبا، الاغتراب، م. س، ص 107.

مسجدُ باب المينا هديةٌ من مسيحيي جبيل إلى مسلميها

ومشهدٌ أخير يضيء على التعايش والإلفة بين الموارنة والمسلمين السنّة في مدينة جبيل.

إنه المصلّى أو المسجد الصغير المواجه لمبنى رئاسة ميناء جبيل. وقد سمّي اليوم باسم الصوفي إبراهيم بن أدهم. فهذا المسجد الصغير بناه ابن جبيل الحاج عبدالله رضوان الحسامي في أواخر القرن التاسع عشر. وكان تاجرَ حبوبٍ في ميناء جبيل، فطلبَ من أصدقائه عائلةِ رستم باز والد القاضي سليم باز والدكتور جرجي باز أن يبيعوه قطعةَ أرضٍ صغيرة يبني عليها مصلّياً صغيراً يريحه من مشقّة الصعود إلى جامع جبيل لأداء صلواتِه اليومية. فما كان من آل باز أصدقائِه إلاّ أن وهبوه الأرضَ مجاناً، فبنى عليها المصلّى المذكور، على باب المينا.

هذا ما رواه لي فضيلة الشيخ صبحي الحسامي، إمام جبيل السابق، وأكّده بوثيقة خطّها مختار جبيل الراحل كليمنصو كميد (1919 - 1998) الذي بقي مختاراً وحيداً للمدينة طيلة خمس وأربعين سنة (1953 - 1998)[1]، فروى هذا الحدث ودوّنه. وقد أرسل لي الشيخ صبحي مشكوراً نسخة عن هذه الوثيقة.

---

1 - مرعب، نخله، بلاد جبيل، في القرن العشرين، مفكرون ومبدعون رسموا تاريخها، جبيل/لبنان، منشورات بيبليون، ط1، 2000، ج3، ص 62.

السلِم والتنوّع أبرز ثوابت تاريخ جبيل

وختاماً، فجبيل اليوم، كما يؤكّدُ أكثرُ فعالياتها، ومن مختلف الطوائف:«مدينة فريدة ومتمايزة في التعايش بين أبناء الطوائف اللبنانية، وأجواء التعاون والتلاقي والتكامل هي السائدة بين أبناء هذه المدينة، بجميع فئاتهم وطوائفهم. وهي من ضمن المسلّمات الوطنية اللبنانية الأساسية المحقّقة لوحدة جميع اللبنانيين»[1].

وفيها كنائس لمختلف طوائف المسيحيين القاطنين فيها: الموارنة، وهم أكثرية سكانها، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والأرمن.

وتضمّ مساجد وجوامع للسنّة والشيعة من سكّانها. إنها، بأطياف أبنائها وشرائحهم ومذاهبهم، موزاييك وفسيفساء تجسّد انتماءات أكثر مكوّنات المجتمع المدني اللبناني.

كانت جبيل، ولا تزال، يقول حبيب كيروز قائمقامها السابق، ملجأ ومأمناً لكل الناس ومن كل الطوائف والمذاهب، يأتون إليها، يقيمون الأفراح سوية والأتراح سوية، ويتعاونون دائماً»[2].

ويقول الشيخ حسين شمص، إمام إحدى قرى جبيل الشيعية، مقيّماً العيش المشترك في جبيل اجتماعياً

---

1 - حيدر أحمد، د. علي راغب، المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل سياسياً تاريخياً واجتماعياً بالوثائق والصور (1842 - 2006)، بيروت دار الهادي، ط1، 2007، ص 207 - 208.

2 - عوّاد، جهاد، جبيل حاضراً ومستقبلاً، جبيل/لبنان، مطبعة دكاش برس، ط1، 2010، ص 245.

وتاريخياً:«العيش الواحد ليس طارئاً، ولا صنيع سياسات أو زعماء أو قادة سياسيين. بل هو صنيع تاريخ وحياة كريمة ممتدّة منذ أكثر من 700 عام بين المسيحيين والمسلمين»[1].

ويضيف الشيخ شمص في إشارة واضحة إلى تصدّي المسيحيين الموارنة والمسلمين الشيعة معاً لغزوات المماليك في كسروان وجبيل:«نتيجة المجازر والاضطهاد خاصة زمن الدولة المملوكية (...) هذا التاريخ أوجد في نفوس أهلنا المسيحيين والمسلمين حالة ترابط وتماسك قلّ نظيرُها، ابتداء من الزيارات في الأفراح والأتراح والجيرة. ولم يعكّر هذا التعايش لا قديماً ولا حديثاً»[2].

وأخيراً قيل الكثير عن جبيل، وأُطلقت عليها شتى النعوت والألقاب: فهي مدينة الحرف والأبجدية، وأقدم مدينة... ومدينة الشراع والسفن والإبحار، ومصدّرة خشب الأرز وورق البابيروس ومعلّمة الأبجدية إلى ما هنالك من أوصاف.

كلُّها نعوتٌ قد تنطبقُ على مرحلةٍ من مراحل تاريخها، لكنها لا تتّصفُ بصفةِ الديمومةِ والآنية.

أما ما نجحت جبيل في أن تحفظَه وتحافِظَ عليه مُذْ وجدت تقريباً منذ ألوف السنين، وحتى يومنا هذا، فهو السِلمُ الأهلي الذي نَعِم أبناؤها غالباً به، والتنوّع الثقافي والتعدّدية الدينية والحضارية التي رافقتها في مختلف حقب تاريخها.

---

1 - عواد، م. س، ص 248.

2 - عواد، م. س، ص 249.

تعدّدية وسلام. إنه الإرث الغالي والكنزُ النفيس. وهو الأمانةُ الغالية التي أورثناها الأجداد. وعسانا نعمل جميعاً على صونها، ونقلها إلى الأبناء والأحفاد.



الرئيس إميل إدّه عام 1932

المراجع

1- أبي عبدالله، عبدالله إبراهيم، ملف القضية اللبنانية من خلال جبيل والبترون والشمال في التاريخ، بيروت، مطبعة دكاش، ط1، 1987.

2- بنيامين التطيلي، رحلة الرابي بنيامين التطيلي وفيها وصف لأوضاع اليهود في مختلف البلدان (1160 - 1173 م)، ترجمة عزرا حدّاد، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008.

3-بولس، جواد، لبنان والبلدان المجاورة، بيروت، مؤسسة بدران، ط2، د. ت.

4-جبر، د. جميل، جبيل في التاريخ، بيروت، مطبعة رعيدي، ط1، 2001.

5- الجرّ، عقل، ديوان عقل الجرّ، تحقيق وتقديم شكرالله الجرّ، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1964.

6- حنين، رياض، أسماء، قرى ومدن وأماكن لبنانية في روايات شعبية، بييروت، دار لحد خاطر، د. ط، 1986، ص 64.

7- حيدر أحمد، د. علي راغب، المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل سياسياً تاريخياً واجتماعياً بالوثائق والصور (1842 - 2006)، بيروت دار الهادي، ط1، 2007.

8- الريحاني، أمين، رسائل أمين الريحاني، تحقيق ألبرت الريحان، بيروت، دار الجيل، ط2، 1991.

9- شيخو، الأب لويس، الآثار القديمة في لبنان، ضمن لبنان مباحث علمية واجتماعية نشره إسماعيل حقي، بيروت، دار لحد خاطر، ط3، 1993.

10- صليبا، د. لويس، الاغتراب اللبناني ملحمة ومأساة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014.

11- صليبا، د. لويس، الديانات الإبراهيمية بين العنف والجدل والحوار، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2012.

12- صليبا، د. لويس، شربل رفيقنا الصامت، حكاية قداسة عنوانها الصمت، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط3، 2014.

13- عامر، د. سامية، الصليبيون في فلسطين، جبيل/لبنان، القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ط1، 2002.

14- عبود، مارون، المجموعة الكاملة، بيروت، دار الثقافة، د. ت، ج 10.

15- عقل، سعيد، كما الأعمدة، شعر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974.

16- عوّاد، جهاد، جبيل حاضراً ومستقبلاً، جبيل/لبنان، مطبعة دكاش برس، ط1، 2010.

17- لامنس اليسوعي، الأب هنري، تسريح الأبصار، فيما يحتوي لبنان من الآثار، بيروت، دار الرائد اللبناني، ط2، 1982.

18- مرعب، نخله، بلاد جبيل، في القرن العشرين، مفكرون ومبدعون رسموا تاريخها، جبيل/لبنان، منشورات بيبليون، ط1، 2000، ج3.

19- ناصر خسرو علوين أبو معين الدين (ت 453هـ/1061)، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1971.

20- Dunand, Maurice, Byblos Grammata, Paris, Adrien-Maisonneuve.

21- Dunand, Maurice, Byblos son histoire, ses ruines, Paris Adrien-Maisonneuve, 1968.

(بسمه سبحانه [illegible])

(نحن مخاتير وكهنة مدينة جبيل) نفيد بما يلي:

ان السوق القديم الذي تم بنائه خارج الاسوار القديمة حاليًا يعود
الى العام ١٢٩٠ هجري [illegible] على [illegible] في [illegible]
السوق [illegible] الذي تم [illegible] المرحوم محمد [illegible]
[illegible] في السوق القديم [illegible] جبيل [illegible]
الحاج عبد الله رضوان الحاسي [illegible] موقع [illegible]
من الزاوية التي تطل على الميناء [illegible] الحاج عبد الله الحاسي [illegible] ٣١٥ هجري
[illegible] المرحوم [illegible] الحاج عبد الله الحاسي [illegible]
الحاج عبد الله كان تاجر [illegible] القاضي سليم [illegible]
[illegible] جبيل [illegible] في ميناء جبيل [illegible] تقريبًا
[illegible] المرحوم [illegible] سليم
[illegible] من السلطان العثماني [illegible] الحاج عبد الله
[illegible] بان المرحوم [illegible] في [illegible]
[illegible] (زالطي) رجب الحاسي [illegible]
[illegible] البحرية [illegible] في الايام العثمانية
[illegible] من [illegible] الاثار [illegible] لنا الذي
[illegible] موضع [illegible] الرومانية [illegible] بان بيت رجب
الحاسي [illegible] الدنيا بان امام جامع جبيل [illegible] الاثار
[illegible] الشيخ [illegible] الحاسي [illegible] كما ان [illegible]
[illegible] الشيخ [illegible] والد الشيخ [illegible] جبيل
[illegible] عن الوضع الذي كان في جبيل
[illegible]

١٢ [illegible] ١٩٩٦

[illegible]

لبنان ارض العيش المشترك والضيافة

الاحد ١٤ ايلول الساعة ١٢،٣٠ في دير مار يوحنا مرقس- جبيل

مدير الندوة : الشيخ عبّاس طربيه

المحاضر: د.لويس صليبا

الواقع : النائب عبّاس الهاشم

المعقّب : الأباتي بولس نعمان

مداخلات الحضور

يشارك في هذا الحجّ نماذج من المجتمع اللبناني في تعددّ مناطقه وطوائفه وأديانه وأعراقه وأجياله: صغارًا وشبابا وكبارا. وعدد من المؤسّسات الأجنبيّة والعربية التي تعنى بالسلام والوحدة، في تواصل مع اللبنانيّين فتكون بينهم المشاركة في الخبرات والانجازات.

يحلّون جميعهم، ضيوفاً على المجالس البلديّة، وينزلون في **بيوت الصداقة**، يتعرّفون على المجتمع والتراث والبيئة.

مكتبة البحث

1- إسماعيل، عادل، عهد الفوضى والإضطرابات، ضمن لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت، منشورات مركز الحريري الثقافي، ط1، 1993.

2- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة إحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، ط 8، 1987.

3- البرجي، نبيه، بيسمارك وماري منيب، مقالة على موقع التجمع العربي والاسلامي لدعم خيار المقاومة، الأربعاء 2013/09/11،

4- البعيني، نجيب، صحيفة الصفاء 1886-1926، مقال في جريدة الحياة، عدد 13934، بيروت 2001/05/10.

5- ترحيني، أحمد، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، دراسة مقارنة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1981.

6- جبران، جبران خليل، إقلب الصفحة يا فتى، مخطوطات لم تنشر، تحقيق وهيب كيروز، بيروت، لجنة جبران الوطنية، ط1، 2010.

7- جبران، جبران خليل، المجموعة العربية الكاملة، تقديم ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر، ط1، 1949.

8- جراده، محمد رجب قدورة، مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نشؤوها وتطورها، أطروحة في كلية الآداب، جامعة صنعاء، 2007.

9- الجسر، باسم، ميثاق 1943 لماذا كان؟ وهل سقط؟، تقديم فريد الخازن، بيروت، دار النهار، ط2.

10- حتي، فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، ط2، 1972.

11- الحداد، حكمت ألبير، لبنان الكبير، بيروت، دار مارون عبّود، ط1، 1987.

12- حرفوش، الأب إبراهيم، دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي بناء الطائفة المارونية البطريرك الياس الحويك، جونيه، مطبعة المرسلين، ط1، 1934.

13- الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، دار النهار، ط 4، 1991.

14- الحكيم، يوسف، سورية والعهد الفيصلي، بيروت، دار النهار، ط3، 1986.

15- حلاق، حسّان، دراسات في تاريخ لبنان المعاصر 1913-1943، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1985.

16- حلاق، د. حسان، آل سرسق مثال العائلات الوجيهة ذات الثروة والإقطاع، مقالة في مجلة الحوار، www.alhiwar.info

17- حلاق، د. حسان، آل سرسق مثال العائلات الوجيهة ذات الثروة والإقطاع، مقالة في مجلة الحوار، www.alhiwar.info.

18- حلو، فرجينيا، نبي الحبيب، رسائل الحب بين ماري هاسكل وجبران، ترجمة لوران فارس، بيروت، الأهلية للنشر، ط2، 2004.

19- الحويك، البطريرك الياس، الذخائر السنية، مجموعة رسائل البطريرك إلى الموارنة، جمعها الأب فيليب السمراني، جونيه/لبنان، مطبعة المرسلين اللبنانيين.

20- الخصوصي، بدر الدين عباس، القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر، باريس، منشورات أسمار، ط2، 2007.

21- الخطيب، هدى نور الدين، استعراض موجز لتاريخ الصحافة الفلسطينية قبل النكبة، مقالة في مجلة نور الأدب، 2011/12/06. www.nooreladab.com.

22- خليفة عصام كمال، الحدود اللبنانية- السورية محاولات التحديد والترسيم 1920- 2000، بيروت، مطبعة جوزيف الحاج، ط1، 2006.

23- خليفة، د. عصام، أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، دار الجيل، ط1، 1985.

24- خليفة، د. عصام، السوريون لم يخرجوا من لبنان، مقال في جريدة الشراع، 2014/01/08.

25- خليفة، د. عصام، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، 1997.

26- الخوري، الخوري إسطفان إبراهيم، وثائق البطريرك الحويك السياسية، صادرة عنه ومختارة من ملفّاته المصنفة سياسياً في أرشيف البطريركية المارونية في بكركي، ذوق مصبح/لبنان، المركز الماروني للتوثيق، ط1، 2013.

27- الخوري، الشيخ بشارة، حقائق لبنانية، بيروت، ط1، 1960.

28- خوري، المطران عبدالله، مفكرة ويوميات إبّان المفاوضات من أجل لبنان الكبير 1920، تحقيق سامي سلامه، لبنان، منشورات جامعة سيدة اللويزة، ط1، 2001.

29- دايه، جان، لكم جبرانكم ولي جبراني مع خمسين نصّاً مجهولاً لجبران، بيروت، منشورات مجلة قب الياس، ط1، 2009.

30- دبس، ماري مالك، البطريرك غريغوريوس الرابع حداد، رسالة ماجستير، جامعة البلمند، 2003.

31- ديب، كمال هذا الجسر العتيق ، سقوط لبنان المسيحي ؟ 1920- 2020 ، بيروت دار النهار، ط 2013.

32- الراسي، سلام، في الزوايا خبايا، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1974.

33- الراسي، سلام، لئلا تضيع، أحاديث وأحداث جمعتها عن ألسنة الناس، بيروت، مؤسسة نوفل، ط2، 1977.

34- رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، بيروت، المكتبة البولسية، ط2، 1989، ج3.

35- رستم، د. أسد، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت، دار النهار، ط1، 1973.

36- رياشي، اسكندر، رؤساء لبنان كما عرفتهم، دمشق، دار أطلس، ط2، 2006.

37- رياشي، اسكندر، قبل وبعد 1918-1941، بيروت، دار الحياة، ط1، 1953.

38- زغيب، هنري، جبران خليل جبرا،ن، شواهد الناس والأمكنة، بيروت، درغام للنشر، ط1، 2012.

39- زنده، الأب أغوسطين، التاريخ اللبناني (1714-1728)، تحقيق الأب جوزف قزي، الكسليك، جامعة الروح القدس، ط1، 1988.

40- سرّوج، الأب إبراهيم، البطريرك غريغوريوس حدّاد نموذج فريد في العيش المسيحي-الإسلامي، محاضرة في مؤتمر طرابلس عيش واحد، 27 و2009/03/28.

41- سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2، (ط1، 1933)، ج3.

42- سلهب، نصري، المسألة المارونية، الأسباب التاريخية للإحباط الماروني، بيروت، بيسان للنشر، ط1، 2000.

43- سليمان، عصام، الفدرالية والمجتمعات التعدّدية ولبنان، تقديم محمد المجذوب، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1991.

44- سنّو، د. عبدالرؤوف، لبنان الطوائف في دولة ما بعد الطائف، إشكاليات التعايش والسيادة وأدوار الخارج، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث، ط1، 2014.

45- السودا، يوسف، في سبيل الإستقلال، في وادي النيل 1906-1922، بيروت، دار الريحاني، ط1، 1967.

46- السودا، يوسف، في سبيل لبنان، بيروت، منشورات لحد خاطر، ط3، 1988، (ط1، 1918).

47- الشلبي، تمارا، شيعة جبل عامل ونشوء الدولة اللبنانية 1918-1943، ترجمة عايدة سركيس، بيروت، دار النهار، ط1، 2010.

48- شهاب، د. أسامة يوسف، الاتجاه الإسلامي في نهضة الشريف الهاشمي، دراسة في الفكر السياسي للثورة العربية وثائق ونصوص وأسانيد، عمّان، مركز اللغات، ط1، 1995.

49- صليبا، د. لويس، الإسلام في مرآة الإستشراق المسيحي، دراسة، نصوص مترجمة وتعقيبات، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2013.

50- صليبا، د. لويس، الاغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014، فصل 4.

51- صليبا، د. لويس، الدولة الإسلامية من منظور مسيحي، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2014.

52- صليبا، د. لويس، عهود أهل الذمة نصوص ودروس، دراسة وتحقيق لكتاب أسفار الأسرار لصليبا بن يوحنا الموصلي (ت 1332 م)، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبلون، ط 1، 2012.

53- الصليبي، كمال، الموارنة صورة تاريخية، بيروت، دار نلسن، ط1، 2011.

54- الصليبي، كمال، بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصوّر والواقع، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1990.

55- الصليبي، كمال، منطلق تاريخ لبنان، بيروت، مؤسسة نوفل، ط3، 2012.

56- ضاهر، مسعود، تاريخ لبنان الإجتماعي 1914-1926، بيروت، دار المطبوعات الشرقية، ط2، 1984.

57- ضو، طوني، لبنان الكيان ومؤتمر الصلح، جبيل، 1996، ج3.

58- طرابلسي، فواز، تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، بيروت، رياض الريس للكتب، ط1، 2008.

59- عزيز، جان، خطأ البكركويين وخطيئة الشتّامين، مقالة في جريدة الأخبار، العدد 1590.

60- العقل، سليم، لبنانكم ولبناننا والمصير القومي، 2011/07/19. www.ssnp.Info

61- العلم، فيغان، البطريرك الحويك وإعلان دولة لبنان الكبير عام 1920، ضمن اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1996.

62- عواد، الخوري منصور، البطريرك اللبناني الياس الحويك، سلسلة مقالات في مجلة المشرق، السنة الثلاثون، 1932.

63- عوض، وليد، أصحاب الفخامة رؤساء لبنان، بيروت، الأهلية للنشر، ط1، 1977.

64- فهد، الأباتي بطرس، بطاركة الموارنة وأساقفتهم القرن 20، بيروت، دار لحد خاطر، ط1، 1987.

65- فهد، بطرس، بطاركة الموارنة وأساقفتهم، القرن 18، بيروت، دار لحد خاطر، ط1، 1985.

66- قرم، جورج، لبنان المعاصر تاريخ ومجتمع، ترجمة حسّان قبيسي، بيروت، المكتبة الشرقية، ط1.

67- قصير، سمير، لبنان في السياسة الفرنسية 1920 - 1993، ضمن 50 سنة من استقلال لبنان أعمال الثورة المنعقدة في النادي الثقافي العربي حزيران 1993، بيروت، دار النهار، ط1، 1993.

68- كوثراني، د. وجيه، بلاد الشام، السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، قراءة في الوثائق، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط1، 1980.

69- كيروز، وهيب، عالم جبران الفكري، بيروت، دار بشارية، ط1، 1984، ج4.

70- مراد، سعيد، الحركة الوحدوية في لبنان بين الحربين العالميتين 1914-1946، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط1، 1986.

71- مسعد، البطريرك بولس، الدرّ المنظوم ردًّا على البطريرك مظلوم (في الدفاع عن تاريخ الموارنة)، ط2، دار مكتبة بيبلبون، 2003، ط1، دير طاميش/ لبنان، 1863.

72- مسّوح جورج، مقابلة يوم الجمعة 2013/09/13 على الإلكترونية اللبنانية، www. Elnashra.com

73- مكّاوي، نجلاء سعيد، مشروع سورية الكبرى، دراسة في أحد مشروعات الوحدة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2010.

74- الملاح، عبدالله، موقف الجالية اللبنانية في الأرجنتين من لبنان الكبير 1918-1920، ضمن دولة لبنان الكبير 1920-1996، بيروت، الجامعة اللبنانية، ط1، 1999.

75- نجار، إسكندر، جبران خليل جبران، ترجمة بسّام حجّار، بيروت، دار النهار، ط1، 2002.

76- نجار، إسكندر، قاموس جبران خليل جبران، ترجمة ماري طوق، بيروت، دار الساقي، ط1، 2008.

77- نصّار، ناصيف، من المتصرفية إلى لبنان الكبير، مدخل إلى دراسة اتجاهات الفكر السياسي عند الموارنة في المائة سنة الأخيرة بحث ضمن مجلة المشرق، بيروت، السنة 65، 1991.

78- يعقوب، إميل بديع، الأمثال الشعبية اللبنانية، طرابلس، جروس برس، ط1، 1984.

Biblioghraphie

1- AE (Archive du Ministère des affaires Etrangères Note du Sous-Secretaire d'Etat à la Direction politique (Afrique-Levant). E 4132, série 801, N°801, N° 149, Paris 29 Aout 1932.

2- Archive du Ministère des affaires Etrangères. Ponsot à Briand, E 412, Série 761. Despatch no 275, Beyrouth 22 Avril 1930. Appendice datée 12/04/1930.

3- Boustani, Fouad E., Le Problème du Liban, Beyrouth, Editions Ad-D à'irah, 1978.

4- Catroux, Général, Deux missions au Moyen-Orient (1919-1922), Paris, Plon, 1958.

5- Catroux, Georges, Dans la bataille de la Mediterrannée (1940-1944), Paris, René Juliard, 1948.

6- Chiha, Michel, politique intérieure, Beyrouth, Editions Trident, 1964.

7- Frangié, Samir, Article in L'Orient Le Jour, 07/06/1997.

8- Khair Antoine, le Moutaçarrifiat du Mont Liban, Beyrouth, 1973.

9- Khalil Gibran and Ameen Rihani, Prophets of Lebanese-American literature, Louaizé/Lebanon, N.D.U press, 1999.

10- Lerner, Henri, Catroux, Préface de Jean Lacouture, Paris, Albin Michel, 1990.

11- LIOYD GEORGES, David, the truth about the peace treaties, London, 1939.

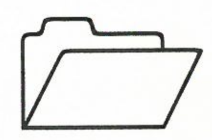
12- Samné, G., La Syrie, préface de Chekri Ganem, Paris, Ed. Bossard, 1920.

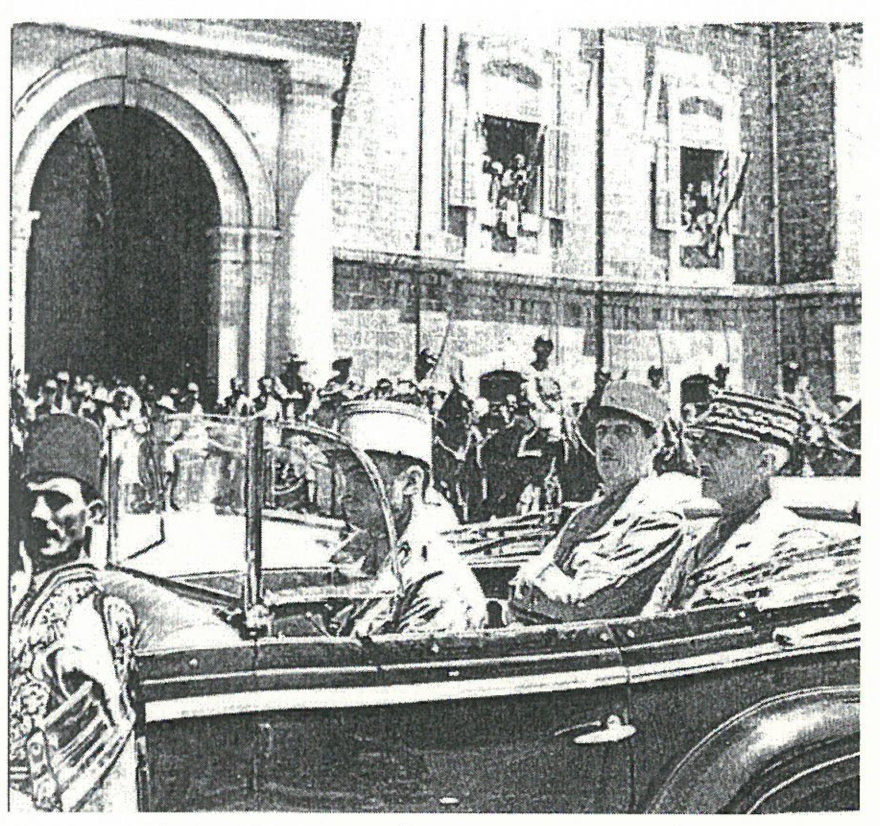
13- Zamir, Meir, Emile Eddé and the Territorial integrity of Lebanon, in Middle eastern Studies, London, Taylor & Francis, Vol 14. N°May 1978.

14- Zamir, Meir, Smaller and Greater Lebanon, the Squaring of a circle? in Jerusalem Quarterly, vol 23, 1982.

15- Zamir, Meir, the formation of modern Lebanon, London, Croom Helm, 1985.

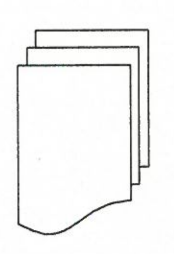
16- Zoghbi, Marie-Roger, Une gloire du Liban le Patriarche Elias Hoyek, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1991.



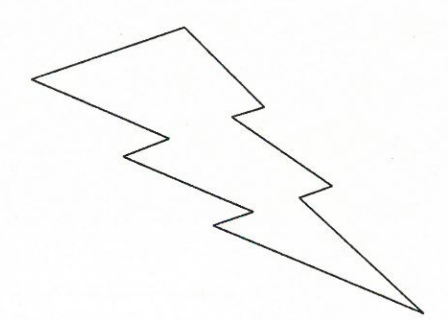


الجنرالان ديغول وكاترو يدخلان إلى بيروت بعد الانتصار على قوات حكومة فيشي

فهرس التراجم وسائر الحواشي

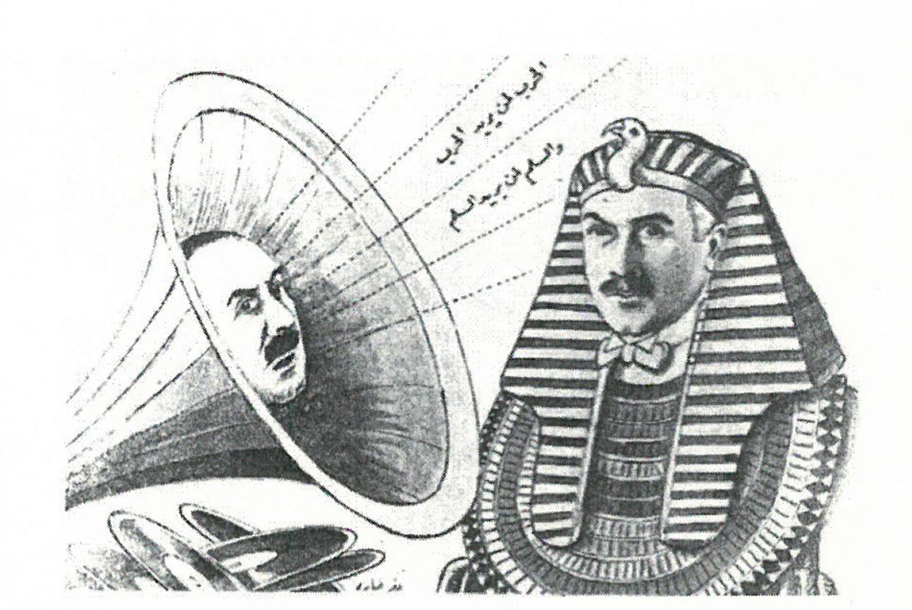


فهرس الصور



محتويات الكتاب





سلسلة الصمت في التصوّف والأديان المقارنة

يصدرها ويشرف عليها د. لويس صليبا

صدر منها

1 – مقامات الصمت والمدن المقدّسة، ويليه ملحق في الصمت واليوغا تقديم المستشرق البروفسور بيير لوري.

2 – الصمت في الهندوسية واليوغا: تعاليمه واختباراته في الفيدا وسيَر الحكماء المعاصرين.

3 – الصمت في اليهودية: تقاليده في التوراة والتلمود وعند الحسيديم. وإيليا نبي الإصغاء إلى الصمت، قدّم له أ. إميل عقيقي.

4 – الصمت في المسيحية: مفهومه الإنجيلي واختباراته في كنائس المشرق والغرب، تقديم الأب د. جوزف قزّي.

5 – شربل رفيقنا الصامت: حكاية قداسة لبنانية عنوانها الصمت، قدّم له الأب د. جوزف قزّي.

يصدر لاحقاً

6 – الصمت في الإسلام: آدابه في سِيَر الرسول وآل بيته والصوفيّة.

7 – الصمت في البوذية.

8 – التأمّل واليوغا.

دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان

سلسلة أديان ... وكتب مقدّسة

صدر منها

1 – الكيتا كتاب الهندوسية المقدّس. ترجمة ودراسة د. ماكن لال شودري.
155 ص

2 – أقدم كتاب في العالم: ريك ڤيدا، دراسة، ترجمة وتعليقات بقلم د. لويس صليبا.
590 ص

3 – كتاب الأقدس، كتاب البهائية المقدّس مع مدخل إلى الدين البهائي تاريخه وعقائده.
260 ص

4 – مجموعة من ألواح حضرة بهاء الله نزلت بعد كتاب الأقدس ويليها ردّ على تحذير جبهة العلماء.
270 ص

5 – كتب البابيّة المقدّسة، فهرسها ونشرها وقدّم لها المستشرق إدورد براون.
270 ص

6 – ديانة السيخ بين الإسلام والهندوسية: تاريخها عقائدها، صراعها مع الإسلام وأبرز نصوصها المقدّسة. د.لويس صليبا.

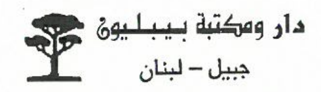
7– الدهمّاپادا: كتاب البوذية المقدّس. ترجمة سحبان مروّة. 220ص

8 – التوراة السامرية، ترجمة الكاهن السامري إسحق الصوري، دراسة وتقديم سحبان مروّة.
360ص

يصدر لاحقاً:

– التوراة السامرية.

– كنزا ربّا.



دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان

سلسلة المسيحية والإسلام بين الجدل والحوار

1 – هم... ونحن، دراسة مقارنة بين المسيحية وسائر المذاهب والديانات للأب جبرائيل كليجا.
400 ص

2 – كتاب الدعامة، محاورات حول المسيحية والأديان والمذاهب الأخرى نشره الأب جرجس دير أروتين الكاثوليكي.
400 ص

3 – الباكورة الشهية في الروايات الدينية، مناظرة وحوار بين علماء مسيحيين ومسلمين.
168 ص

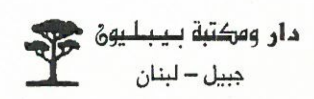
4 – الأزاهير المضمومة في الدين والحكومة للشيخ أمين خيرالله صليبا، وتسبقه دراسة للدكتور لويس صليبا: مفكّر مسيحي طالب بالإسلام ديناً للدولة.
640 ص

5 – مجموعة الردود على الخوارج (فلاسفة المسلمين)، للقدّيس توما الأكويني وهو تفنيد ونقد لنظريات الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وعلماء الكلام على ضوء الفلسفة المسيحية. ترجمة وتعليق المطران نعمة الله أبي كرم.
560 ص

6 - موجز عن الإسلام، تأليف الأب يواكيم مبارك، تقديم الشيخ صبحي الصالح.
143 ص

7 – الرد على سِيَرِ الأوزاعي: سيرة المسلمين في معاملة أهل الذمّة والحرب والمرتدين لِ صاحب أبي حنيفة الأمام أبي يوسف بن إبراهيم الأنصاري تحقيق أبو الوفا الأفغاني.
145ص

8 – توما الأكويني وردوده على فلاسفة الإسلام، بحوث في مآثره وآثاره وتأثيره، دراسة وتحقيق د. لويس صليبا.
630ص



دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان

مكتبة توما الأكويني معلّم معلّمي الكنيسة

1 – مجموعة الردود على الخوارج (فلاسفة المسلمين)، للقدّيس توما الأكويني وهو تفنيد ونقد لنظريات الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وعلماء الكلام على ضوء الفلسفة المسيحية. ترجمة وتعليق المطران نعمة الله أبي كرم.

2 – الخلاصة اللاهوتية للقدّيس توما الأكويني، وهو موسوعة شاملة في الفلسفة والعقائد والفرق المسيحية، ترجمة المطران بولس عوّاد. 5 أجزاء.

3 – توما الأكويني وأثره عبر العصور، بحوث في سيرته وفلسفته الإلهية والاجتماعية، تحقيق وترجمة وتأليف د. لويس صليبا.

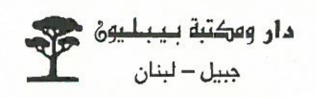
4 – هكذا علّم توما الأكويني، مدخل إلى مؤلّفاته ويليه كتابَي الأنبياء الكذبة والوجود والماهية ونصوص أخرى، دراسة وترجمة د. لويس صليبا.

5 – توما الأكويني والإسلام، بحوث في مصادره الإسلامية وردوده على الفلاسفة، دراسة وتحقيق د. لويس صليبا.

6 – فلسفة مسيحيّة في أرض الإسلام: التوماوية فلاسفتها ودورها في الحوار المسيحي الإسلامي، للدكتور لويس صليبا.

7 – رسالة في الردّ على المسلمين للقدّيس توما الأكويني، دراسة وتحقيق د.. لويس صليبا.

8 – قاموس الفلسفة المسيحيّة، التوماوية مصادرها وفلاسفتها، للدكتور لويس صليبا.



سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة

1 – صدر منها

1- م. حاي بن شمعون، كتاب الأحكام الشرعيّة في الأحوال الشخصيّة للملة اليهوديّة.

2- الدكتور هلال فارحي، كتاب أساس الدين: تعاليم الديانة اليهوديّة وقواعد إيمانها، ويليه كتاب أصداء التوراة للحبر ولش.

3- ماكس مارجوليز وألكسندر ماركس، تاريخ الشعب اليهودي في العصور الوسطى، أو كيف يروي اليهود تاريخهم.

4- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، قدّم له د. طه حسين، مع دراسة مدخل: صراع اليهوديّة والإسلام من منظور يهودي، للدكتور لويس صليبا.

5- إسرائيل ولفنسون، موسى بن ميمون: حياته ومصنّفاته، تقديم مصطفى عبدالرازق.

6- جوزف هرتس، خلاصة الفكر اليهودي عبر العصور، نصوص أساسية من التلمود وأحبار اليهود وفلاسفتهم، تحوي زبدة العقائد اليهودية في الدين والمجتمع، مع دراسة تحليلية للدكتور لويس صليبا: الفكر اليهودي بين الخصوصية والشمولية.

7- د. سليم شعشوع، تاريخ الفلسفة والعلوم اليهودية في أرض الإسلام: دراسة في تراث اليهود في الدولة الإسلامية وخصوصاً في الأندلس. مع دراسة وتكملة لـ د. لويس صليبا: الفلسفة والعلوم اليهودية جسر تواصل بين العرب والغرب.

8- إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ويسبقه كتاب: من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام: دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه لـ د. لويس صليبا.

9- تاريخ يوسيفوس اليهودي (ت 100م)، نشره نقولا مدوّر. مقدمة ودراسة لشاهين مكاريوس.

10- شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين: اليهود قديماً وحديثاً مع تراجم مشاهيرهم شرقا وغربا. خاتمة لـ روفائيل بن شمعون حاخام مصر الأكبر.

11- رحلة الرابّي بنيامين التطيلي (1160 – 1173)، وفيها وصف لأوضاع اليهود في مختلف البلدان ولِفِرَق الدروز والحشّاشين وغيرها. ترجمة، دراسة وتعليق عزرا حدّاد.

12- عزّ الدولة بن كمّونة، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، قدّم له بدراسة وعلق عليه: د. لويس صليبا.

13- العلامة دي بفلي، المعاملات والحدود في شرع اليهود طبقاً لأحكام التوراة والتلمود مع مقارنة بالشريعة الإسلامية. تعريب القاضي محمد حافظ صبري.

14- موسى بن ميمون (ت 601 هـ)، شرح أحكام التوارة والتلمود، دراسة وتقديم د. عباس زرياب.

15- د. إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)، كعب الأحبار وتسبقه دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير، للدكتور لويس صليبا.

سلسلة المعراج/النص، الواقع، والخيال

صدر منها

1 – كتابُ المعراج للقشيري، نشره وعلّق عليه، د. لويس صليبا. وتسبقه دراسة للناشر بعنوان: المعراج بين المحدّثين والمتكلمين والمتصوّفين.
ط2، 340 ص

2 – معراج محمد/المخطوطة الأندلسية الضائعة، ترجمة لنصّها اللاتيني مع دراسة وتعليقات وبحث في جذور نظرة الغرب إلى الإسلام، للدكتور لويس صليبا.
ط2، 340 ص

3 – المعراج في الوجدان الشعبي: أثره في نشأة الفِرَق والفنون والكتب المنحولة في الإسلام مع تحقيق لِـ "معراج النبي" عن مخطوطة للشيخ داود الرفاعي، نشر ودراسة د.لويس صليبا.
ط2، 370 ص

4 – المعراج من منظور الأديان المقارنة: دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه. تأليف د. لويس صليبا.
ط2، 422 ص

يصدر قريباً

5– المعراج وأثره في التصوير الإسلامي.

6– المعراجَين الفارسي والمسيحي وأثرهما في المعراج الإسلامي.

7– المعراج في مأثورات المحدّثين والمتكلّمين.

دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان

الهند فلسفة وحضارة

1 – أقدم كتاب في العالم ريك ڤيدا دراسة ترجمة وتعليقات، للدكتور لويس صليبا.
590 ص

2 – الكيتا كتاب الهندوسية المقدّس، ترجمة د. ماكن لال شودري.
155 ص

3 - حضارات الهند: موسوعة في تاريخ الهند وأديانها وعلومها وفنونها. غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعَيتر.
740 ص

4 – موسوعة الأيورڤيدا (الطب الهندي)، دراسة علمية ودليل عملي للتداوي وحفظ العافية. د. لويس صليبا.
770 ص

5 – الأيورڤيدا والطب العربي، دراسة في الطب الهندي وأثره في أرض الإسلام، مع تحقيق لمقالة من جوامع كتب الهند لابن ربّن الطبري. د. لويس صليبا.
362 ص

6 – فلسفة راجا يوغا مع دراسة مقارنة بين اليوغا والتصوّف الإسلامي ويليه فلسفة اليوغا مع عرض لأبرز مدارسها. لليوغي الحكيم راما شاراكا.
500 ص

7 – التراث الهندي، دراسة في أديان الهند وآدابها وفنونها وتفاعلها مع الإسلام للبروفسور همايون كبير. ترجمة الشاعر عمر أبو ريشة.
282 ص

8 – ديانة السيخ بين الإسلام والهندوسية: تاريخها عقائدها، صراعها مع الإسلام وأبرز نصوصها المقدّسة. للدكتور لويس صليبا.
ص

9 – فلسفة الهند وأبرز حكمائها في سيرة يوغي للحكيم پرمهنسا يوغانندا. ترجمة زكي عوض.
550 ص

10 – مقامات الصمت والمدن المقدّسة، مع ملحق في الصمت واليوغا. د. لويس صليبا. مقدّمة المستشرق بيير لوري.

11 – الصمت في الهندوسية واليوغا: تعاليمه واختباراته في الڤيدا وسِيَر الحكماء المعاصرين.
300ص

دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان

(تابع ص 2 من الكتاب)

16 –**السنة والشيعة**: مذهبان أم ديانتان؟! دراسة في اختلافات العقيدة والفقه بينهما ولا سيما في التقية والمتعة.
ط1، 2015، 584 ص

17 – **الآثار الكاملة للأب عفيف عسيران**: دراسة، ترجمة وتحقيق.
ط1، 2015، 620 ص

18 – **اليوغا في الإسلام**، مع تحقيق وشرح لكتاب باتنجلي الهندي للبيروني.

II - في الدراسات الهندية والفيدية

19- L'Hindouisme et son influence sur la pensée musulmane selon Al-Bîrûnî (m1048), Paris, 1995, 2ème édition, 2009, 250 p.

20 – **الأيورفيدا والطب العربي**: دراسة في الطب الهندي وأثره في الإسلام، مع تحقيق لمقالة من جوامع كتب الهند للطبري.
ط1، 2006، ط2، 378 ص

21 – **أقدم كتاب في العالم : ريك ڤيدا**، دراسة، ترجمة وتعليقات.
ط1، 2005، ط4، 600 ص

22 – **موسوعة الأيورفيدا(الطب الهندي)**: دراسة علمية، ودليل عملي للتداوي، وحفظ العافية. ط1، 2006، ط2، 675 ص

23 – **ديانة السيخ بين الهندوسية والإسلام**: تاريخها، عقائدها، صراعها مع الإسلام مع نصوص من كتابها المقدّس.
ط1، 2008، ط3، 355 ص

24 – **الصِمت في الهندوسية واليوغا**، تعاليمه واختباراته في الفيدا وسير الحكماء المعاصرين. ط1.2009، ط3، 330 ص

25 – **أديان الهند وأثرها في جبران**، دراسة للمصادر التيوزوفية في أدب نابغةالمهجر.تقديم د. بيتسا استيفانو.
ط1، 2015، 390 ص

26 – هندوسي من لبنان: ميخائيل نعيمة.

27 – **نعيمه وجبران والفلسفة الهندية**: وحدة مصادر وعلاقة ملتبسة.

III - في التصوّف

28 – **إشارات، شطحات ... ورحيل**: أناشيد ومختارات صوفية مع أبرز شطحات الحلاج والبسيطامي ولوحات لعدد منها، ودراسة لظاهرة الشطح في التصوف، تقديم المستشرق بيير لوري. ط1، 2005، ط3، 228 ص

29 – **مرآة القلب**: حكايات وأغنيات عاشق. ومحاولات في العشق الصوفي، مع مختارات من الأتهارڤافيدا وكتابات الشركسي الصوفي، مقدمة بقلم جاد حاتم، مع ذيل في القُبلة في التصوف والأديان. ط1، 2005، ط3، 200 ص

30 – **الرغبة المبتسرة**: أبحاث ومحاولات في المحرّم. تقديم ماجدة داغر. ط1، 2010، ط2، 276 ص

31 – **المعراج بين المحدّثين والمتكلّمين والمتصوفين**، دراسة ونشر وتعليق لكتاب المعراج للقشيري. ط1، 2007، ط4، 352 ص

32 – **مقامات الصمت والمدن المقدّسة**: مع ملحق في الصمت واليوغا ومقدّمة للمستشرق بيير لوري. ط1،2008، ط3، 376ص

33 – **جدلية الغياب... والحضور**: محاولات وبحوث في التجربة الصوفية وفي الحضرة. تقديم عماد يونس فغالي.
ط1، 2014، 330 ص

34 – **سائح على ضفاف الذات**: حكاية مسار صوفي وسيرة ذاتية شعرية، تقديم عماد يونس فغالي. ط1، 2014، 378 ص

IV - في الدراسات اليهودية

35 – **صراع اليهودية والإسلام من منظور يهودي**: دراسة وتحقيق لكتاب تاريخ اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام لإسرائيل ولفنسون، ط1، 2006، ط3، 372 ص

36 – **الفكر اليهودي بين الخصوصية والشمولية** دراسة ومدخل لكتاب تلمود اليهودية المعاصرة للحاخام هرتس.
ط1، 2007، ط2، 560 ص

37 – **الفلسفة اليهودية: جسر تواصل بين العرب والغرب**. دراسة وتكملة لكتاب تاريخ الفلسفة والعلوم اليهودية في أرض الإسلام لِسليم شعشوع. ط1، 2007، ط2، 412 ص

38 – **من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام**، دراسة لجذورها في المشرق، وتلفيقاتها لتاريخه ورد على كتاب يقظة العالم اليهودي. ط1، 2007، 320 + 320 ص

39 – **الصمت في اليهودية**: تقاليده في التوراة والتلمود وعند الحسيديم وإيليا نبي الصمت، تقديم أ. إميل عقيقي.
ط1، 2009، ط3، 376 ص

V - في الدراسات المسيحية

40 – **الصمت في المسيحية**: مفهومه واختباراته في الإنجيل وكنائس المشرق والغرب تقديم د. جوزف قزّي.
ط1، 2009، ط4، 462 ص

41 – **شربل رفيقنا الصامت:** حكاية قداسة لبنانية عنوانها الصمت، تقديم أ. جوزف قزّي. ط1، 2009،ط4، 380 ص

42 – توما الأكويني وأثره عبر العصور، بحوث في سيرته **وفلسفته الإلهية والاجتماعية.** ط1، 2011،ط2، 486 ص

43 – **هكذا علّم توما الأكويني**، مدخل إلى مؤلّفاته يليه كتابا الأنبياء الكذبة والوجود والماهية ونصوص أخرى.
ط1، 2011،ط2، 410 ص

44 – **من تاريخ الفلسفة المسيحيّة في أرض الإسلام:** التوماوية فلاسفتها ودورها في الحوار المسيحي الإسلامي، تقديم أ. بولس الفغالي. ط1، 2011،ط2، 610 ص

45 – **قاموس الفلسفة المسيحيّة**، اللاهوت الكاثوليكي مصادره وفلاسفته. ط1، 2012،ط2، 496 ص

46 – **الإسلام والهرطقات المسيحية:** دراسة وترجمة لكتاب القدّيس يوحنّا الدمشقي في الإسلام.

47 – **اليوغا في المسيحية:** دراسة مقارنة بين تصوّفين، تقديم د.بيتسا استيفانو. ط1، 2016،ط2، 340 ص

VI - في تاريخ المشرق ولبنان

48 – **الدولة الإسلامية من منظور مسيحي**/دراسة لكتاب الأزاهير المضمومة لأمين صليبا ولدور الأرثوذكس في الحكم الفيصلي (1918 – 1920). ط1، 2005،ط3، 400 ص

49 – **صدام الأديان والمذاهب في لبنان: شهادة من الماضي عبرة للآتي**، دراسة وتحقيق وملاحق لكتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، لميخائيل مشاقة. ط1، 2007،ط2، 634ص

50 – **الاغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة**، دراسة وتذييل لكتاب تاريخ المهاجرة اللبنانية مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية. ط1، 2008، ط2، 590+220 ص

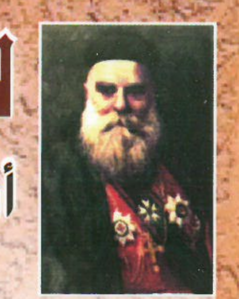
51 – **عابر يلبس كهنوت المسيح**، سيرة الأب عفيف عسيران وروحانيته. ط1، 2013،ط3، 664 ص

52 – **لبنان الكبير... أم لبنان خطأ تاريخي:** نزاعات على الكيان نشأة وهوية. دراسة ووثائق. ط1، 2015،ط2، 428 ص

53 – ولادة وطن: جولة في وثائق لبنان الكبير.



لبنان الكبير !
أم لبنان خطأ تاريخي ؟



الأكاديمي والباحث د. لويس صليبا يغوص بعمق في كتابه الجديد حول نزاعات اللبنانيين في شأن "لبنان الكبير". فيتجاوز المقولة الكلاسيكية المتداولة حول الانقسام العمودي المسيحي الإسلامي، ليشرّح بموضوعية المواقف المؤيدة للبنان الكبير وتلك الرافضة له. ويذهب بنا لويس صليبا إلى دهاليز السياسة في باريس، فيكشف لنا عن تخبّط رئاسة الحكومة الفرنسية بين مشروع دو كيه للبنان صغير بأغلبية مسيحية ساحقة، ومشروع غورو للبنان كبير بحدوده الواردة في الدستور اللبناني.

كتاب "لبنان الكبير أم خطأ تاريخي" جريء في معالجاته وتحليلاته وفي استنتاجاته، وهو يُضاف إلى سلسلة أعمال جليلة للباحث لويس صليبا. ومن يطلع على الكتاب الجديد يدرك بوضوح أن هذا «الخطأ» الذي حدث قبل ١٠٠ عام تقريباً، لا يزال يتفاعل حتى اليوم، لأن اللبنانيين، الطائفيين والمذهبيين بكل امتياز والخاضعين للقرار الخارجي، لم يعملوا على تطوير ميثاق تعايشهم ونظامهم السياسي، فبقوا طوائف وقبائل وعائلات [illegible] أو هوية وطنية.

دار ومكتبة بيبليون
جبيل - لبنان